عبـاس خضـر

خطى مشيناها

[صور بيئية أكثر مما هي سيرة ذاتية]



أحمد أفندى

من الأشياء التى تنبهت عليها فى أول المسيرة اسم (أحمد أفندى) . وكان يذكر فى القرية بالحب وعرفان فضله ، مَن حيث ما غرسه فيها من بذور العلم والعرفان ، غرس ما غرس ومضي . . . إلى أين ؟ ومن أين كان قد أتى ؟ وإلى أين ذهب ومن أهله ؟ ومن أية عائلة ؟ وهذا السؤال الأخير هو المعتاد ترديده على الألسنة فى بلدنا للتعرف على أى أحد .

لم أكن أدرى جواباً لتلك الأسئلة ، بل هى لم تخطر فى بالى الصغير الذى لم يتعود بعد على أن ينشغل بشىء من ذلك الذى يشغل الكبار .

كل ما أدركته هو أثر « أحمد أفندى » فى أذهان قومى وخاصة والدى الذى كان يقرن اسمه باسم أحمد أفندى ، فقد كان « المعلم الأول » يقيم عندنا فى منزلنا ، وقد خصصت « المندرة » لعمله ، وما عمله ؟ هذه « السبورة » السوداء المثبتة فى الجدار . . كان يكتب عليها بشىء أبيض اسمه « التباشير » ليعلم القوم ، وقد صار أبى تلميذه البكر .

وكان هناك شىء آخر يدل على أحمد أفندى ، شىء اسمه « المدرسة » مشروع مبنى لم يعل فيه البناء على مترين إذ نفد (المبلغ) الذى جمع من الناس اكتتاباً للمدرسة ، وكان يمكن أن يتجدد هذا الاكتتاب لولا أن أحمد أفندى مضى . . . وآه لو أن أحمد أفندى لم يذهب وتمت المدرسة .

هكذا كان يقول الكبار متحسرين على الرجل وعلى فوات ما كان يرجى منه . أما نحن الصغار فلم يكن يعنينا إلا لعب الكرة (الشراب) فى الخلاء الفسيح المجاور للمدرسة . وكان هذا الخلاء مجالاً لمزاولة الألعاب المختلفة ، من صغار وكبار ، وأهم ما كان يجرى فيه سباق الخيل فى الأعراس وغيرها ، وإذا (حميت) الخيل واشتدت حماسة فرسانها جرت إلى (السكة الزراعية) الممتدة إلى مالا نتصوره . .

لم يكن شيء أمتع لنا من رؤية الرجال على ظهور الخيل وهى تعدو بهم يلوحون بالبنادق ويصرخون كأنهم فى حومة الوغى . . ثم يطلقون (الأعيرة) فى نهاية الشوط والخيل تصهل كأنها تجاوب زغاريد النساء . وكل منا - صغاراً أو كباراً - يتحمس لفارس يحبه أو يعجبه كمن يتحمس الآن للنادى الأهلى أونادى الزمالك . . ومثل ما يحدث الآن كانت تقوم المشاجرات . .

وكنا فى الليالى القمرية نحاكى الخيل فى السباق ، والسابق المجلى هو الذى يلمس سور (المدرسة) قبل غيره . وأنا من يومى نحيف ، وكانت نحافتى تعيننى على الفوز فى هذا السباق . سمعت مرة ولداً يرد على من أنبه لتأخره دونى فى العدو - إذ قال عنى : إنه يأكل لحماً . . ومثل هذا الولد لا يذوق اللحم إلا فى عيد الأضحى ، أما نحن فكنا على شيء من اليسار ييسر لنا أكل اللحم يوم السوق كل أسبوع . . يظهر أن مسألة اللحم ولهفة الإنسان عليه يزاحم من أجله ويقف ساعات فى طوابير للحصول عليه ، ومن لم يستطع عد نفسه من المحرومين . . يظهر أنها مسألة أزلية . .

كانت والدتى تؤنبنى على كثرة العدو والحركة وتنصحنى بأن أهدأ لكى (يجرى) الأكل فى جسمى وأسمن . . ولم أهدأ حتى اليوم ولم أسمن . ولم أعرف حتى الآن معنى (عصاعيص النقارية) التى كانت تشبهنى بها ، أما (السنافور) الذى كنت أشبه به أيضاً لطولى مع النحافة فهو سارية التليفون .

وكان الخلاء الذى أقيمت (المدرسة) فى جانب منه ، له منافع أخرى ، منها صلاة العيد فيه ، إذ يتسع للجميع من كبار يحرصون على الصلاة وصغار يستعجلون الزمن فيصلون كما يصلى الكبار . ومن لم يشاركوا فى الصلاة من صبيان وبنات تجمعوا حول المصلين بثيابهم الزاهية التى أعدت للعيد . ولا أنسى مرة أممت القوم فى الصلاة وخطبت خطبة العيد . كنت فى السادسة عشرة ، وكان ذلك بعد سنتين من لحاقى بالأزهر ، وقد عدت من القاهرة لقضاء إجازة العيد بين أهلى . لم أكن راغباً فى هذه (العملية) ولكنى لم أجد فكاكاً منها ، يريدون أن يفرحوا بفتاهم الأزهرى ، وعلى الفتى أن يطيع . . ولكن الفتى الأزهرى كان يفضل أن يظل بين الأولاد الذين يهجمون على الإمام الخطيب بعد أن يفرغ ، وينتزعون منه عصا الجريد الغضة التى أحضروها له من إحدى النخلات وهذبوها بسكين ، كى يمسك بها وهو يخطب . . ينتزع ولو قطعة من تلك العصا التى يهرع بقية الأولاد إلى من اختطفها من يد الخطيب ويحرص كل منهم على أن ينال جزءاً من « البركة » ممثلاً فى قطعة من العصا . .

قد يكون – الفتى الأزهرى – تنور وتخلخل فى نفسه ذلك الاعتقاد ولكن العادة والمرح ونزعة الصبا إلى العبث – تدفعه إلى الميل أن يكون (مستهلكاً) للوهم . . لا (منتجاً) له .

وكان عليه بعد الصلاة والخطبة التى ألقاها من ديوان مطبوع يحوى خطب الجمعة والأعياد ، أن يطوف ببيوت القرية كلها على رأس موكب من (المريدين) ليعيدوا على كل من يلقونه فى الطريق أو يقتحمون عليه البيت ، وعليه أن يأكل مما يقدم من كعك وتمر . . . وكانت خاتمة المطاف عند (شهدة) زوجة عمى : امرأة غنية تملك أرضاً فيها نخل كثير ، وقد اشتهرت بنوع جيد من البلح ، كانت شهدة تخزن قدراً منه فى (زلعة) لا تفتحها إلا يوم العيد لتقدم (بلح الزلعة) الذى اشتهر بهذا الاسم لمن يأتون إلى البيت يوم العيد . لم تكن (شهدة) تخرج أمام الرجال ، بل كانت تتحدث وتبعث بأطباق البلح من الداخل .

وقد ضقت بإكبار القوم لى . . وبالعمة والجبة والقفطان التى وضعت فيها ، وكنت أفضل المرح واللعب على الوقار والتزمت اللذين فرضا على فرضاً فى هذه السن المبكرة .

ونعود إلى (أحمد أفندى) والمدرسة التى لم تتم . ترى لو تمت وأدت رسالتها هل كانت تلك (العصا) تظل توزع وَهْمَ البركة على الناس . . . ؟ وعلى أى حال . . هذه مسألة بسيطة لا تعدو المرح وعبث الصبيان . والدور الباقى على كثير من الخرافات الأخرى . .

إذا كنت لم أعرف وأنا طفل جواب تلك الأسئلة : من أحمد أفندى ؟ ومن أين أتى ؟ وما الذى دفعه إلى قريتنا ؟ فهأنذا قد كبرت بعض الشىء وصرت أدرك ما يقال مما لم أكن أدركه .

كان أبى فى المدينة عاصمة مديريتنا الفيوم ، ورآه على نحو ما ، وسأله عن حاله ، وأجاب بأنه هائم على وجهه ، فقد خرج من بلده فى

الوجه البحرى حيث كان يعمل معلماً فى مدرسة ، وجعل يضرب فى أرض الله حتى وصل إلى هذه المدينة .

وفى خلال ذلك كلام لا أزال دون إدراكه تماماً فى السن التى كنت أسمعه فيها . . لعلهم قالوا : إنه كان على علاقة غرامية بفتاة توعده أهلها بالقتل . أوأن أباه أراد أن يرغمه على الزواج من ابنة عمه ، أو أى شيء من مثل هذا أو ذاك .

المهم أن أبى عرض عليه أن يرافقه إلى قريتنا ويكون فى ضيافتنا حتى يكون ما يريد الله أن يكون . . . . ويا أخى نحن محتاجون إليك كى تعلمنا . . . هكذا قال له أبى .

واستجاب أحمد أفندى للدعوة ، ومكث مدة فى بلدنا ، علم فيها بعض أهلها القراءة والكتابة والحساب والإملاء . وكان تلاميذه من الشباب الكبار الذين التفوا حوله وقبسوا من علمه وأفكاره ، لا فى (حصص) التعليم فقط ، بل كذلك فى المجالسة والسمر . وصار هؤلاء الفتية فيما بعد قادة القرية - وعقلها المفكر ، كان يشبه من بعض الوجوه جمال الدين الأفغانى ، ومن بعض الوجوه فقط ، فلم يكن منهم ثوار على ظلم أو استعمار ، إذ لم يكن فى قريتنا شيء من ذلك ، فالجميع - من غنى وفقير وقوى وضعيف - يعيشون فى مجتمع ديمقراطى اشتراكى من قبل أن تعرف كلمتا (الديمقراطية) و(الاشتراكية) لم يكن هناك خادم أو خادمة فى منزل ، فربة البيت هى وحدها التى تقوم بشئونه ، فإن مرضت أوجاءت مناسبة ساعدها الأخريات من قريبات وجارات . يقولون إن أصلنا (بدو) كانوا يعيشون فى الخيام ثم بنوا البيوت واستقروا غرب

الفيوم على حافة الصحراء الغربية .

أذكر أننا بنينا منزلاً لم ندفع فيه غير أجرة البناء الغريب عن البلد ، وكان باقى العاملين والبنات اللاتى يحملن (المونة) على رؤوسهن إلى حيث يعمل البناء – كانوا كلهم مساعدين متطوعين .

لا أحد يتعالى ، ولا أحد يصغر . . . الزارع الذى يعمل فى الحقل بالأجريسمى (شريكاً) لا (زارعاً) ، وكلمة شريك جاءت من نظام العمل إذ كان أجره جزءاً من المحصول بنسبة معينة ، ولكنها مع ذلك كانت تشير إلى اعتبار اجتماعى يلحظ فيه معنى المساواة والإخاء . كنت مرة أصب الماء من الإبريق على يدى (شريك) لنا ليغسلهما من الأكل فى منزلنا – كان ذلك يحدث أحياناً فى شبه عزومة – فلحظت أنه لا يستعمل الصابونة ، فقلت له وأنا أشير إليها موضوعة على قاعدتها فوق غطاء الطست : خذ الصابونة ، فضحك ساخراً : الصابونة لك (ياحضرى) ثم سمعت صوت احتكاك يديه كأنهما خشبتان . . ثم عرفت أن الصابون (ينعم) الأيدى فلا تمسك بالفأس كما ينبغى لها ، وأن (الحضر) من أمثالى الذين يتعلمون فى الكتاب أو المدرسة ولا يعملون فى الزراعة – هم (الناعمون) وكان لهذه الكلمة معنى لا يتفق مع الرجولة القوية . . . لم يكن أحد من أولئك الرجال يعرف الشاى أو (المعسل) إذ لم يدخل القرية بعد شىء من ذلك . البن فقط هو المعروف ، وكان يشربه (الناعمون) كنت أقدم القهوة لزوارنا بالمندرة فى فناجين الواحد منها يتكون من قطعتين : فنجان وظرف ، الأول يوضع فوق الثانى وتصب القهوة فى الفنجان ومن تحته الظرف الذى يمسك

بارداً بالشمال ويرفع الفنجان ساخناً باليمين إلى الفم عند كل رشفة .
أذكر مرة أراد المأذون ويسمى فى بلدنا (القاضى) أن يداعبنى وكان صديق أبى وقد مكث فى الأزهر فترة من الزمن فكان على شىء من العلم الإسلامى ، قال لى وهو يبتسم .

- قهوة بن وساقيها كالبن (كلب)

فقلت له مجازفاً :

- وشاربها كالبن . .

فنهرنى أبى : يا ولد . . يا قليل الأدب !

قال القاضى :

- دعه فإنى مسرور منه .

كان (القاضى) من معالم (النور) فى القرية ، التى يتلمسها أبى ليقبس منها . كان أولها (أحمد أفندى) الذى لمع كنجم هاد فى ظلام القرية ثم اختفى . شعر والدى بحنين الرجل إلى أهله فعرض عليه أن يصحبه إلى بلده فى زيارة لأهله ، على أن يقوم بالصلح بينه وبينهم . وذهبا ، ثم عاد والدى وحده . . . وتبادلا بعض الرسائل ، ثم انقطعت الرسائل ، وكأن لم يكن شىء . كلا . . . كان (شىء) قد بقى . . هو الأثر الباقى فى نفوس (التلاميذ) وعقولهم ، وهو المحرك للأيدى بالأقلام على الورق ، وهو السيرة التى بقى عطرها لكى يعبق - بعد ستين أو سبعين سنة - بين هذه السطور . .

آه لو عرف الناس قدر المعلم المخلص المستنير وعظيم أثره ونفاذ إشعاعه العلمى والإنسانى . كنت فى العام الماضى بإيران مشتركاً فى مهرجان

أقيم هناك لإحياء ذكرى (سيبويه) بشيراز مسقط رأس أستاذ النحو العربى الأول . وكان مرافقى فى التجوال بمدينة الورود والبلابل (شيراز) – محمد ملك الطالب بجامعة بهلوى التى دعت الوفود لحضور المهرجان . وعجبت من طلاقة محمد ملك فى التحدث باللغة العربية الدارجة ومن لهجته القريبة إلى اللهجة المصرية ، والتفت لذلك إلى احتفائه بى وبذل ما فى وسعه لعونى مبتهجاً بمصاحبتى . وتحدثنا كثيرا كأننا صديقان من زمن . . والذى أريد أن أقوله هنا هو أن والده يعمل فى الكويت وقد قضى معه هناك عدة سنين اتصل فيها بمدرس مصرى علمه اللغة العربية لا بالقواعد فقط ، بل كذلك بالممارسة والمعاشرة ، أعرب لى عن حبه لهذا الأستاذ (الإنسان) وقال إنه يتمثله فى شخصى كمصرى .

سلام على (محمد ملك) الصديق الإيرانى ، وسلام على أستاذه فى الكويت ، وسلام على ذكرى أحمد أفندى معلم أبى الأول .



سيدنا

قلت فيما سبق : لم يكن فى قريتنا ظلم . . وأنا أقصد أنه لم يكن الظلم « ظاهرة » وإلا فإنه لا يخلو من ظلم فردى هنا أو هناك ، ولكنه على أى حال لا يكون ظاهرة عامة ، فهم أشبه بالبدو ، لا تعلو فيه طبقة على طبقة .

ومع ذلك لم أشعر بالظلم مثل ما شعرت به وأنا أدخل كتاب سيدنا وأرى منظراً لم يذهب من ذاكرتى لشدة ما تأثرت به :

صبى معلق من رجليه ، قدماه إلى أعلى ورأسه إلى أسفل ، وقد التوى على الرجلين حبل مشدود إلى عصا غليظة أمسك بطرفيها صبيان من كبار الصبية فى الكتاب ، والعصا ذات الحبل هى ما يسمى « الفلقة » ورجل متجهم الوجه ينهال على قدمى الصبى بعصاً والولد يصرخ : « حرمت يا سيدنا » .

انزويت فى ركن من الأركان على مصطبة كبيرة يقعد عليها الأولاد بدون أى فرش وبأيديهم « الألواح » يضعونها أمام أعينهم ويهزون رؤوسهم رافعين أصواتهم بما كتب فيها من آيات القرآن الكريم ، ولكى يكون لى لوح مثلهم يجب أن أنتظر يوم السوق الأسبوعى الذى تباع فيه فلم يكن فى بلدنا « سمكرى » يقطع هذه الألواح من « صفيحة » ويسوى حروفها .

وأذكر أن الصناع كانوا يأتون من خارج البلد ، بعضهم يقيم بها مهاجراً وبعضهم يأتى ويعود إلى مقر إقامته ، فقد كان أهل القرية جميعاً زراعاً ، يأنف الواحد منهم أن يكون نجاراً أوحلاقاً أومثل ذلك . وكان هؤلاء الحرفيون يأخذون أجورهم فى مواسم الحصاد والدراس ، فالحلاق مثلاً يحلق للزبون ولا يأخذ أجراً فوريًّا ، حتى إذا جاء وقت حصاد القمح أوإعداد الذرة فى « الجرن » مر بزبائنه على حماره يأخذ منهم ما يجودون به دون تحديد . . كما يتعامل بعض الحلاقين الآن فى المدن مع الزبائن . . فكل يعطى قدره . . مع فرق أن ما كان يعطى هناك حبوب فى الموسم ، وهنا نقود فى الحال .

وجاءنى « اللوح » من السوق . فرحت بلمعانه . . وعملوا لى خيطاً مثبتاً فى ثغرة بأعلاه ، وعلقته على كتفى بحيث تدلى اللوح إلى جانبى وذهبت إلى الكتاب .

ولم يمكث لمعان اللوح طويلاً ، فقد انطفأ وداخله الصدأ من تعدد المسح والكتابة عليه .

ومثل ذلك حدث لعقلى . . . انطفأت الجذوة التى كانت متقدة فيه حينما كان والدى يعلمنى فى المنزل طبقاً لما تعلمه من « أحمد أفندى » الذى حدثتك عنه فى الفصل الماضى . علمنى القراءة والكتابة وكان يملى على ما أكتب ، فأكتب طبقاً لما يرشدنى إليه من قواعد الإملاء ، ولقننى عبارات عقائدية مثل « دينى الإسلام ونبيى محمد » وكان يفخر ويعتز بى أمام الناس ، ويطلب منى ترديد ما لقننى أو إحضار قلم وورقة وكتابة ما يملى علىّ . فعلا صيتى كطفل « معجزة » كما يقولون .

وما إن ذهبت إلى الكتاب وشاهدت منظر الصبي المعلق فى الفلقة وعلامات القسوة البادية على وجه سيدنا حتى بدأ اللمعان ينطفئ والصدأ والبلادة تتسرب إلى ذهنى ، بل إلى إحساسى ومشاعرى ، وقد تكرر ذلك المنظر ودام تجهم سيدنا الذى لم يكن يفارقه هذا التجهم إلا نادراً عندما يضاحكه أحد من الخارج ، إذ كان يضحك فتبدو نواجذه الصفراء فى منظر لا يختلف فى دمامته عن التجهم والعبوس .

وأعتقد أن البلادة نعمة من الله على الإنسان . . ولو لم أوهب هذه النعمة فى ذلك الحين فكيف كنت ألاقى ما أرى وما يحيق بى من مثله . أحياناً كانت سحب البلادة تنجاب عن ذهنى فى ومضة سريعة ، مثلاً عندما أسمع قولهم « عصا سيدنا من الجنة » فأعجب كيف يحمل هذا الشيطان (سيدنا) عصاً من الجنة . . وهل سيدخل مثله الجنة . . ؟ وكيف تكون جنة وفيها العذاب ؟ .

وقد يخفف من وقع الظلم أن يكون هناك من يعمل على مقاومته أو من ينكره حتى فى نفسه بأضعف الإيمان . ولكن القوم هناك على العكس ، يعتقدون أن تعذيب سيدنا للصبيان بتلك الطريقة أمر قريب إلى الجنة !

لم أحفظ « اللوح » . . كان ذهنى شارداً متعلقاً بشعاع من الشمس يدخل من كوة بأعلى الجدار ، جعلت أتأمل هذا الشعاع وأتمنى أن أكون مثل الذرات العالقة به وأن أستطيع النفاذ من الكوة وأطير . . . أيقظنى صوت سيدنا الأجش من هذا السرحان وهو يدعونى إلى « التسميع » جلست أمامه متربعاً ، ولم يفتح الله على بشىء . .

– قل : ألف لام ميم . .

قلت كما قال وسكت ، فقال :

– ذلك الكتاب لا ريب فيه .

– ذلك الكتاب لا ريب فيه .

– لا . . . هات الفلقة يا ولد .

وأخذت « علقة حارة » رجعت بعدها إلى البيت أعرج لا أستطيع أن أثبت قدمى الحافيتين على الأرض ولم أكن لبست حذاء بعد . . وثارت أمى ولعنت سيدنا فشعرت براحة ، وارتميت بحضنها لأجد فيه ما فقدته . . ولكن أبى قال لى : « تعال يا ابن أمك . . » .

أملى على كلاماً لأكتبه ، ثم نظر فيما كتبت وغضب غضباً صامتاً فقد كان الخط مثل « نبش الفراخ » ومملوءاً بالأخطاء ، وفى الصباح صحبنى إلى الكتاب ودخل عابساً فاستقبله سيدنا متوقعاً منه شرًّا . . . . فحاول أن يلينه بكلام لطيف ويبرر قسوته علىّ ظنًّا منه أنه غاضب من أجلى . ولكنه فاجأنى بقوله لسيدنا :

– اسمع . . . أنت تكسر وأنا أداوى . .

يا خيبة أملى فيك يا والدى . .

لم أرد أن أخيب أمل أولادى فى . . ولدى صفوان الذى يدرس الآن للدكتوراه فى جامعة بالولايات المتحدة يقول لى أحياناً فى رسائله إنه مصدود النفس عن الاستذكار . . وأنا أعلم مكره ، لم أقل له يوماً « ذاكر » بل كنت أقول له إذا رأيته متعباً : أرح نفسك ، تعال نلعب « عشرة طاولة » . . . ورددت عليه فى رسالة قائلاً : تحب تلعب « عشرة طاولة » ؟

جعل أبى يضربنى لنكستى وخيبتى فى « الإملاء » الذى تحدثت الركبان ببراعتى فيه ، واليوم تتحدث هذه الركبان عن تلك الخيبة . . وجعل سيدنا يضربنى لبلادتى فى « حفظ اللوح » حتى صرت « ملطشة » للجميع . . ولم أجد صدراً حنوناً غير صدر أمى فى غياب والدى . . كانت تقول : « الولد اتحسد » وتجرؤ على مجابهة أبى – على غير العادة – متهمة إياه بأنه السبب ، لأنه كان يباهى بى أمام الناس حتى حسدونى . . وكان سيدنا يأتى إلى منزلنا ويقرا « سورة » فقالت له والدتى :

– الولد حسدوه يا سيدنا ، أليس عندك ما يذهب الحسد ؟

– عندى ، سأعمل له « عملاً » يذهب عنه الشيطان .

وحسب لها حساباً كلفها مبلغاً من النقود وديكاً أسود كتب بدمه وأكل لحمه . .

ولكى يظهر فائدة « عمله » تراخى فى محاسبتى على عدم الحفظ ، مدعياً أنى أصبحت ذكيًّا بفعله . . وصار يعاملنى معاملة تصعد إلى المحاسنة مع صعود ما تعطيه له والدتى ، وتهبط إذا هبط العطاء إلى درجة الخبز المسمى (بتاو) وهو يصنع من دقيق الذرة ، وكنت آخذ قدراً منه إلى الكتاب مثل سائر الأولاد ، ولم تكن أسرة سيدنا تخبز ، إذ كان يكفيها ما يأتى به أولاد الكتاب من (البتاو) – يكفيها وزيادة ، والزائد يستعمل كنقود فى شراء أشياء كالفجل والطماطم والفلفل والباذنجان المخلل ، كما كان متبعاً فى القرية . . والباعة يرحبون بالخبز والحبوب ثمنًا لسلعهم ويفضلونها على النقود ، لأن هذه قيمتها ظاهرة .

ويوم « سبت النور » من كل عام ، وهو عيد من أعياد « الخماسين »

كنا نحمل إلى سيدنا أشياء أثمن من (البتاو) كالبيض الملون . وكنا لا نمكث بالكتاب فى ذلك اليوم إلا ساعة فى الصباح نقرأ فيها « حليمة » نردد وراء سيدنا بصوت عالٍ فى مرح وفرح :

حليمه يا حليمه . . . يا مرضعة نبينا

ونذهب إلى البيوت ونسير فى الطرقات ونعرج على من نجده فى الطريق فرحين كل الفرح ، لانطلاقنا من الكتاب ونحكى كيف قرأنا « حليمه » وصدى إيقاع أصواتنا بترديد ذلك النشيد لا تزال ذكراه اللذيذة فى أسماعنا . ولم نكن نعرف معناه ولا من هى حليمة برغم ما نقوله من أنها مرضعة نبينا ، شأننا فى ذلك كشأننا فى حفظ سور القرآن الكريم .

كانت عملية السحر المقصود بها إزالة الحسد عنى تجرى فى غفلة من أبى الذى يئس منى وتركنى ، منشغلا بمشروع تنظيم الرى فى أرض القرية ، إذ كانت تروى بطريقة فوضوية يلاقى فيها الناس عنتاً شديداً ويقوم بينهم نزاع ومشاجرات تهوى فيها « النبابيت » فوق الرؤوس . وكان المشروع وهو تنظيم الرى ببناء سدود وفتحات فى الترعة ، أمل الناس فى الخلاص من متاعب الرى ومشاجراته . وقد تكفل أبى بالسعى فى تنفيذه ، وكان أهم عامل فى هذا التنفيذ جمع مبلغ كبير يعطى للمهندس . .

وبانشغال أبى بالمشروع مع يأسه من « فلاحى » وانشغال سيدنا بالسحر والنصب على والدتى والمهادنة فى معاملتى – شعرت بالأمان من الذعر الدائم ، فعاد إلىّ عقلى الذاهب ، وسعد بى والدى عندما استعان بى فى كتابة قوائم بأسماء أصحاب الأراضى الزراعية وجمع بعض الأرقام وطرحها ، فوجد منى معيناً ليس مثل (عبد المعين) الذى يمثل فى أمثالنا

المصرية خيبة أمل الذى يستعين به . . وسعدت أنا كذلك بعودة حنانه وتقديره وبالشعور بأنى مهم .

ثم جاء اليوم الذى فيه تشفينا بسيدنا ، أنا وبقية صبيان الكتاب ، وكلمة « صبيان » هذه مرادفة لكلمة « تلاميذ » التى تستعمل فى المدارس ، وواشوقاه إلى أن أكون تلميذاً . .

يوم تحدثت به الركبان فى كل مكان ، وظل ما جرى فيه حديث القوم فترة من الزمان ، اتهم سيدنا بأنه عمل سحراً يفرق بين المرء وزوجه ، ولا أعرف كيف حدث ذلك ولا كيف كشف أمره وأبلغ العمدة بفعلته ، ولعل من قصد إيذاءه بالسحر شكاه إليه ، وكان العمدة متفقهاً فى الدين « جاور » فى الأزهر بضع سنين .

أمر العمدة ، فأتى سيدنا وطلى وجهه بمعجون الجير ، وأحضر حمار أعرج أبتر ، وأركب سيدنا عليه « بالمندار » أى جعل وجهه إلى الخلف ، وسار الحمار بطيئاً يطوف البلد ، ونحن الصبيان – وراءه نزفه بنشيد أذكر منه هذا المطلع :

« غضب الله على السحار »

ونقرع الألواح بعصى صغيرة فى أيدينا ونحن نرفع أصواتنا بالنشيد سعداء فرحين فرحاً أكثر من فرحنا بنشيد « حليمة » .

وكان وقع هذا الحادث على الأهالى مختلفاً ، بعضهم قال إن الرجل يستحق ما جرى له ، فهو ساحر زنيم ، وهذا جزاء أمثاله . والبعض الآخر أشفق عليه واستنكر الطريقة التى عوقب بها ، وتساءل المعارضون : لو كان سيدنا من إحدى العائلات فى البلدة . . أكان العمدة يصنع به ما صنع ؟

ذلك أن بلدنا كان مكوناً من أسرات مثل قبائل البدو ليس بينها تفاوت كبير ، حتى أسرة العمدة لم تكن أكبر ولا أشد من غيرها ، ولهذا كان ملزماً أن يمشى على الصراط المستقيم . أما سيدنا فليس له ظهر يحميه ، لأن أباه هاجر إلى البلد ولم يخلف إلا إياه وحيداً .

والعجيب أن الناس – بعد ذلك – عطفت على سيدنا ولم تغير معاملتها له ، سواء المؤيدون والمعارضون – ولعل الأولين رأوا أنه نال جزاءه وانتهى الأمر ، أما الآخرون فهم يتعاطفون معه وربما زادهم عطفاً ما حل به . ولم يخل الحال أن يقول قائل : ولماذا هذا الشيخ بالذات ؟ أليس فلان وفلان يزاولون السحر ؟ وقد حاولت أنا أن أفعل شيئاً من سحر . . فوقعت فى موقف لا أنسى ما لقيت فيه من خزى عظيم . . .



حب وسحر

يدعونا السياق الذى انتهت به الخطوة السابقة إلى أن نتقدم فى الزمن سنين نحو مرحلة المراهقة ، على أن نعود – بعد – إلى ما قبل ذلك بسنين .

لم يكن « سيدنا » الذى أركبه العمدة حماراً « بالمندار » وجعل صبية الكتاب يزفونه مرددين : غضب الله على السحار . . لم يكن وحده فى البلد الذى يزاول السحر ، فقد كان السحر منتشراً ، وظل منتشراً فى القرية . وكان مجراه بين قلة من « الفقهاء » ترتزق منه كما ترتزق من تعليم القرآن وقراءته فى البيوت والمآتم ، وتروج بضاعتهم بين جمهرة الناس العائشين فى ظلام الجهل والأوهام ، ونسمع ممن يحبون أن يثيروا الانتباه إلى أحاديثهم أو ممن تستأثر بهم التخيلات الوهمية – نسمع كثيراً عن فعل السحر فى كثير من مجارى الأمور بين الناس ، وكان هناك جانب خاص يجرى فيه التعامل بين الساحر « والزبون » الذى يكون إما عريساً « مربوطاً » عن عروس ويريد حل الربط ، وإما – قبل هذا – من يريد أن يكيد للعريس لأى سبب من الأسباب ، فيلجأ إلى ساحر « يربطه » .

ولا أشك فى أن الأمر فى الربط والحل كان مداره على أسباب

غير السحر ، قد تكون جسمية وقد تكون نفسية : تهيبية أو توهمية يكون لها فعل معروف عند علماء النفس أو الطب النفسى .

ولم يكن يهمنى شىء من ذلك ، ولم أشغل فكرى به طبعاً ، بل كان يهمنى جداً أن تجرى ورائى فتاة أحببتها . . وأصارحك بأن هذا الحب كان مشوباً بالرغبة الغريزية وإن كنت أعتقد أن هذه مسألة بديهية فى كل حب بين رجل وامرأة باعتبارهما رجلاً وامرأة . . كل ما هناك فيما لا يبدو كذلك أن الرغبة الغريزية تتسامى ، أو تؤجل إلى وضع مشروع .

والمحقق أن رغبتى لم تتسام فى ذلك الوقت ولم يكن أمل فى زواج ، كنت أريدها « تجرى ورائى » كما قال لى « الشيخ الصغير » الذى كان مراهقاً مثلى، كان زميلا لى فى الكتاب ونحن صغيران ، وقد « تخرج » وهيأ نفسه لكى يحترف « الفقهنة » ويصبح « سيدنا » .

أعطانى « الوصفة » وهى منتزعة من كتاب سحر مطبوع ، ومدونة تحت عنوان« وصفة مجربة لجرى الحبيب وراء الحبيب » وأحضر لى ما يلزم لعملية السحر ، وكان أهمه الحبر الذى يكتب به ، وهوليس حبراً عادياً ، بل هو يصنع من مواد معينة تمزج وتنقع فى الماء . ثم تكتب به « التعزيمة » ، التى تأمر « الخادم » وهو عفريت من الجن أن يحضر « المطلوبة » بحيث يجعلها تترك كل شىء وتأتى سريعاً إلى « الطالب » :

« الوحى الوحى ، العجل العجل ، الساعة الساعة »

هكذا تختم « التعزيمة » ، حتى يصدع « الخادم » بما يؤمر به وينفذ فى الحال . .

وقد عرض علىّ « الساحر الصغير » أولا أن يقوم لى بهذا العمل ،

لكنى رفضت معللا رفضى بأنى أريد أن أتعلم السحر ، ولكل شىء منه . . ولكن الحقيقة أنى حرصت على ألا يعرف اسم الفتاة ، إذ لابد أن يذكر اسمها واسم أمها للخادم الذى سيحضرها أو يدفعها إلى الحضور دفعاً . . واسم أمها مقطوع به ، أما أبوها فربما لا يكون أباها فى الحقيقة ! .

وكان الثمن الذى تقاضاه منى الساحر الصغير كمية من الحبوب نحو نصف كيلة سرقتها من « مخزن الغلال » فى منزلنا . . وهكذا رأيتنى سارقاً وساحراً معاً ، فليكن . . فى سبيل المحبوب . . اضطرب قلبى حتى كدت أسمع صوت نبضه ، ولكن طيفها خفف عنى وشجعنى !

واخترت لإجراء هذه « العملية » مكاناً غير مطروق فى الطبقة الثانية من منزلنا ، وهو « مقعد » أى غرفة فى أعلى المنزل ، هكذا تسمى حجرات الطبقة العليا فى بلدنا ، وتنطق بالألف لا بالقاف « مأعد » .

وما شرعت فى العمل حتى دق باب « المأعد » فنهضت مرتبكاً ، وحاولت إخفاء ما معى ، ثم فتحت الباب ودخل أبى . . . لحظ ارتباكى وتغير لونى ، فشك . . وجعل يفتش بنظره حتى وقع على ورقة تناولها وقرأها ، ثم قال ساخراً :

– ومن هى يا ترى . . ؟

حمدت الله على أنى لم أكن كتبت اسمها بعد . . تسمرت فى مكانى ، وانعقد لسانى .

ضحك ضحكة صفراء آسفة وساخرة ، وتركنى وانصرف . . آه مما أصابنى . . لو – بدلا من تلك الضحكة – صفعنى قلماً ! لو بدلا من أن ينصرف هكذا ضربنى بكل ما طالته يده ولو شج رأسى !

ولكنه لم يفعل . . . بل أكثر من هذا لم يفض إلى أحد بالسر . . فلم أشاهد على وجه أى أحد ، ولا حتى والدتى ، ما يدل على أنه عرف شيئاً . . وتجنبت لقاء والدى مدة طويلة ، فإذا اضطررت إلى لقائه نكست رأسى . . وكان هو أيضاً يتغافل عنى ويهملنى كأنى غير موجود .

فأرقنى ذلك ، ووجد ضميرى المجال خالياً له ، فأخذ يحاسبنى حساباً عسيراً . . كيف فعلت هذا ؟ هل هذا يليق ؟ أتسرق وتسحر ؟ ولمن تسحر ؟ لحبيبتك ! وماذا تريد منها يا فاسق ؟ . . يا فاشل !

اعترضت : هل أنا فاشل ؟

أجاب ضميرى : نعم فاشل ، إنك تعانى من الحب ما تعانى ، ولكنك لا تجرؤ على أن تعبر عما تشعر به لمن تحبها . . تتخيل فى غيابها أنك ستفعل كذا أو تقول كيت ، فإذا كنت أمامها أصابك البكم . . لا تفعل إلا أن تنظر إليها كالأبله !

– وماذا تريد أن أفعل ؟ ألست متناقضاً فى تأنيبك لى ؟

– لا ، أنت لم تفهمنى ، ليس كل الحب منحرفاً .

وجدتها قضية عويصة ، وإرادتى فيها ضعيفة ، بل مفقودة ، اكتفيت بأن أحب من بعيد حباً لا أمل فيه ، ظل قلبى يرف له زمناً طويلا ، وانعكست بعض ملامحه فى بعض ما كتبت من قصص .

لم تكن محتجبة عنى ، حتى بعد ما تزوجت ، فلم يكن فى قريتنا حجاب ، باستثناء بعض زوجات « الأعيان » الآتيات من خارج البلد ، ولكن الاحتشام كان أفعل فى الصيانة من الحجاب ، والاحتشام فى الملابس السابغة وفى الحركات والكلام . كان ذلك الاحتشام يقف حائلاً

بينى وبينها أو بينى وبين البوح لها . . حتى العيون لم تكن تستطيع أن تتواجه . . القلوب فقط هى التى لا يقف بينها حاجز ، أقصد التيار الذى يسرى بين القلب والقلب الذى يدل عليه إحساس . . إحساس فقط . يتمثل فى أشياء كثيرة بسيطة كتحية ، أو لمسة عفوية ، أو مداعبة مهذبة . أو رغبة فى مجالسة قد تطول وتلغى الزمن ، لم أكن أراها مع أمى حتى « أتحشر » فى المجلس على كرهى لمجالس النساء ، و « أتلحم » دون قصد ، لعل أبى لحظ ذلك أو رأى جلوسى فى « الدهليز » معهن ، فنادانى من « المندرة » التى يجلس فيها ، ووقفت أمامه ملبيا ، دون أن يقول شيئاً ، فجلست إلى جانبه دون أن أقول شيئاً . .

وقد لاحظت – فيما بعد – أن القرى التى كان فيها إقطاع أو تفاوت بين الطبقات يسود فيها الحجاب بالنسبة لنساء الأسرة الكبيرة أو الإقطاعية ، من هذه القرى قرية كانت تحكمها أسرة منها العمدة ومنها شيخ الخفر ، وكان لهذا سلطة تلى سلطة العمدة ، ومنها عضو فى البرلمان وفدى فى عهد حكم الوفد ، وعضو آخر حر دستورى فى عهد حكم الأحرار الدستوريين . كانت الأسرة تحتكر السلطة كما تحتكر امتلاك الأراضى الواسعة . لم تكن نساء هذه الأسرة حتى البنات الصغيرات يسرن على أرجلهن فى الطرقات ، بل كن يركبن السيارات ، والصورة المثيرة للدهشة هى هذه : « سيارة البيه قادمة وفيها « حريم » وعلى كل السائرين أو الواقفين أو القاعدين فى الطريق ان يقفوا بحيث تكون وجوههم إلى الحوائط . . حتى تمر السيارة !

وحينما كبرت وقرأت فى قصص « ألف ليلة وليلة » وقصص « بوكاشيو »

أن كيد النساء يغلب كيد الرجال ، النساء اللائى تقفل عليهن الأبواب ويقف على حراستها « الأغوات » ساء ظنى بنساء تلك الأسرة ، وقد يكن مظلومات .

أما الذى حيرنى وبلبل أفكارى زمناً طويلا فهو مقارنة احتشام نساء القرية بما رأيته فى المدن من أصباغ على الشفاه والخدود وثياب ضيقة تحدد معالم الجسم وتبدو منها السيقان – السيقان فقط فى ذلك الزمان – ثم التكسر فى الكلام و« التقصع » فى الحركات . وكانت المقارنة تنتهى بأن هؤلاء « الحضريات » لابد منحرفات . أول مرة رأيت الأحمر على الشفاه كانت فى « المدينة » عاصمة الفيوم ، فى حى « الصليبة » الذى كان فيه « البغاء الرسمى » وقد مرّ بى هناك من أرافقه من شبان القرية . ذهلت من وقاحة النسوة وعرى معظم أجسادهن ، وشعرت بالاشمئزاز .

وشيئاً فشيئاً – خلال حياتى فى المدن – تعودت على أن ذلك أمر عادى لا يدعو إلى إساءة الظن ، وإن كنت ظللت أنفر من الأصباغ .

ويوما سمعت والدى بعد عودته من القاهرة يقول ما معناه لمن سأله عن مصر : كل شىء فى مصر عظيم ، إلا تبرج النساء . . فهذا شىء يدعو إلى الأسف لضياع الدين . .

ثم ذكرت ذلك وأنا مدرس فى « قنا » إذ قامت مظاهرات من الطلبة للإعراب عن الفرح بمناسبة « وفدية » لعلها زواج مصطفى النحاس زعيم الوفد ورئيس الوزراء ، وأبيح السفر بالمجان فى القطار لوفود التهنئة ، وسافر بعض الطلبة ، وبعد أن عادوا سألت أحدهم : هل

أعجبتك مصر ؟ فأجابنى بما أذكر نصه :

« مصر حلوه جوى يا بيه . . بس النسوان جلللات (قليلات) الحيا جوى . . »

بعد هذا الاستطراد أقول :

تحول حبى لتلك الفتاة – بعد حادثة الشروع فى السحر – إلى حب للحب . . فلم تكن له غاية إلا ذاته . . حتى الزواج لم يكن فيه أمل ، فقد تزوجت هى ، وكان أبى يعدنى للحاق بالأزهر ، وأمامى مشوار طويل حتى أكون من علماء الأزهر – كما يريد الوالد – وأتزوج على سنة الله ورسوله ، على أن كون الفتى طالباً فى الأزهر لم يكن يمنع – عادة – من أن يتزوج الطالب فى البلد ، وتعيش زوجته مع أهله ، ويعود هو إليها فى الإجازات ، ولكن أخى الأكبر الذى سبقنى إلى الأزهر كان هو « حيوان التجربة » : تجربة زواجه وهو طالب وإخفاقه فى الدراسة وانقطاعه عن التعليم . وكان طبيعياً ألا تتكرر التجربة معى ، وكنت أتمنى أن أتزوج مثله ، وحسدته فى نفسى ، وغرت منه ، وشاركت فى مظاهر « الفرح » وأنا غيران حزين . . .

وما كنت أعلم الغيب حتى أحمد الله وأختار الواقع . . أحمده على أن مصيرى لم يكن كمصير أخى الذى مكث فى القرية يعانى الصراع بين ما اكتسبه من العلم والحضارة وبين واقع القرية . كانت الدعوة المفضلة عند والدتى التى تدعوها لى قولها : أتمنى ألا يجعل الله لك عيشاً فى هذا البلد . واستجاب الله دعاءها ، ولكنى أحن دائماً إلى مسقط رأسى وإن كنت لا أستطيع أن أمكث فيه إلا أياماً معدودة ، وكثيراً

ما تراودنى أمنية أن تكون قريتى من نوع « الريف » الذى نسمع عنه فى البلاد المتقدمة وأقيم فيها ولو بعض الفترات . والمؤسف أنى شغلت بتربية أولادى الخمسة والكفاح من أجلهم عن أن أفعل شيئاً لقريتى .

ونعود إلى الحب بعد هذا الاستطراد الآخر الذى فرض نفسه ، فأقول :

الغريب أنى لم أشعر بعداوة أو بغض للذى تزوج حبيبتى ، بل على العكس : اتخذته صديقاً ، وانعكس عليه ودى لها . . ومكنتنى هذه الصداقة من أن أراها كثيراً ، وهذا كل ما كنت أريد . . ومرة جاء الزوجان إلى القاهرة ونزلا عندى وأنا طالب فى الأزهر . فرحت بهما جداً ، تفرغت لهما ، وزرت معهما السيدة زينب وسيدنا الحسين وباقى أهل البيت ، ولم أكن أنشط إلى مثل هذه الزيارات ، ولكن فى صحبتهما . . الأمر كان يختلف !

ما كان أسعدنى فى ليال قضيناها فى سمر . . كنت أحدث الزوج وهى على مقربة منا ، وأردد فى نفسى « إياك أعنى فاسمعى يا جارة ! »

وإذا عكر علينا الصفو آخرون يحضرون مجلسنا اكتفيت بالنظر وهى تأتى إلينا بأدوات الشاى : « وابور الجاز » والبراد والأكواب . . إلخ ، فإذا شرفنى القوم بتنصيبى « سلطاناً » للشاى . . أى أباشر صنعه ، أصبه من البراد إلى الأكواب ثم أعيده إلى البراد ، ثم أصبه . . وهكذا عدة مرات وأنا أعلو بمستوى البراد عن مستوى الأكواب فيحدث صوت الانصباب إيقاعاً يكمل جو « السلطنة » ويعلو الحباب الكئوس . . ثم أدفع الأكواب إلى من يوزعها على الشاربين . . إذا كان ذلك فما

أسعدنى بتناول ما يلزم لهذه « السلطنة » من يدها وتبادل مالا بد منه من بعض الكلمات

« حسبى منها الحديث والنظر »

وعندما أرقد متهيئاً للنوم بعد ذلك أستعيد فى مخيلتى كل ما كان . . وأستمتع به مرة ثانية . . .

وكانت فى حياتى ثلاث لحظات سعيدة جدًّا ، تأتى ثلاث مرات فى العام : عندما أعود إلى القرية فى اجازة عيد الفطر ، وإجازة عيد الأضحى ، والعطلة الصيفية ، فما إن أغادر ظهر الحمار الذى أقلنى من محطة القطار إلى المنزل ، وأجلس بين الرجال فى « المندرة » حتى يأتى من يسر إلىّ : « كلم » فأقوم وأدخل الدار لأكلم . . فأجدها . . جاءت أول من جئن من الجارات لتسلم علىّ . . وهى تضع على يدها طرف الشاش الذى تختمر به « حسب التقاليد » ولكنى أحس بنبض الكف على رغم الشاش . . على أن طرف الشاش لم يكن يثبت على اليد . . .

تلك أيام خلت . . وآه لن تعود !



بين المدينة والقرية

كان « كتاب سيدنا » مهد البؤس بالنسبة لى فى سنوات حياتى الأولى ، فى الطفولة وما بعدها ، كنت أسمع عن شىء يوجد فى قرية مجاورة أقرب إلى الحضارة من قريتنا ، ومن أهم معالمها مرور القطار بها ووقوفه فى محطتها ، ذلك الشىء اسمه « المدرسة » التحق بها واحد فقط من أبناء قريتنا ، وصار بعد من ضباط الجيش . كان « بيضة الديك » فى البلد إذ لم يتعلم أحد منها قبله فى مدارس ، وكنت التالى له من أبناء القرية فى التخرج من معهد عال . .

كان ذلك « التلميذ » يحدثنا عن المدرسة و « الأفندية » الذين يعلمونهم فيها فيثير فى نفسى الشوق إليها . كانت كلمات مثل « الحساب » و « الإملاء » و « المحفوظات » و « الأشيا » تبهرنى وأود لو أتعلمها .وآه لو أحسن أنا كما يحسن هو إنشاد مثل هذا النشيد :

مصر العزيزة لى وطن وهى الحمى وهى السكن

كانت تلك بوارق أحلام فى خلال ظلام الواقع : واقع الكتاب الذى ليس فيه غير كتابة « اللوح » وحفظ « اللوح » . . وأين هذا اللوح « الصفيح » الصدىء من « لوح الاردواز » الأسود اللامع ذى الإطار الخشبى المصقول الذى يستعمل للكتابة عليه فى المدرسة بأصابع ملونة جميلة خاصة به ،

والذى كنت أراه مع ذلك التلميذ السعيد الحظ . . ؟

وأين « سيدنا » ذو الجلباب الذى لا يخلو من بعض « الرقع » والعباءة الملطخة والعمامة التى لا تعرف الماء والصابون ، والملامح الغليظة والسحنة المتجهمة الكريهة – أين هذا من « الأفندى » الذى رأيته عندما تسللت يوماً إلى المدرسة فى صحبة ذلك التلميذ . . . هربت معه إلى هناك فبهرنى كل شىء هناك . . الجلوس على مقعد لا على الأرض ، والدرج عليه الدواة البيضاء مملوءة بحبر أسود ، لا كالذى نستعمله من منقوع « زهرة الغسيل » و. . . . . الأفندى . . . حقاً إنه لا يلبس البنطلون والطربوش مثل المأمور ووكيل النيابة . . وإنما يلبس جبة وقفطاناً نظيفين جميلين وعمامة صغيرة ناصعة البياض ملفوفة حول طربوش أحمر له « ذر » أزرق ويلبس « جزمة نصف رباط » هى شىء آخر غير « مركوب » سيدنا المرصع « باللوز » والذى يتردد دائماً على « الإسكافى » كى يضع فيه « لوزة » على خرق جديد ، أو يستبدل رقعة بأخرى متهرئة .

ولما علم أبى بنبأ تلك الرحلة لا منى عليها فى شىء من الرفق . إذ اهتم بأن يفهمنى أن مستقبلى أحسن من مستقبل من يدخلون مثل هذه المدرسة ، وهو هناك بالجامع الأزهر فى « مصر » أم الدنيا « حيث تكون هناك عالماً كبيراً وشيخاً من شيوخ الأزهر » لم ألق بالا إلى مسألة « المشيخة » هذه ، فلم تكن مما أتطلع إليه ، بل لعلها غصة فى حلقى ، بل كنت أتطلع ، بل أشتاق إلى « أم الدنيا » مصر العزيزة لى وطن . . إلخ ، ومما شوقنى إليها فيما بعد ماحكى لى شقيقى الأكبر الذى سبقنى إلى القاهرة والأزهر . قال لى فيما قال : إنهم يأكلون هناك أصنافاً شهية مثل الحلاوة الطحينية

والرغيف الأبيض والفول المدمس والطعمية ، وكانت هذه الأصناف شحيحة فى القرية . كان الطعام اليومى الدائم هو « البتاو » و « المش » والجبن المنزوع الدسم . وكانت أصناف أخرى ذات قيمة تأتى فى بعض الأحيان ، مثل البيض والجبن (أبو خيره) – هكذا يسمون فى بلدنا الجبن المصنوع من اللبن الكامل . وفى أحيان أخرى وخاصة وجبة العشاء كان الطبيخ والدجاج أو اللحم .

ولم يكن ذلك كله ميسوراً لكل الناس . كنت أرى أطفالا لا يكادون يأكلون غير « البتاو » و « فحل البصل » ، خرجت إليهم يوماً ومعى رغيف قمح ، فبهروا . . وتلقيت نظراتهم المتوسلة بشىء من الكرم . . أعطيت لكل منهم قطعة من الرغيف ، فنبذوا البصل وجعلوا يأتدمون « البتاو » بخبز القمح .

وسمعت مرة الحوار الآتى بين صبيين كنت ألعب معهما ، كان مع أحدهما رغيف قمح ، فتحلب ريق الآخر وقال له :

– من أين لك هذا ؟

– أبى مريض وأمى خبزت له أرغفة .

– طيب ، هات لقمة

– لا .

– هات ، وأنا عندما يمرض أبى أعطيك !

كان « الطبيخ الأحمر » شيئاً يتحدث به من يظفر بأكلة منه فى منزل أحد « الأعيان » يكون هذا « العين » قد تزوج بامرأة من « البندر » أما الطبيخ فى سائر البيوت فهو أبيض لا تدخله طماطم ولا « صلصة » والطماطم

تطبخ مع الأرز كصنف مستقل . .

وكان هناك صنف من الطبيخ يصنع دائماً فى المآتم لأكل « الفقها » الذين يقرأون القرآن فى المآتم ، ذلك هو « الكشك » وتشتق منه كلمات مثل « فقى بكشك » ويقال لمن يتطفل على الموائد : « يكشك » – فعل مضارع من كشك (بتشديد الشين) – وهو يقابل كلمة « يشبح » فى اللهجة القاهرية .

ومن النوادر التى يحكونها أن « فقيهاً » أعمى اتفق مع زميل مبصر قبل أن يجلسا إلى مائدة فى وليمة أن ينطق له بالحرف الأول من اسم كل صنف على المائدة حتى لا يفوته شىء من الأصناف وفى خلال معمعة الأكل قال المبصر فيما قال تنبيهاً لزميله الضرير : كاف ، فلم يهتم الضرير بهذا الذى يبدأ بالكاف ظنًّا منه أنه كشك . ولما علم بعد أن المائدة كان عليها « كنافة » قال لصاحبه معاتباً :

– لماذا لم تقل لى ؟

– قلت لك كاف .

– أما كنت تقول : « كرفع » ؟ أى كاف مرفوعة !

وقد ظللت زمناً طويلاً أتذكر المآتم والموتى والقارئين على أرواحهم كلما قدم لى طبيخ الكشك فأعافه . . .

* * *

كانت الخطوة الثانية فى طريق الأزهر أن لحقت بأخى الأكبر – الذى يسبقنى دائماً فيما يعدنا له أبى كى نكون من العلماء الأجلاء – فى كتّاب الشيخ ونيس بمدينة الفيوم – عاصمة الإقليم – لأن هذا الكتّاب

له صيت فى المديرية ، يقصد إليه الطلاب من مختلف القرى ومن المدينة نفسها ، وكان الشيخ ونيس رجلا صالحاً طلب العلم فى الأزهر ولكن شوطه لم يصل إلى شهادة « العالمية » وقد فهمته أو فهمت شيئاً عنه بعد أن كبرت وأعملت فكرى فى بعض خصائصه ، وما كان يقال عنه . كنت أرى صينية الإفطار التى تقدم له يومياً فى ساحة الكتّاب المفروشة بالحصير ، ما عدا مجلس الشيخ الذى كان مفروشاً بسجادة نظيفة – كان الفطور دائماً مكوناً من خبز جاف « مبلول » ملفف بمنديل نظيف وصحن فول نابت عليه قليل من الزيت وليمونة مشقوقة شقين يعصرها على الفول النابت . . وقالوا إنه لا يأكل اللحم مطلقاً . وفيما بعد استنتجت من هذا ومن قرائن أخرى أنه نباتى يحذو حذو أبى العلاء المعرى . ومن هذا الحذو أنه لم يتزوج بعد الزوجة التى توفيت من زمن بعيد وقالوا إنه متزوج من «جنية» وإنها تمنعه من أكل اللحم . . وكان الشيخ لا يضرب الأولاد بنفسه ، بل يأمر بضربهم عدداً من العصى يعينه ، ثم يقوم « العريف » بالتنفيذ ، والعريف هنا ليس كما عهدناه فى القرية ولداً كبيراً قوياً ذا شخصية من صبيان الكتاب ، وإنما هو « فتى » مساعد يشبه « المعيد » فى الجامعة .

وكانت للشيخ ونيس مكانة دينية مرموقة فى المدينة ، ولم يكن يحترف قراءة القرآن ، بل كان إماماً وخطيباً لمسجد « الروبى » المشهور بالفيوم . اصطفى أخى لاصطحابه فجر كل يوم إلى المسجد ، كان ينزل من الطابق الثانى حيث يسكن إلى الطابق الأرضى حيث ننام ونعيش فلم يكن لنا مسكن فى الخارج ، وينادى أخى الذى ينهض بسرعة وهو فى منتهى السعادة ، ويرافق الشيخ ، يحمل ما معه من كتب وصحف ، فإذا كان فى الجامع

حمل نعله ونعل الشيخ وهو كذلك فى منتهى السعادة ، وكان أخى محسوداً لهذا الإيثار ، وكان هو يفخر به ، ولكنى لم أكن أغبطه عليه . كانت لى تطلعات أخرى غامضة فى أعماق نفسى ، أريد أن أتعلم وما أرانى أتعلم . . فليس فى الكتاب غير حفظ القرآن الكريم . . . مع كتابة آياته على « اللوح » وقراءتها مرات كثيرة مع هز الرأس علامة على الاستيقاظ أو خشية النوم . فإن ونى أحدنا عن هذا « الهز » نبهه العريف بطرف العصا التى قالوا لنا إنها من الجنة ! وكان بالكتاب بنات أكثرهن ضبريرات يجلسن فى ركن قريب من مجلس الشيخ الذى يباشر تحفيظهن القرآن ويدرب بعضهن على القراءات والتجويد . ولم يكن للعريف الشاب شأن معهن كشأنه مع الصبيان .

كان كتاب الشيخ ونيس حقًّا معهداً للقراءات ، فكان الرجل أستاذاً بحق فى القراءات السبع أو العشر . . وكل من « ختم » القرآن ، أى أتم حفظه ، يبدأ فى تلقى دروس القراءات من الشيخ ، ويتمرن عليها بالقراءة التطبيقية مثل ما نسمعه الآن من محطة القرآن .

وكان الدور الأرضى من منزل الشيخ يشمل ساحة الكتاب الفسيحة المفروشة بالحصير ، وحجرة فسيحة أيضاً تحشد فيها صناديق ، لكل طالب غريب ، أى ليس من المدينة ، صندوق يضع فيه أشياءه كلها ، على أن الغرباء الأغنياء كانوا يتخذون مساكن فى الخارج . ثم كان هناك ساحة أخرى تقع بين الغرفة والكتاب للجلوس والنوم رصًّا . . واحداً بجانب الآخر .

كان ذلك صورة لرواق من أروقة الجامع الأزهر ، حتى المقيمين فيه

كان يطلق عليهم لفظ « المجاورين » مثل طلبة الأزهر.

وكان أهم ما فى صندوقى وصندوق أخى خبز قمح مجففاً وكشكاً جافاً ، وتلك هى « الزوادة » التى تعدلنا كل أسبوع ، نأخذها صباح السبت مغادرين القرية إلى المدينة ، ونفرغ منها يوم الخميس عائدين إلى القرية. نبل الخبز الجاف أو « نقرمشه » كل حسب مزاجه ونأتدمه بالكشك جافاً أو منقوعا فى الماء . وفى جيب أخى « مصروفنا » وهو عشرون قرشاً فى الأسبوع وكنا فى بعض الأيام نتعشى سمكاً مشوياً أو مقلياً بقرش واحد ، وكان دائماً من « البلطى » الذى كانت بحيرة قارون مقصورة عليه ، وكان ما نشتريه صغير الحجم بطبيعة الحال ، وكنا نقتصد فى بعض الأحيان نصف القرش ونشترى بالنصف الآخر السمك الصغير جداً المسمى « بسارية » .

وكان « خبز القمح » من عناصر التوسيع « البشرقة » بدلاً من « البتاو» الذى تشرق به الحلوق ، ويشبه بطعمه كل ردىء مما يؤكل . . وكانت أنصاف الأرغفة المجففة تفيض عن حاجتنا ، فكنا نشترى بها فولاً مدمساً نسعد بأكله فى الصباح بدلاً من الكشك . . .

وكانت « البشرقة » العظيمة « سلطانية » تأتى من البلد يحملها أى فرد من أهل القرية آت إلى المدينة وخاصة يوم السوق « الثلاثاء » السلطانية ملفقة بقطعة من ثوب قديم محكمة الغطاء تحتوى على دجاجة محمرة ترقد فى أحضان أرز مفلفل . . وكانت جدتى – أم أمى – تأخذ السلطانية من ابنتها – أمى – وتذهب بها إلى القنطرة التى يعبرها كل خارج من البلد ، وتجلس تحت شجرة هناك وتسأل عن الذاهب

إلى المدينة كى يأخذ هذه السلطانية لأولاد الحاج حسان خضر . .

كان المرسوم لطريقنا فى الذهاب والإياب أن نركب حمارين من قريتنا إلى القرية المجاورة التى يمر ويقف بها قطار السكة الحديدية الضيقة المحلى الذى يعمل فى داخل المديرية .وكثيراً ما نخالف هذا « المرسوم » لنقتصد أجرة القطار ، فندعى أنه فاتنا ولم ندركه ، ونغذ السير بالحمير إلى المدينة ، ويفرح بذلك مرافقنا الذى يعود بالحمارين ، إذ يتاح له أن يرى المدينة و« يتفسح » فيها . وهو يتواطأ معنا ويقسم — عندما يعود — أن القطار قد فاتنا حقاً . . ويستسلم أبى للأمر الواقع ، فقد كان المطلوب أن يعود الولد بالحمارين سريعاً ليعمل فى نقل السباخ عليهما إلى الحقل ، ولكن ما باليد حيلة . .

كنت فى تلك الفترة سعيداً بأشياء ، وشقياً بشىء خفى فى نفسى ، كنت سعيداً بالتنقل بين القرية والمدينة ، أعود إلى الأولى فألتقى بالأهل والأحباب على شوق ، وأمشى بين أهلها فى خيلاء « البندرى » الذى يلبس الحذاء « الكاوتش » والجلباب ذا « الياقة » والأساور» بدلاً من الجلباب « الفلاحى » وعلى رأسه « الطاقية » المثنى إطارها إلى أعلى . .

وأعيش خمسة أيام أوستة من الأسبوع فى المدينة حيث أشاهد ما فيها من أسباب الحضارة وكانت تبهرنى الشوارع الواسعة والبيوت العالية ذات الطبقات المتعددة ، وقد عجبت عندما حننت يوماً إلى أن أجول فيها بعد ما كبرت وبعدت عنها زمناً طويلاً . ركبت عربة « حنطور» فحققت بهذا أمنية كانت عزيزة المنال فى الصغر ، ورحت أطوف بمدينتى الأولى مأخوذاً بالذكريات ، ولما مررت بالشوارع التى كانت تبهرنى بسعتها

وعظم مبانيها وجدتها أشياء ضئيلة . . أقزاماً بالنسبة إلى عمالقة القاهرة . .
وكانت يوماً كالعمالقة بالنسبة إلى معالم القرية !

وكثيراً ما كنت « أزوغ » من الكتاب وأقصد إلى مكان قريب من سكة الحديد الضيقة ، حتى إذا مر القطار جريت بحذائه وتعلقت « تشعبطت » به ، فإذا اقترب منى « الكمسارى » هبطت مسرعاً . .

وفى أيام الحر كنت أقصد إلى ترعة كبيرة كانت تسمى « بحر الحواتم » ونزلت بها أسبح ما أشاء ويسبح « ميكروب البلهارسيا » بجسمى ما يشاء . . كان مثل هذا فى القرية ممنوعاً علينا نحن صبية الكتّاب ، إذ كان سيدنا يكتب على سيقاننا بالحبر والقلم الغليظ ، حتى إذا عدنا فى اليوم التالى كشف علىنا « لكى يتأكد من وجود « الختم » الذى لم يمسسه ماء . . ولا أدرى ماذا كان يحدث إذا استحم أحدنا فى المنزل وانمحى الختم . . لعل أهل الصبى كانوا يبلغون سيدنا بذلك ، على أن الاستحمام فى المنزل كان نادراً .

وفى جولتى بالمدينة على « الحنطور » كبيراً قصدت إلى « بحر الحواتم » فلم أجده . . . قال لى الحوذى : « أوه . . يا فندى . . ما اتنقل من زمان ! » فتذكرت أغنية كانت سائدة فى القاهرة إذ ذاك تقول :

« يا عينى يا بحر طنطا . . خدوك ودوك بعيد . . »

أما الشيء الخفى الذى كان يشقينى فقد كان يثور فى نفسى عندما ألقى تلاميذ المدارس الابتدائية ، وقد تعارفنا – أخى وأنا – مع بعضهم ، ونشأت صداقة بيننا ، وكانوا من أهل الريف يتعلمون فى المدينة ، وتبادلنا الزيارات فى قرانا إبان الإجازات .

كنت أغبط أولئك التلاميذ ، شكلاً وموضوعاً ، فهم يلبسون البدل وإن كانت « البنطلونات » قصيرة والطرابيش على رؤوسهم حمراء زاهية . ومن حيث الموضوع أراهم يتحدثون عن أشياء مثل الحساب والجغرافيا والمحفوظات ، وينشدون أناشيد ، و« يرطنون » ببعض الكلمات الإنجليزية .

لماذا يا رب لا أكون مثلهم . . ؟

لم أكن أحس أنى أتعلم . . نعم أحفظ سوراً من القرآن ، ولكن حتى هذه لا أفهمها . تعلمت القراءة والكتابة ، نعم ، ولكن ماذا أقرأ وماذا أكتب ؟

ثم حدث شيء سررت به : الشيخ محمد ابن الشيخ ونيس من زوجته التى توفيت وهو صغير درس فى الأزهر وحصل على الشهادة العالمية ، وجاء إلى المدينة وأقام هو وزوجته القاهرية مع والده ريثما يعين فى وظيفة . والذى سرنى أن الشيخ محمد شرع يعطينا دروساً فى النحو والفقه ، وأحسست بأنى سأتعلم . .

ولكن حتى هذا البصيص قد انطفأ ، فما هى إلا بضعة دروس كنا فيها مشدوهين نتهيأ للتلقى ، ولكن الشيخ الأزهرى المتخرج قد عين فى وظيفة لا أدرى أين ، واختفى عنا . . . .



ثورة وحكومة

شهدت فى السنوات التى قضيتها فى مدينة الفيوم عدة ظواهر من الأحداث كانت تسترعى انتباهى وتفكيرى الصغير المحدود .

أولاها – ولا أعرف ترتيبها الزمنى – ارتفاع ثمن القطن ارتفاعاً فاحشاً أحسست بأثره فى حياتنا المادية ، فقد كان أبى يحضر كثيراً إلى المدينة كغيره من الفلاحين منتجى الأقطان ، وأخذ يشترى و « يفصل » الجبب والقفاطين عند « ترزى » بالمدينة ، ويفيض علينا بالملابس والنقود ، وكان يعطى النقود لأخى الأكبر لينفق هو علينا نحن الاثنين . . فكنت أشعر بأنى « كم مهمل » يعيش تحت الوصاية . . على أن أخى كان ذا ضمير ، فإذا كان وحده واشترى لنفسه شيئاً يأكله أو يشربه ، جاء إلى بعد وأعطانى مثل ما اشترى به لنفسه ، وكنا نذهب إلى المطاعم الكبيرة المشهورة ونأكل ما نشاء ، ونترك على المائدة ما لا يعجبنا مما لم نأكله فى حياتنا ، وكنا نطلب ما نستحسن اسمه ولو لم نكن نعرفه . . مرة ذكر لنا خادم المطعم اسم « المسقعة » وكان الجو حاراً ، فظننا أنها صنف مبرد ، فلما أتى لنا بها ورأيناها ساخنة خاب ظننا وتذوقناها فلم نستسغ طعمها لأن طبخ الباذنجان هكذا لم يكن مألوفاً فى قريتنا إذ لا يستعمل هناك إلا مخللاً .

فى بلدنا مثل يقول : « الفلاح لما يبيع القطن يا يحج . . يا يهج . . يا يتجوز ! » وأبى كان قد حج من قبل ، ولم « يهج » أى يغادر القرية ويقيم فى المدينة ، ولكنه تزوج . . تزوج على أمى فكان هذا بدءاً للقلقلة فى بيتنا وحياتنا .

وثانية الظواهر العامة التى شدت انتباهى فى المدينة ، ذعر أصاب الناس من شىء اسمه « السلطة » . . كان كل رجل أو شاب يسير فى شوارعها يأخذه أو قل يخطفه رجال الشرطة ويذهبون به إلى المركز كى يرحل إلى السلطة . . وعرفت بعد ذلك أنهم يأخذونهم للخدمة فى الجيش الإنجليزى المحتل ، وكنت أنفر أشد النفور ويرتعد جسدى لرؤية الجنود الإنجليز الذين ملأوا المدينة ، وكانوا يسيرون فى طرقاتها على ظهور خيل ليست كخيلنا العربية التى نحبها ، فكان منظرها كريهاً ، وكنا نطلق عليها « البغال الأسترالى » ونشبه بها من هو ضخم الجثة بليد الحركة جامد الملامح .

وكان أسلوب أخذ الرجال للسلطة فى القرية يختلف عنه فى المدينة . كان العمدة ومشايخ البلد هم الذى يختارون « أنفار السلطة » ويبعثون بهم إلى المركز . وكان ذلك بمثابة ضريبة مفروضة لابد أن تتحملها كل « عائلة » بتقديم بعض أفرادها .

وقد تعطل التعليم فى المدارس بالمدينة ، واتخذ الجيش الإنجليزى هذه المدارس معسكرات له على أثر حادث تاريخى مشهور ، وهو الظاهرة الثالثة التى لم أنس مناظرها برغم أنى كنت صبياً فى نحو الثامنة .

لست أدرى بالضبط كيف بدأ الحادث ، ولكن فى صباح يوم

من الأيام ساد « الكتاب » هرج ومرج ، وقيل كلام لم أفهمه كله ، وإنما عرفت من جملته أن فى المدينة شيئاً غير عادى . عراكاً بين الإنجليز وبين الأهلين ، وخرجنا متسللين إلى الشوارع برغم تحذيرنا .

رأيت « مكنات » الرصاص فى أيدى الجنود الحمر الوجوه الكريهى السحن . . « يرشون » برصاصها الناس فى الشوارع ، فيسقط من يسقط . ويهجم عليهم من يهجم ، ويجرى من يجرى . وكنت ممن جروا ، وجذبنى رجل إلى دكانه قائلاً : تعالى يا ولدى . . اغلق علينا باب الدكان . وتسرب إلى الداخل معنا من استطاع ، ومكثنا برهة حتى ابتعدت أصوات إطلاق الرصاص ، ففتح الرجل الباب وخرجنا .

ورأيت الأعراب يملأون البلد وفى أيديهم البنادق ، وعرفت أن كثيراً منهم أبلى إبلاء حسناً فى قتال الإنجليز ، وسقط قتلاهم فى الشوارع .

كان ذلك هو الوجه المشرق ، وتمثل الوجه الآخر فى أولئك الذين كان هجومهم على المحلات التجارية ونهبها ، كان بعضهم من صعاليك المدينة ، وبعضهم من صعاليك الأعراب . وحدثتنى نفسى أن أكون من الصعاليك ، فتسللت بين أرجل المهاجمين للمحلات ، ورأيت لفة قماش ملقاة على الأرض ، فحملتها . . كانت من « السكاروتة » التى اشتهرت القفاطين التى تصنع منها . وما إن خرجت بها إلى الشارع حتى استقبلنى أعرابى بيده بندقية صوبها إلى مهدداً قائلاً : هات . . هات يا ولد ! قلت : خذ ، ونجوت بجلدى . .

عرفت أن الفكرة فى ذلك النهب كانت فى أول الأمر متجهة إلى محلات الأجانب (الخواجات) وهى فكرة جاهلة ، ولكن اللصوص -

بالطبع – انتهزوا الفرصة ولم يفرقوا بين أجنبي ومواطن . والحمد لله على أن جريمتى معهم لم تتم . .

وكانت نتائج تلك الثورة فى القرية على عكس ذلك ، لم تشبها شائبة . هاجم الثائرون المركز : مركز الشرطة ووكر الاستبداد والاستعباد الذى يتآمر مع المستعمرين ويأخذ لهم الرجال والمواشى والأقوات . . حطموه وقاتلوا من تصدى لهم من ضباطه وجنوده وطردوهم ، ثم أحرقوه حرقاً . وعاشت قريتنا والقرى الأخرى مدة طويلة بدون حكومة من الخارج . .

تألفت فى قريتنا لجنة من مندوبى « العائلات » التى قلت فيما مضى إنها تشبه القبائل ، وصارت هذه اللجنة هى الحكومة ، حتى العمدة لم يعد عمدة كما كان ، بل صار عضواً فى اللجنة كأى عضو آخر . وعلى كل عضو أن يندب رجالاً من أسرته التى يمثلها لكى يقوموا بأعمال الشرطة .

وأحس الناس بأن الحكومة منهم ، وتعمل لصالحهم ، كأحدث وأروع ما تكون عليه الحكومات الديمقراطية فى بلاد حرة . ولم يكن أحد من رجال هذه الحكومة ، عضواً كان أو شرطياً ، يتقاضى أى مرتب ، فكل منهم يعمل فى حياته العادية ليكسب رزقه إلى جانب المهمة الجليلة التى ندب نفسه لها .

والواقع أن « العملية » الحكومية كانت سهلة جداً ، حتى رجال الشرطة ، لم يكن سهرهم المتناوب إلا سمرا . .

. . فقد ساد الأمن واستتب السلام بين الناس . واتجهت رغبة جماعية

إلى أفراد كانوا يحترفون السرقة والنهب ، فعاملتهم الجماعة بما ألف قلوبهم وجعلهم يتعاونون على السلام بين الجميع .

وذلك ما عنيت بقولى إن نتائج الثورة فى بلدنا لم تشبها شائبة . حقًّا إن بعض أفراد ممن ذهبوا من القرية إلى المدينة بأسلحتهم للاشتراك فى الجهاد . شاركوا فى جلب أقمشة ولبسوا منها جلابيب وجبباً وقفاطين . ولكن هذه كانت أشياء جانبية ، كانت سيئات فردية تذهبها حسنات جماعية . لم ينمح من ذاكرتى منظر الرجال من قريتنا ومن غيرها وهم يقابلوننا فى الطريق إلى المدينة مسلحين متحمسين لقتال العدو المحتل ونحن – صبيان الكتاب وتلاميذ المدارس – عائدون إلى قرانا وهم يسألوننا عن الأخبار فى المدينة .

رأيت بين أولئك الرجال « هريدى » وبيده بندقية « مقروطة » أى مقطوع معظم « ماسورتها » ليسهل إخفاؤها فى طيات الثياب ، خلال الغارات الليلية التى كان يقوم بها لسرقة المواشى أو إحراق الزرع أو . . . إلخ . وقد احترف هذا العمل بعد عودته من « السلطة » وعلى جلده آثار ضرب بالسوط قيل إن الإنجليز فعلوه به لأنه سرق علبة « بولوبيف » وعاد إلى القرية بعد أن سرحوه ، عاد حانقاً ساخطاً على كل شىء ، العمدة وشيخ البلد وشيخ الغفر أخذوه للسلطة ، والإنجليز ضربوه . وقيل إنه تعود على أكل « البولوبيف » ، ولم يعد له صبر على « البتاو والمش » وسفح العرق فى أراضى الغير ، ورعى مواشى الغير ، ونقل سباخ الغير ، وويل للذين استضعفوه وأخذوه للسلطة .

وأصبح « هريدى » مهاباً فى البلد يعمل حسابه العمدة وشيخ البلد

وشيخ الخفر قبل غيرهم ، بعد أن كان « ملطشة » للجميع .

والآن ، وقد قامت الثورة ، ويل للإنجليز . . وحسب « هريدى » أن « مقروطته » ستشفى غليله ممن جلدوه لأجل علبة « بولوبيف » ولكنه – واأسفاه – ذهب ولم يعد . . .

بعد عديد من السنين اشتركت في حوادث وطنية بالقاهرة ، وفى خلال ذلك لم تبرح مخيلتى حوادث الثورة فى الفيوم ، ولكنى للأسف لم أواجه الإنجليز . . كنت أراهم فى أماكن مختلفة فتستفزنى مناظرهم ، وحتى الآن كلما مررت بحذاء مبنى الجامعة العربية المجاور لجسر (كوبرى) قصر النيل ، أذكر الثكنات التى كانت مكان هذا المبنى ، ثكنات الجيش المحتل تطل من نوافذها وجوه شائهة . . وفى أيام الحر يجلس الجنود الحمر الأجسام أشباه عرايا على حواف النوافذ .

لست أدرى هل كنت أرى البشاعة فى مناظرهم وأشعر بالاشمئزاز من سحنهم لأنهم كذلك فعلاً . . أو لأنهم محتلون يتصرفون فى بلادنا تصرف القادر المتسلط الذى لا يبالى بأى شىء ولا يتورع عن شائن السلوك . .

كنا مع بالغ الأسف نواجه مواطنينا فى معظم حالات الغضب الوطنى .

أذكر حادثين أبليت فيهما بلاء لا أدرى أحسناً كان أم غير حسن . . إذ كانت المواجهة لرجال الشرطة المصريين الذين كادت عصيهم وخوذاتهم السوداء تشبه ما يبغضنا فى مناظر الجنود الإنجليز . .

كان الحادث الأول أمام الجامع الأزهر ، وكنا فى غضبة وطنية لا أذكر زمانها ولا أسبابها ، امتلأت الساحة الواقعة أمام باب الأزهر بالجنود المصريين ونحن فى الداخل نسمع الخطب الحماسية ونهتف

الهتاف الذى يقض مضاجع الحكام عملاء الاستعمار ، وترامى إلينا أن كل من يخرج منا من الباب يتلقفه أولئك الجنود بالضرب والاعتقال ، فصعدنا إلى سطح الجامع العالى ، وجعلنا نرميهم بحجارة نرجو أن تكون من سجيل فتجعلهم كعصف مأكول . كنت أرمى وأنا أشعر بنشوة لا تعد لها نشوة . .

ووقع مثل ذلك فى الحادث الثانى الذى كان حوالى سنة ١٩٣٦ ضمن حوادث الطلبة فى ذلك الوقت ضد « المعاهدة » وكنت طالباً فى دار العلوم ، وسقط من بيننا بعض الشهداء .

المؤسف والمؤسى فى تلك الحوادث أنها كانت بيننا وبين أنفسنا . . بين المتظاهرين المتحمسين من جهة ، وبين الجنود المصريين – سواء من الجيش أو من الشرطة – المكلفين بمقاومة الوطنيين من قبل الحكام الممالئين للمستعمرين .

مسكين ذلك الجندى المصرى الذى كان فى ذلك الوقت . . لماذا غفل عنه الأدب والفن ؟ عن موقفه الذى يرثى له وهو يضرب ويقتل مواطنيه ، عن صراعه النفسى فى تلك المواقف التى قضى عليه فيها أن يكون شخصية بغيضة فى نظر المواطنين !

لقد كان ذلك الشرطى فى الأدب والفن مثار سخرية فى مواقف أخرى لجهله ولعقد انعقدت فى نفسه من سوء معاملة رؤسائه وقسوتهم عليه ، فأراد أن يسوم «الأهالى» مثل ما يسومه الرؤساء المتغطرسون . . حتى كان يقول : « احنا يا حكومة ! »

إذا رأيت اليوم رجل الشرطة أوأمين الشرطة على مستوى الشعار

المرفوع : « الشرطة فى خدمة الشعب » فاحمد الله وترحم على ذلك الجندى القديم المسكين . .

وإن رأيت بعض الهنات والأخطاء فاعلم أنها لا تعد شيئاً كالذى كان . . .



الجاموسة وأبو زيد الهلالى

كانت عودتنا إلى القرية بعد ثورة المدينة آخر العهد بكتاب الشيخ ونيس . لست أذكر كيف كان ذلك ، ولم كان ذلك الانقطاع ؟ .

وجدت نفسى فى القرية أذهب إلى كتّاب آخر بها غير الكتّاب الذى بدأت فيه طفلاً من قبل ، وشعرت شعور عزيز قوم ذل . . كنت أتطلع إلى ما هو أحسن ، إلى أى تعليم أتعلمه غير مجرد الحفظ والتسميع ، فإذا أنا أعود إلى الأدنى ، كان الجوهر واحداً ، ولكن الشكل مختلف جداً بين المدينة والقرية ، بين أرغفة القمح وأقراص « البتاو » وعدت إلى الحفاء بعد أن لبست الحذاء . .

أما أخى فقد لحق بالأزهر فى القاهرة ، وكان اهتمام أبى موجهاً إليه ، وكنت أنا كالتابع له . . كنت كذلك فى المدينة ، وسأكون كذلك فى القاهرة بعد حين . . وقد يكون هذا هو السبب فى قطع « تعليمى » بالمدينة ، فلم يعد أخى هناك ، فليبق هذا « الكم المهمل » هنا يفعل أى شىء . . وقيل لى بلسان الحال وبطريقة المعاملة العملية : أيهما تحب : أتسرح بالجاموسة أم تذهب إلى الكتّاب . . ؟ وهنا كان شعورى كعزيز قوم ذل .

كان « الولد » الذى يرعى لنا الجاموسة بالأجر ، وهو الذى سبقت

الإشارة إليه فى مرافقتنا بالحمير والعودة بها فى ذهابنا وإيابنا بين القرية والمدينة – كان هذا الولد قد غضب لسبب ما وامتنع عن الحضور لأخذ الجاموسة إلى المراعى ، فصدر الأمر بتكليفى بهذا العمل . . .

ركبت الجاموسة واتجهت بها إلى حيث تكثر الحشائش ، فقد كان الوقت صيفاً وليس هناك « برسيم » وعلى راعى الجاموسة أن يرتاد بها ضفاف الترع لكى تبترد فى الماء وتأكل الحشيش و« تنبسط » .

أما أنا فكدت أنفلق من الغيظ لما التقيت بحميدة بنت شيخ البلد وهى ترعى جاموستهم ، وكانت حميدة إحدى بنات عشر ولدتهن زوجة شيخ البلد القديمة ورأى هو أن هذه الزوجة كل « خلفتها » بنات . وكان قد اغتنى وصار شيخ بلد فتزوج من « البندر » وأنجبت له الزوجة الجديدة أبناء ذكوراً ، اهتم بتعليمهم ، وأعد لكل بنت لم تتزوج بعد جاموسة تسرح بها . . وبرغم أن البنات كن ينتجن والأبناء يستهلكون فإن « نوايب » اللحم كانت دائماً من نصيب الذكور ، أما الإناث فحسبهن « الطبيخ » وفيه « خير » اللحم كما يقول . .

الذى غاظنى من حميدة أنها ما كادت ترانى حتى مصمصت شفتيها إشفاقاً على ! قالت : « يا عينى . . كده يسرحوك بالجاموسة . . وانت حضرى ما انتش واخد على الغلب ده ! »

كدت أبكى ، ولكنى تجلدت ، واعتصمت بالصمت كجدار سميك أستند إليه حتى لا أتهاوى أمام البنت . . .

وكان إشفاق والدتى من نوع آخر ، استرحت له ، وتفيأت ظله ، قالت لأبى فى صوت خافت : « الولد مش واخد على كده ! » ثم قالت

ذلك بصوت عال فى غيبته ،وزادت عليه بعض عبارات الاحتجاج وأنى « مش وش كده ! » ولست متعوداً على مواجهة الشمس والبقاء فيها مدة طويلة .

وداخلنى شعور بالتعاسة مع شعور بالارتياح لإشفاق أمى . . . وأخذت « لطشة شمس » سببت لى دواراً وارتفاعاً فى الحرارة .

كان أبى يعمل دائماً على أن أخشوشن وأتحمل المشاق ولا أهاب أى شيء. كان مثلاً يكلفنى أن أصعد ليلاً إلى الطابق الثانى لإحضارشيء ما ، فإذا طلبت مصباحاً أستضيء به قال لى فى حسم شديد : اطلع فى الظلام ! وكان يأمرنى أن أذهب إلى الحقل ليلاً وحدى ، ويعهد إلى بحراسة فتحة المياه التى تسقى الزرع فى الظلام حتى لا يأتى أحد ويحولها إلى حقله . .

وكان قاسياً فى ذلك ، ولكن أمى كانت تلطف بعض الشيء من هذه القسوة بشيء من الحنان ، على أن هذا الحنان نفسه كان بقدر ، حسب المعتاد فى بيئتنا ، إذ لا تفرط الأمهات هناك إفراط الأمهات « الحضريات » فى التدليل . لذلك لم أجد صعوبة عاطفية كبيرة فى الاغتراب صغيراً بمدينة الفيوم ثم بالقاهرة . وكان التخشن الذى اعتدته فى القرية ساعدا على شظف عانيته وحدى فى كثير من الأحيان بالقاهرة .

ونعود إلى « الجاموسة » الحائرة : من يرعاها وقد تركها ذلك الولد الذى كان « موظفاً » عليها فى درجة « الراعى » الذى يرتقى بعد أن يكبر إلى درجة الزارع ، ثم مرضت أنا وأخذت « لطشة شمس » من سرحتى بها بضعة أيام ؟ .

لجأت أمى إلى تدبير معقول . أبو زيد (الراعى)، يحبنى ، وكان يكبرنى قليلاً فى السن ، وكنا صديقين فعلاً ، أرسلت أمى إليه ، فحضر ، وجلس بجانبى على الفراش (حصير ومخدة) مثل قط أليف . .

ضربت أمى على الوتر الحساس فى نفسه إذ قالت له :

– هل يرضيك أن « عباس » يسرح بالجاموسة فى الغيط وهو حضرى ليس متعوداً على الشمس ، فيعيا . . ؟

كلمة « حضرى » كنت أغتاظ منها أحياناً . . عندما يقصد منها الضعف المنافى للرجولة الخشنة ، قال لى ولد يشتمنى : « يا حضرى يا بوصابونة ! » فأثبت له بالضرب أنى لست ممن تنعم الصابونة أجسادهم . . قبل ذلك بزمن ضربنى ولد فهرولت إلى المنزل باكياً ، فضربنى أبى لأنى « خايب » لم أضرب من ضربنى .

أما وصف أمى بأنى حضرى فقد كان مرماه الخفى أنى لست فلاحاً ، لأنى قد أصبحت مثل أولاد الحضر (البندر) المرموقين . .

واستجاب أبو زيد للدعوة إلى العودة ، بدافع صداقتنا ، فعاد إلى الجاموسة نهاراً ، وإلى السمر معى شطراً من الليل بعد العشاء (بفتح العين) الذى يكون عادة مبكراً فى أول الليل .

وأى سمر ذلك الذى كنا نتسامر به . . ؟ كان « فناً »عظيماً يأسرنى ويأخذنى إلى عالم سحرى عجيب تشتجر فيه السيوف وتصهل فيه الخيول ويتناحر الأبطال ، ويشدنا بعضهم إليه وإلى ما يحميه من إنسانية وقيم . . موقعاً ذلك لجله على نغم من كلمات آسرة وصوت كان أوقع على سمعى من أى صوت . . هو صوت « أبو زيد » صديقى وهو يحكى عن

« أبو زيد الهلالى » مرة يسترسل فى الحكى ومرة ينشد لا ينقصه إلا « الربابة » .

– ممن عرفت كل هذا يا أبو زيد ؟

– من « الشاعر »

– هل أستطيع أن أرى هذا الشاعر ؟

– ممكن . عندما يجىء إلى « عرس » فى البلد .

وكان عرس ، وجاء « الشاعر » وكانت ليلة . . .

تمثل لى « الشاعر » نفسه أبا زيد الهلالى . . بيده الربابة كأنها سيف ، ويجلس على كرسى وضع على « طبلية » خشبية كبيرة تعلو به إلى مستوى أنظار الجمهور ، كأنه يمتطى ظهر حصان ، وعند المناسبة الحماسية يدق بحذائه الطبلية كأنه يلكز جنب الحصان ، فيعلو صوت كأنه صهيل . . ونحن معه أو مع من يحكى عنهم ويمثلهم لا نعى شيئاً مما حولنا . . . حتى إذا أخذته الحماسة فى موقف بلغ الذروة ضرب بقدمه الطبلية ضربة شطرتها شطرين !

وكانت تلك الضربة حديث اليوم التالى ، وما كان أشد اعتزاز من رأى وهو يحكى لمن يسمع . .

مررت يوماً – بعد عشرات السنين – بدكان فى القرية ، فخرج صاحب الدكان يسلم على : وما كان أسعدنى به .. إنه « أبو زيد » صديق الطفولة . . .

كيف حالك يا أبو زيد يا هلالى سلامة ؟

– الحمد لله ، تفضل ، لازم تشرب الشاى .

– والله زمان يا بو زيد . .

وقلت له سأعود إليه بعد « المشوار » الذى نحن ذاهبون فيه .

وتقدم بنا الليل ، فسألت :

– يا ترى أيكون أبو زيد فى الدكان إلى الآن ؟

– إنه يبيت فيه وإن كان قليل النوم . أصل ابنه مات . . مات شهيداً فى الحرب .

قبيل أن أدق باب الدكان سمعت صوتاً وأزيزاً ، أو قل صوتاً يوقع على أزيز . . الصوت يعـود بى إلى أغوار ماض سحيق . . أيـــام أن كان يقول أبو زيد الهلالى سلامة :

والنار فى القلب زايدات اللهايب

ولما دخلت رأيت مصدر الأزيز ، براد شاى يغلى فوق وابور الجاز . . .

لم أذكر ابنه الشهيد خشية أن أثير شجونه ، ولكنه كان يدير الحديث إلى جهة السياسة وأخبار العرب وما أعدوه لحرب إسرائيل ، فوجدتنى منساقاً إلى سرد أخبار سارة وتعليقات متفائلة فلاحت على أساريره انفراجة عن ملامح عهدتها منذ ذلك العهد البعيد . .

آه . . لو كان « أبو زيد » يستطيع أن يتجاوب معى الآن فكرياً . . ؟ وآه . . لو كان لى من الذين يتجاوبون معى فى تفكيرى – صديق مثل « أبو زيد » القديم . .

لا تؤاخذونى يا أصدقائى ، ليت لى منكم صديق . .

كان « أبو زيد » هو الفنان الأول فى حياتى ، كان الشاعر ، وكان المطرب ، وكان القصاص .

وانتقلت خطوة أخرى فى « عالم الأدب » ، على يد « عبد الجواد العاجز » وهو رجل كسيح مقعد ، يحمل من بيته الذى يشبه المخزن إلى ناصية بجوار الجامع ، وما أكثر أهل الخير الذين يحملونه إلى « المخزن » فى المساء وإلى الناصية فى الصباح ، ويدقون له الأوتاد والعصى التى يثبت فوقها « خيش » يقيه شمس الصيف ومطر الشتاء ، والذين يجودون عليه بما يفيض عن حاجتهم من الطعام ، ثم الذين يشترون له من الأسواق « كتب الشعر » ذات الورق الأصفر والأغلفة المحلاة بصورة أبوزيد الهلالى أو صورة الناعسة أوعزيزة ويونس . . . إلخ

والرجل أمى لا يقرأ ولا يكتب . إنه يشير بيد مرتعشة وهو يضحك لى متودداً أو يحاول ذلك فتستعصى عليه عضلات وجهه – إلى « طاقة » فى الحائط فوق رأسه ، فأمد يدى بداخلها وأخرج تلك الكتب وأنفض عنها التراب ، وأجلس إلى جواره ، وأقرأ ، ويستغرق كلانا أى استغراق ، حتى لا نشعر بالزمن إلا عندما يؤذن المؤذن لصلاة المغرب . ربما لا ننتبه لأذان الظهر أو العصر ، ولكن أذان المغرب ينذرنا بانطفاء المصباح الذى أقرأ على ضوئه : غروب الشمس ! ..

لو كنت إذ ذاك أعرف قولة « أرشميدس » عندما خطر له حل المسألة التى كانت تشغل فكره : « وجدتها » لرددت تلك الكلمة وأنا فى سرور لا يقل إن لم يزد على سرور أرشميدس .

وجدت شيئاً أقرأه ، شيئاً أشغل فيه فكرى غير ما يفرض علينا فى كتاب سيدنا . .

كانت كتب الأدب الشعبى أول كتب قرأتها بعد المصحف الشريف ،

ثم وجدت فى بيتنا عدة كتب موضوعة فى غير نظام بدولاب معمول فى جوف الحائط ، وهى كتب مختلفة المستويات ومتباينة الموضوعات ، من فقه وتفسير إلى مؤلفات حديثة كالرحلة الحجازية وكتاب لأمين سامى لا أذكر اسمه ، وكتاب « جواهر الأدب » وأجزاء من كتاب ألف ليلة وليلة . وكتاب « بدائع الزهور» . . . . إلخ . .

وذلك التباين يدل على أن أبى كان يجمعها كيفما اتفق . . أى كتاب يجده ، سواء بالشراء أو الأخذ من أحد . أعنى أنه لم يكن يختار حسب رغبة معينة أو اتجاه معين فى القراءة . على أننى كنت أراه يقرأ بصفة خاصة فى كتاب ورقه أصفر ، ويتعمد أن يسمع والدتى ما يقرأ لينبهها إلى ما يحتويه من واجبات الزوجة التى يفرضها عليها الشرع . وما يحل لها وما يحرم عليها . . . إلخ

والظريف أنها كانت تسمع ما تسمع ، أولا فى خشوع ، ثم تضيق بأشياء تدرك بسليقتها أنها جائرة ولا يمكن أن يفرضها شرع الله ، فتقول محتجة : لا هذا كلام المطبعة !

والغريب أنه كان ضمن تلك الكتب كتاب « تحرير المرأة « لقاسم أمين ، واليقين أن أبى لم يقرأ هذا الكتاب برغم احتلاله لمكان فى الدولاب الحائطى التليد . . ربما نظر فيه عندما أحضره ، ثم ازور عنه . .

ولما وقعت عينى على أجزاء ألف ليلة وليلة ثبت نظرى عليها بدافع غريزى ، لعله كالدافع الذى يغرى الحيوان بشىء معين ، كرائحة السمك مثلا التى تشد إليها القطط . . . .

وعشت فترة من الزمن فى عالم عجيب من حكايات ألف ليلة وليلة ،

وتأثرت بكثير من مضموناتها وخاصة فيما يتعلق بالناحية النسائية ، وتحولت اهتماماتى من المغامرات الحماسية فى قصص الهلالية إلى الغرامية فى حكايات ألف ليلة . ولعلك تذكر ما حدثتك به فى فصل سابق من لجوئى إلى السحر لجلب المحبوب . . ولعل هذا من تأثير ذاك .

ورأيت أجزاء أخرى من ألف ليلة وليلة عند أحد أقاربى ، ولم يضن علىّ بها ، فجمعت هذه إلى تلك ، وكنت أصعد بها إلى « مقعد » فى الطابق الثانى من منزلنا ، وكان هذا « المقعد » مخزن غلال . وكان به كومة كبيرة من الفول المخلوط بالرمل حتى يظل الفول سليماً لا « يسوس » . كنت أدفن معظم جسمى فى هذا الخليط ومن حولى أجزاء ألف ليلة وليلة . كهارون الرشيد ومن حوله الجوارى . . .

ولم أكن أخرج من هذا الوضع بإرادتى . . إنما كانت أيد أخرى تخرجنى منه وأنا أسب وألعن إذا كانت الأيدى لمن يمكن أن أسبه وألعنه ، أما إن كانت يد والدتى فالأمر لله . . . أما والدى فكان يكفى أن أسمع صوته لكى أهب منتفضاً نافضاً ما علق بى من الرمل ، متلقياً توبيخه على أن أستبدل بالمصحف هذا الكلام الفارغ : ومن قال لك يا ولد أن تأخذ هذا الكتاب من الدولاب ؟

هكذا كان يقول وأنا لا أستطيع أولا أحسن أن أجيبه بأن هذا الكتاب من كتبه أو أن أسأله : لم اقتنيته إذا كان كلاماً فارغاً . .



عالم جديد

كانت النية – نية أبي – معقودة من البدء على إعدادى لطلب العلم فى الأزهر ، وكنت دائماً الخطوة الثانية التى تتبع خطوة شقيقى الأكبر ، وقد سبقنى – بعد عودتنا من مدينة الفيوم – إلى القاهرة حيث التحق بالأزهر ، وبقيت أنا فى القرية حتى أتأهل لذلك بحفظ القرآن الكريم ، أحببت خالى لأنه أشار على أبى ذات يوم فى تلك الفترة أن يلحقنى بالمدرسة الابتدائية فى المدينة ، و« يبقى واحد فى الأزهر وواحد فى المدارس » كما قال خالى ولكن والدى ظل على إصراره . يخطر لى أن أشبه هذا الوضع بتزويج البنت ممن لا تحب ، فتكون النتيجة زواجاً غير موفق ! فمن يتعلمون فى الأزهر برغبة آبائهم دون رغبتهم يكون مصيرهم مثل تلك البنت ! وكان الأزهر كالرجل الغنى بالنسبة للمدارس المدنية ، فقد كان التعليم فيها بأجور تعجز الفقراء وتثقل على المتوسطين ، أما الأزهر فكان التعليم فيه بالمجان وكان الطالب به يأخذ « جراية » عدداً من الأرغفة كل يوم . والحقيقة أن أبى لم يكن قادراً مالياً على تنفيذ ما أشار به خالى ، كان متلافاً سيئ التصرف فى المال ، لم يحسن تدبير ما جناه من بيع القطن الغالى ، إذ تزوج وكان من المبذرين .

ولا أدرى هل كان من حسن الحظ أو من سوئه أن « سيدنا » فى

هذه المرة كان أعمى ، كنت بطيء الحفظ أو ضعيفه ، وقد يكون ذلك راجعاً إلى أنى أكلف بحفظ ما لا أفهم .

كان « سيدنا » يبقينى إلى الآخر – ولا أذكر سبب ذلك – فى « التسميع » فكان كل من « يسمع » من الصبيان ينصرف ، وأبقى أنا وهو فقط ، وأنتهز الفرصة الذهبية فأضع المصحف فى حجرى مفتوحاً وأنا جالس أمامه « أسمع » . . يعتقد أنى أجدت الحفظ فيدعو لى أن يفتح الله علىّ . . . وكنت فى الحقيقة أقرأ من المصحف . . . . وهكذا حتى « ختمت » أى حفظت القرآن كله ، وأنا فى الواقع ما حفظته .

وحمل إلى منزل « سيدنا » أردب من القمح جزاء حسناً له على تحفيظى القرآن . . .

وفى إدارة القسم الأولى للأزهر حوالى سنة ١٩٢٤ حدث ما يلى :

كانت تعقد هناك لجان لامتحان القبول فى السنة الأولى ، وكان كل الامتحان « فى حفظ القرآن ، وأخذنى « الشيخ سلام » من يدى ، ودخل بى على اللجنة المكونة من شيخين من علماء الأزهر ، والشيخ سلام مواطن من الفيوم يعمل « ملاحظاً » بالأزهر ، وهى وظيفة تشبه وظيفة « الضابط » بالمدارس ، وإن كان الملاحظ أقل مستوى من الضابط فى التعليم والمرتب ، وكانت أهم سلطات الملاحظ أنه يكتب أسماء الغائبين من الطلبة ، ويستطيع أن يتسامح أو يتغافل . . أو يدقق ، على هواه ، ويقوم ببعض الخدمات للمشايخ المدرسين .

قال الشيخ سلام وهو يقدمنى إلى اللجنة :

– ابنك يا سيدنا الشيخ . .

والتفت إلىّ قائلاً . .

– قبّل يد الشيخ يا ولد .

وجلست أمام اللجنة بعد أن قبّلت اليدين . الشيخ سلام من الفيوم . سألنى أحد الشيخين :

– هل أنت من الفيوم ؟

– نعم .

– اقرأ « والتين والزيتون »

قرأت هذه السورة القصيرة التى تتضمن أسماء بعض فواكه الفيوم وإن لم يكن فى قريتنا بالذات فواكه ، إذ هى « قرعاء » تكاد تخلو من الشجر ، وكانت تأتينا هدايا الفواكه من أقارب بالقرى الأخرى الحافلة بأشجار الفاكهة .

ولم أخطئ فى قراءة سورة التين ، فلم يكن يصعب علىّ حفظ السور القصيرة . واكتفى الشيخ منى بهذا القدر وقال :

– قم يا ولد ، فتح الله عليك .

وقد فتح الله علىّ فعلاً . . منذ سنين وأنا عطشان كأنى فى صحراء لا ماء فيها . وهأنذا أرتوى من موارد العلم المختلفة فى مسجد إبراهيم أغا المتخذ كمدرسة للسنة الأولى من القسم الأولى للأزهر .

ما أعظم هذا !

نخلع النعال ونجلس على حصر خشنة ، لا بأس ، والواقع أنه لم يكن هناك أى بأس ، فأنا لم أتعود على جلسات ألين ولا أنظف . . إلى جانب كل منا حذاؤه مطبق الفردتين . . لا بأس ، فهذا أحسن من أن

يسرق ! وقد يبالغ أحدنا فى الحرص عليه فيضعه تحت ركبته وهو متربع . نجلس فى شبه دائرة أمام « كرسى الشيخ » وهو كرسى خشبى كبير له مسندان لليدين ، وتوضع عليه « شلتة » لينة فى الغالب ، يحفظها الملاحظ ويأتى بها عند حضور الشيخ ، وكان بعض الطلبة – نحن الآن اسمنا طلبة وكنا فى الكتاب صبياناً – يأتى معه بفروة يجلس عليها فوق الحصير .

وبعض المشايخ لا يخلعون أحذيتهم عند دخول المسجد ، وإنما يلبسون فوقها « خفاً » كالذى يلبسه السائحون فوق أحذيتهم فى المساجد الأثرية ، وكان مسجدنا منها ، وكنا نرى السائحين رجالاً ونساء ونحن جلوس فى حلقات الدروس ، ونغض الطرف تصنعاً عن منظر النساء الإفرنجيات ، العاريات الأذرع والسيقان وأعلى الظهر والصدر ، ولم يكن هذا قد شاع بين المصريات ، ولم يكن ذلك التصنع يمنع من اختلاس النظر . . على أن معظمهن عجائز ليس فيهن شىء يغرى . . والفتيات منهن كأن لحمهن حرام !

مهما كان من شىء فإن هذا جو جديد يبهرنى ويبهجنى ، وأهم شىء فيه يشدنى إليه هو العلم . . العلم الذى طالما اشتقت إليه : نحو وفقه وتوحيد ، ليس فقط ، بل كذلك علوم حديثة : حساب وإملاء وجغرافيا ، وتحسين خط : رقعة ونسخ وثلث طبقاً لقواعد مرسومة .

وكانت « القواعد » هى السائدة فى كل العلوم قديمة وحديثة ، أما التطبيق والتمرين فحظهما قليل ، حتى الحساب كنا نبدأه بالتعريفات ، مثل « الجمع » فهو ضم عددين أو أكثر من جنس واحد بحيث ينتج

ناتج يسمى حاصل الجمع . . . ولا يفوت المدرس أن يخرج « محترزات التعريف » طبقاً للمنهج الدراسى الأزهرى التليد ، فقوله ، « من جنس واحد » يخرج ضم أعداد من أجناس مختلفة . . إلخ .

و « علم الإملاء » كان كلّه علماً . . لم يكن يملى علينا إلا القواعد نفسها : المواضع التى ترسم فيها الألف ياء ومتى ترسم الهمزة على واو أو ياء أو مفردة . . إلخ . .

ولعل « تحسين الخط » هو المادة الوحيدة التى كان يقرن فيها التمرين بالقاعدة : حذواً . وكان مدرس الخط هو الوحيد الذى يلبس البدلة والطربوش والباقون مشايخ معممون ، حتى مدرس الحساب الذى يختار هو وسائر مدرسى العلوم الحديثة من شباب خريجى الأزهر « الحديثين » .

كان ذلك كله بالنسبة لى عالماً جديداً مشوقاً أقبلت عليه بكل مشاعرى وفكرى ، على أن علماً واحداً من هذه العلوم استأثر باهتمامى وانعقدت المحبة بينى وبينه من أول لحظة ، ولعل ذلك لأنه كان أقرب تلك العلوم إلى الأدب .

ذلك هو « النحو » ولا أدرى حتى اليوم كيف أدركت من البداية الأوجه الثلاثة الجائزة فى إعراب كلمة « باب » فى العنوان « باب الإعراب » إذ يجوز أن ترفع على أنها مبتدأ خبره محذوف أو خبر لمبتدأ محذوف تقديره « هذا » وأن تنصب على أنها مفعول به لفعل محذوف تقديره « اقرأ » وأن تجر بحرف جر محذوف تقديره مع متعلقه « انظر إلى »

كنت أصغى إلى شرح المدرس وأنا ألتهمه التهاماً ، لا ، لم يكن

الشرح كافياً لأن أفهم مافهمت ، مما يجعلنى أقول : ألهمته إلهاماً . . .

وصرت أعجوبة فى الإعراب ، ودبر لى أحد الطلبة الكبار « مقلباً » نحوياً . . قال لى :

– أنت شاطر فى الإعراب ؟

– يقولون . .

– طيب ، اعرب « باض الحمام على وجه الكنيف » .

سكت جميع من فى المجلس مترقبين وقوعى فى « المقلب » فما وصلت فى الإعراب إلى أن قلت : وجه (بكسر الهاء) مضاف والكنيف مضاف إليه . . حتى انفجر الجميع ضاحكين مقهقهين .

واندهشت من ضحكهم ، فقال لى ذلك الطالب كأنه يشرح لى « النكتة » وهو يقهقه :

– ها . . ها . . وجهك مضاف والكنيف مضاف إليه ! ها . . ها . . الكنيف مضاف إلى وجهك !

ولم أر أبى سعيداً بى مثل ما رأيته فى مرتين ، كانت الأولى فى تلك الآونة ، إذ حضر إلى القاهرة وكان من عادته أن يزور عالماً من علماء الأزهر أصله من القرية المجاورة لقريتنا ، وصحبته فى الزيارة ، لاطفنى الشيخ ، وكان من ملاطفته أن سألنى فى النحو والإعراب فأجبته موفقاً ؛ فدعا الله أن يفتح علىّ . وسر أبى غاية السرور ، وكانت المرة الثانية فى فترة لاحقة وأنا فى المرحلة الثانوية إذ جاء إلى القاهرة يشكو مصلحة الأملاك الأميرية إلى نفسها . . . لأنه كان قد اشترى منها فدانين وأبت أن تأخذ الأقساط منه وحده ، مشترطة أن يجمع كل المشترين معه أقساطهم

جميعاً ويدفعوها جملة واحدة . . لأنهم فى رأيها متضامنون . وطلب منى أن أكتب الشكوى ، وانفعلت بالموضوع إذ رأيت أبى على حق والمصلحة متعنتة ، فكتبت الشكوى وقرأتها على والدى . فانبسطت أساريره بعد أن كانت معقدة ، وقال لى :

– أنا الآن لا يهمنى أن أكسب هذه القضية .

– . . . . .

– يكفينى أن أراك تكتب هكذا !

أرانى يا أخى القارئ قد تورطت فى مدح نفسى ، وكدت أقرئك السلام . . مثل إبليس . كانت تعجبنى هذه العبارة التى تقال لمن يمدح نفسه :

« مادح نفسه – إبليس – يقرئك السلام »

ولكن ، لا عليك ولا علىّ . . فالذين أعجبوا بى إما « مجاورون » ذووعقول قديمة ، وإما والدى الفلاح الساذج ، ثم هو والدى ، والقرد فى عين أمه غزال ، كما يقول المثل السائر .

قلت منذ قليل إن النحو أقرب تلك العلوم إلى الأدب ، دع مسألة ضبط الكلام والتحرز من الخطأ فى اللغة وهى أداة التعبير ، لنقف عند شىء من لب الأدب ، هى شواهد النحو ، هى الأبيات الشعرية الرائع معظمها ، التى يأتى بها المؤلفون تعزيزاً لرأى وتأييداً لقاعدة أومثالاً للهجة شاذة . استرعت هذه الشواهد انتباهى ، وأخذت أتذوقها وأنبهر بها ، ثم أحفظها وأرددها . وقبل أى شىء كنت أحرص على فهمها وأستوقف الشيخ سائلاً عن معناها إن أراد أن يمر بها دون شرح . وكان لبعض

المشايخ طريقة طريفة فى هذا الشرح وفى إلقاء الدروس على وجه عام سألت أحدهم عن معنى هذا البيت :

أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل   وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

قال الشيخ : الشاعر بيجول (يقول) لحبيبته يعنى رفيجته (رفيقته) يجول لها إيه يا وله . . ؟ يا فاطمة ، أصله منادى مرخم محذوف تاء التأنيث ، أنت من انهى بلد (من أى بلد) يا وله ؟

– من الفيوم .

– جتك داهية فى بلدك ! يجول لها أى لفاطمة على مهلك كفاية دلال يا بنت الحلال ، وإن كنت ناوية صرمى يعنى هجرى ، خلى بالك ، مش يعنى تضربه بالصرمة . . فترفقى ولا تكونى قاسية . فاهم يا واد يا فيومى يا بتاع الفراخ (الفيوم مشهورة بالدجاج)

اسمك إيه ياواد ؟

– عباس ياسيدنا الشيخ .

– الله يفتح عليك ياشيخ عباس .

وعرفت أن « ابن عقيل » كان قد سجن وأنه ألف كتابه « شرح الألفية » فى أثناء وجوده فى السجن – عرفت ذلك من « الشيخ الضباعنى » الذى كان يدرس لنا هذا الكتاب . كان يمسك بالملزمة الصفراء ، و« يدح » فيها وكأنه لا يشعر بوجودنا أمامه فى حلقة الدرس . فإذا تعب وضع الملزمة بجانبه على الكرسى الكبير ، وأخرج من جيب قفطانه علبة النشوق ، ونقر عليها بأصبعه وفتحها وأخذ منها قليلاً بين أصبعيه

ورفعه إلى أنفه مع رفع الأنف والشد من المنخرين ، ثم يقول وكأنه فى عالم آخر والمنديل « المحلاوى » فى يده قريباً من أنفه . :

« لله درك يا ابن عقيل ! ألفت هذا وأنت فى السجن ! »

فإذا خرج من عالمه إلى عالمنا التفت إلى طالب قاهرى أبوه صاحب محل « نشوق » يقول له أى كلام ، لأنه راض عن « الصنف الجيد » الذى أحضره له . وكان هذا الطالب أثيراً لدى المشايخ .

وأحياناً كان « الشيخ الضباعنى » يستريح من « ابن عقيل » فى المحطة التالية :

هذا هو « هدأ » ووضع الملزمة بجواره ، ثم تنشق على الطريقة المعتادة ثم يقطع هذا البيت تقطيعاً عروضيًّا :

كرة ضربت بصوالجة فتلقفها رجل رجل

يهز أعلى جسمه يميناً وشمالاً فى منتهى الانسجام وهو يقول أوعلى الأصح يغنى :

« كرة فعل ، ضربت فعل ، بصوا فعل ، لجة فعل ، فتل فعل ، قفها فعل ، رجل فعل ، رجل فعل » .

كان معظم المشايخ يهينون الطلاب بمختلف الوسائل : كالضرب بالمركوب والشتائم المقذعة التى تتناول الآباء والأمهات . وكأنهم يرون ذلك حقاً من حقوقهم أو واجباً عليهم فى تأديب طلابهم ، وكان الطلاب يتلقون ذلك منهم بصبر ورحابة صدر ، لا يرون فيه مساساً بهم . ولكنى أذكر شيخاً مهذباً كان يضبط نفسه فيستبدل بالشتيمة قوله : يا ابن المسلم !

كان بعض أساتذتنا المشايخ وخاصة مدرسو الفقه يتبسطون معنا فى الحديث عن المسائل الجنسية ، طبقاً لوجهة النظر التى تقول : لا حياء فى الدين ، وذلك دون أى تحرج . .

ويمكن الآن القول بأن ذلك الذى كان من قديم ، يعد من قبيل التربية الجنسية السليمة التى دعا إليها حديثاً علماء التربية فى الغرب ، ورددت دعوتهم فى آفاقنا ، ولكنها لم تجد أية استجابة حتى اليوم .



السلاح الأحمر

بدأت حياتى بالقاهرة فى الرابعة عشرة من عمرى . عالم كبير مذهل ليس فقط بالنسبة للقرية ، بل كذلك بالنسبة لمدينة الفيوم نفسها ، على أن هذه – المدينة – كان ولا يزال لها فى نفسى سحر وطعم خاص ، مما لم أنسه قط ولم يبرح مسمعى صوت السواقى . . . كنت أسمعه فى السحر والفجر وأستيقظ على موسيقاه الشاكية الباكية ، كان هذا الصوت يصل إلىّ فى تلك الأوقات التى تنام فيها المدينة ويصمت ضجيجها ، فيشجينى ويهدى إلى بعد برهة من سماعه نوماً لذيذاً لا بد أن كانت تتخلله أحلام سعيدة .

بدأت أسمع فى القاهرة عن أشياء باهرة وأسماء ذات بريق ، كان هناك فى العباسية « لونابرك » وهو ما يسمى الآن « مدينة الملاهى » ذهبت إليه أنا وأخى ودخلناه ، والحديث عما فيه أصبح الآن عادياً ، ولكنه كان فى ذلك الوقت أغرب حديث . . .

ومنيرة المهدية وصالح عبد الحى وحامد مرسى ، ولكن منيرة المهدية خاصة كانت آسرة . . تمثل وتغنى ، وما أعظم أن تغنى « زغلول يا بلح ! » آه . . سعد زغلول تقصد . . ولا أحد من الحكام وأدوات الاستعمار يستطيع أن يحقق معها ، فهى تحب البلح الزغلول ، وأى بأس وأية

جريمة فى أن يغنى الإنسان لما يحب . . ؟ والشعب يعجب ويطرب ويصفق.
فى النفوس بقايا من ثورة ١٩ تريد أن تعمل عملها وتبرز ولو فى الطرب !

وذهبت أنا وأخى إلى مسرح منيرة المهدية . . . وكان أبى قد أسكننا مع طلبة كبار من قرية مجاورة لقريتنا ، على أن يشرفوا علينا ويرعونا ، أو بتعبير آخر نكون تحت وصايتهم . واصطدمت رغبتنا فى الاستقلال مع رغبتهم فى التسلط والسيطرة ، ولما جاء أبى كان كبيرهم قد أعد له قائمة اتهام تدل على تمردنا وعدم انصياعنا ، وكان فى رأس القائمة ذهابنا إلى « لونابرك » وإلى منيرة المهدية . .

– طيب ، نحن الذين هنا من سبع سنوات لا نعرف أين هى منيرة المهدية !

ثم يجىء هؤلاء – وهم لا يزالون قططاً مغمضة – ويذهبون إلى منيرة المهدية ! .

هكذا قالوا لأبى فى إثارته علينا . . مع أنهم هم الذين حدثونا عن كل ذلك وبثوا فى نفوسنا الشوق إليه . .

ولم نقف أمام الاتهامات مكممين ، بل دافعنا عن أنفسنا . وحقاً كان ذهابنا إلى منيرة المهدية غلطة لن نعود إلى مثلها يا أبى . ولكن هؤلاء الذين عهدت إليهم برعايتنا ليسوا أهلاً لذلك . وقلنا فيهم ما قلنا بالحق وبالباطل .

والواقع أن أولئك الطلبة لم يكونوا طلبة علم بالمعنى الصحيح ، كانوا ثلاثة :

واحد منهم فقط كان جاداً فى طلب العلم، وكان يعد نفسه للحاق بدار

العلوم ، ثم لحق بها فعلاً وقد « فصل » جبة وقفطاناً وعمة « مقلوظة » وحذاء لامعاً نظيفاً . وبعد سنين عدداً « قلب أفندى » مع زملائه طلبة دار العلوم عندما ثاروا على العمامة ووضعوا مكانها الطربوش مثل غيرهم من سائر طلبة المدارس العالية .

كان « الأستاذ عبد العظيم » الطالب بمدرسة دار العلوم العالية أمامنا فى ذلك الوقت رجلاً مرموقاً ، نلقاه باحترام ، ونقعد فى مجلسه باحترام ، ونتحدث عنه فى غيبته باحترام ، ولم يكن يغض من شأنه فى نظرنا أن يعجب بالجمال فى فتيات من الحى البلدى الذى نقيم فيه ، وكانت بنت صاحبة البيت التلميذة معجبة به . . لم نكن نرى فى ذلك بأساً ، وكنا نسمع سمع الكرام المتسامحين ما يتقوله عليه المنافسون الحاقدون . . شاب أنيق وسيم يحب الجمال والجمال يحبه ، أليس الله جميلاً يحب الجمال ، كما يقولون . . . ؟

بعد نحو عشرين سنة رأيته – الأستاذ عبد العظيم – وقرأت له مقالاً أو مقالين ، كانت الرؤية والقراءة فى مجلة « الرسالة » حينما كنت أعمل وأكتب بها . لولا بعض العلامات وشىء من التفرس ما عرفته . . . رأيته فى « بدلة » كانت الجبة والقفطان أليق عليه منها ورأسه يقول للطربوش : ألا انجل . . فالعمامة خير منك ! ولا بد أنه رجل صالح يؤدى الصلاة ، فالبنطلون منتفخ الركبتين من أثر السجود .

وقت ذاك : وقت اللقاء والنشر فى الرسالة كنا قد ظفرنا بشىء من التقدم فى الفهم والتقييم الأدبى ، لهذا لم أجد فيما نشر للأستاذ عبد العظيم أية قيمة أو إضافة تدل على كاتب . . فما هو إلا شىء من مذكرات

أو كتب مدرسية فى تاريخ الأدب العربى . .

قد يكون الأستاذ عبد العظيم الآن مربياً فاضلاً ومدرساً نافعاً ، ولكنه بالقياس إلى ما كان فى نظرى أيام الصغر شىء عادى متجرد من الهالة التى كانت تبهرنا .

وهو يذكرنى بالشيخ حافظ . . رجل فى القرية كان طالباً بمدرسة دار العلوم وفصل منها ، ويقال إن سبب فصله أنه قبض مكافأة زميل له ووقع باسمه – اسم الزميل – وحقق معه ، واكتفى بفصله .

كنت أراه كلما مررت بداره الواقعة فى طريق رئيسى جالساً أمام الدار على كرسى ، لابساً قفطاناً أبيض وعلى رأسه طاقية بيضاء ، وبجواره على عتبة الدار منزوية فى الداخل قليلاً زوجته « الحضرية » فإذا بارح منزله وضع على القفطان عباءة زرقاء (كحلى) وعلى رأسه عمامة على طربوش بزر أزرق ، وهو يعيش فى شبه عزله ، شبه متعطل ، على دخل أرض قليلة ورثها عن والده . لنا به قرابة بعيدة ، وأبى يقربه ويرحب بزيارته ومجيئه إلى « المندرة » لأنه « متعلم » وهو يحب المتعلمين . وذلك برغم ما يرى به من التكبر .

ولم يكن الشيخ حافظ يعبأ بى أولا ، ولكن لما ذهبت إلى القاهرة و« جاورت » فى الأزهر بدأ يلتفت إلى عندما أعود فى الإجازات ، كأنه يتشمم رائحة العلم والعالم التى حرم منها . . وكان أبى يستريح إلى جلساتنا فى المندرة . وأسر أنا وأبى بأحاديثه التى تتناول ذكرياته بدار العلوم كما تتناول بعض الشخصيات الكبيرة التى تخرجت من هذه الدار ، وكانوا أساتذة وطلبة معه .

منذ ذلك الحين تولدت فى نفسى رغبة أصبحت على مر الأيام والسنين أملا : أن أدخل دار العلوم وأتخلص بذلك من « وصمة مجاور » التى تؤرقنى . . تولدت هذه الرغبة من شخصية الأستاذ عبد العظيم ومن أحاديث الشيخ حافظ وذكرياته والأعلام الذين يذكر نوادرهم الظريفة مثلا الشيخ حمزة فتح الله كبير مفتشى اللغة العربية بوزارة المعارف ، الذى آل على نفسه ألا يتكلم إلا باللغة العربية الفصحى ، كان مرة راكبا الترام فاسترعى انتباهه ما هو مكتوب على ظهر مسند المقعد أمامه : « إذا أردت النزول اطلب من الكمسارى توقيف القطار » فغضب لأن جواب إذا غير مقترن بالفاء وهو فعل أمر . . فنادى « الكمسارى » وقال له : أين الفاء ؟ فلم يفهم الكمسارى ، فأعاد عليه السؤال ، فهزئ به ووجه إليه عبارات غير لائقة ، فشرع عصاه ليضربه ، ففر من أمامه ، فلاحقه وهو يقول له : أين الفاء يا ابن الفاعلة !

ولما أبلغ نبأ ما حدث إلى « شركة التراموى » أصلحت الخطأ اللغوى فى جميع العربات .

وجرى الحوار الآتى بين الشيخ حمزة فتح الله وبين « مكارى حمير » وهو الرجل الذى كان يؤجر حماره للركاب فى القاهرة كوسيلة من وسائل المواصلات ، قال الشيخ :

– أريد حماراً جمزياً (سريعاً)

– ها . . ها . . عاوز حمار بجزمة !

– جمزى . . أيها الجاهل الغبى . . .

– لا يا سيدنا الشيخ ، مفيش إلا حمار حافى . .

ويظهر أن أمثال هذه النواد كان يضعها محررو المجلات الفكاهية تندراً بالشيخ حمزة فتح الله لالتزامه الحديث بالعربية .

ونعود إلى الطلبة الكبار الذين سكنا معهم أول أمرنا بالقاهرة ، قلت إنهم لم يكونوا طلبة علم بالمعنى الصحيح . ولكن يجب أن نستثنى من هذا الوصف الأستاذ عبد العظيم ، أما الطالبان الآخران فكان كل منهما شخصية فريدة ، لها صفات أخرى غير طلب العلم ، هما أخوان شقيقان لا يشتركان إلا فى البعد البعيد عما جاءا من أجله إلى الأزهر ، أحدهما « محمود » تراه معمماً ، لا بعمامة أزهرية ، وإنما بحزام حريرى ، هو ذلك الذى يتمنطق به المشايخ على القفطان ، ولكن « أولاد البلد » فى القاهرة يتعممون به ، فهو — محمود — « فتوة » ذائع الصيت ، فى الميادين الأزهرية وفى « درب المحروق » .

أما الميادين الأزهرية فهى الجامع الأزهر وما يتفرع منه فى الجوامع التى تجرى فيها الدراسة بالقسم الأولى والقسم الثانوى . كانت هنا وهناك قوتان عظميان : « الصعايدة » و« البحاروة » أى أهل الصعيد وأهل الوجه البحرى وكانت تقوم بينهما المعارك فى أى من جوامع الدراسة حسب موقع المتعاركين ، وأكثر ما تكون فى الجامع الأزهر ليلاً ، حيث يقيم الكثير من الطلاب فى « الأروقة » إقامة دائمة ، ويأتى بعض الذين يسكنون فى منازل بالخارج إلى الجامع فى المساء للاستذكار ، ولا سيما أيام الامتحانات .

ما إن يشتبك طالب صعيدى بآخر بحراوى حتى يتداعى القوم بصفارات « الجاهلية » وتنشب معركة حامية سلاحها « أحمر » إذ كان

الطلبة الصعايدة يلبسون « مراكيب » حمراء وكانوا كلهم فى القاهرة ، فلم يكن قد أنشئ معهد أسيوط . وكانت قوتهم ترجح غالباً على « البحاروة » وكانت تستعمل العصى إلى جانب الأحذية ، ولكن غلب إسم « السلاح الأحمر » على معدات تلك المعارك . . وكل طالب مسلح به بحكم وجوده فى المسجد : إذ يخلعه ويكون دائماً فى يده أو إلى جانبه .

وكان طلاب الفيوم مسالمين فى الغالب ، وفى بعض الأحيان يجنحون إلى مناصرة طلاب الصعيد باعتبارهم من الوجه القبلى . وكان محمود من هؤلاء الجانحين .

وكان ذلك كله يجرى فى أيام السلم . . أى حين لا تكون هناك حركة وطنية ينشب فيها القتال مع الإنجليز أو جنود الشرطة . ففى هذه المعارك الوطنية كان الجميع ينسون عصبياتهم وجاهلياتهم وينضوون تحت لواء واحد وشعار واحد ، هو « نموت وتحيا مصر » و « الاستقلال التام أو الموت الزؤام »

وأما « درب المحروق » فهو الذى كنا نسكن فيه بحى الدرب الأحمر ، وهو يقع قريباً من تلال المقطم وكنا نسميها « الجبل » وكانت تجرى فيها المعارك بين فتوات الحسنية وفتوات الدرب الأحمر ، وكان صاحبنا « محمود » من هؤلاء بحكم السكنى ، وكان مجاله هنا أوسع وأعنف من مجالاته الأزهرية ، فالمعارك تدور فى الجبل بأسلحة فتاكة أبرزها الحجارة والزجاجات الفارغة ، والفريق الغالب هو الذى يستطيع أن يأخذ موقعاً يلقى منه على « الأعداء » بتلك الأسلحة ! .

كان يحدث أن يعود محمود من معارك الجبل وهو يخفى تحت

« اللاسة » جرحاً قد يكون غائراً ، فتحشوه له بالبن أم إسماعيل صاحبة البيت وتدعو الله أن يهديه و « يبطل شقاوة » .

أما معارك الأزهر فكان ما يصيبه فيها لا يدمى ، إنما هو ضرب بالأحذية ، و « السلاح الأحمر » مأمون العاقبة .

والشقيق الأكبر هو « الشيخ أحمد » وتلصق به لفظة « الشيخ » لأنه دائماً يلبس جبة وقفطاناً وعمامة ، وهو على عكس أخيه محمود يعيش عيشة أزهرية خالصة ، من حيث الشكل لا من حيث المضمون ، فهو يهتم جد الاهتمام بتوثيق علاقاته مع علماء الأزهر وذوى النفوذ منهم خاصة ، وبلدهم فى الفيوم يشتهر بالعنب والتين وتأتى منه الأقفاص هدايا إلى المشايخ ، ومن دواعى التقرب إليهم أن يتزيا بزيهم . أما المضمون الأزهرى وهو العلم فلم يكن على وفاق معه ، وبرغم ذلك كان يجتاز الامتحانات بنجاح ، إن لم يكن بتفوق ، فحسبه النقل من جامع إلى جامع ، حتى وصل إلى جامع « برقوق » فى إحدى فرق القسم الثانوى ، وذلك ببركة المشايخ وقد يكون للعنب والتين أيضاً بركة . .

وكذلك لم يكن على وفاق مع العنصر الثانى من المضمون الأزهرى ، وهو « التقوى » فحينما يرى العيون التى ترمى بالسهام من فوق « قصبة البرقع » الذهبية والأغصان من تحتها ملففة بالملاءة . متأودة مياسة ، لا يملك نفسه ولا يكتفى بالمباح من نظرة أولى . . والبركة هنا فى أم إسماعيل ، وعلاقتها بالجميع على ما يرام . .

وبعد حين ارتد الأخوان إلى قريتهما ، وتولى الشيخ أحمد « عمدية القرية » مكان أبيه بعد وفاته .

رأيت بالقاهرة فى الجيل الماضى ما يخفف اللوم عن الجيل الحاضر ، بل إنى أرى من شباب هذه الأيام من هم أنقى ممن رأيت من شباب غابر ، ذكوراً وإناثاً ، إنى أرى الآن شباباً خيراً منى وأنا شاب . . .

على أنى لا أجزم ، فربما يخفى على من الشباب ما لا أمارسه ، ولكن ما كان فى عهد مضى هو واقع لا شك فيه . وهنا يبدولى أن الناس فى كل زمان ومكان هم أنفسهم فى المضمون ، ولا يختلفون إلا فى الشكل



الجراية والمجاورون

لما عرف أبى من سلوك الأخوين اللذين كان قد وضعنا تحت وصايتهما لم يكن أمامه إلا أن يدبر لنا مسكناً مستقلا ، فلجأ إلى « الحاج عبد السلام » الحلاق ، الفيومى الأصل يدبر أمر مسكننا ويأخذ باله منا . . وهى عادة ريفية متأصلة . أن يلجأ الريفى فى القاهرة أو فى أية عاصمة كبيرة أخرى كالإسكندرية إلى « بلدياته » المقيمين بها ، لكى يستعين بهم فى أموره بالمدينة ، وقد ينزل ضيفاً عليهم ، خفيفاً أو ثقيلاً ، حسب الأحوال والعلاقات .

كان دكان الحاج عبد السلام بمثابة ناد يجتمع فيه دون قصد « الزبائن » وأكثرهم من الفيوم يطلبون العلم فى الأزهر أو تخرجوا فيه ونالوا شهادة العالمية ، وكان من هؤلاء شيخان أحدهما « الشيخ عبد ربه مفتاح » العالم المشهور الذى يكتب فى الصحف مقالات إصلاحية فى الأخلاق والاجتماع ، ويعرج على السياسة أحياناً فيناله من الاضطهاد والأذى ما يعلى قدره بين المواطنين . .

والآخر « الشيخ عبد الجواد رمضان » المتخرج حديثاً من الأزهر ، وكان أمثاله يسمون « العلماء الحديثين » وكان معنى هذه التسمية أنهم تعلموا على النظام الحديث ، فدرسوا علوماً عصرية كالحساب والجغرافيا

والطبيعة والكيمياء ، إلى جانب العلوم الإسلامية التقليدية .

ولكن الشيخ عبد الجواد رمضان شخصية متفردة ، ليس كمثله أحد من زملائه أو غيرهم ، شيخ صغير أنيق ، يحلق لحيته وينعمها له الحاج عبد السلام ، كما يرجل شعره بالمشط والفرجون (الفرشاة) وما زلت أتمثله ينهض من على كرسى الحلاقة وهو يضع العمامة الصغيرة « المقلوظة » على رأسه أو على شعره المرجل الذى يبدو من أسفل العمامة كثيفاً أسود فى شبه دائرة فتحتها فوق الجبهة .

كان ذلك الرجل يسترعى انتباهى ، ولعلها أول مرة التى أسمع فيها كلمة « أديب » يوصف بها . . كان « شايف كيفه » كما يقول التعبير العامى : ومعناه – على ما يبدو لى – أنه يعرف حقيقته ويزهو بها ويتصرف على كيفه وهواه . اشتغل بالتدريس فى الأزهر ، وكتب وألف . وعرف فى كل ذلك بالتحرر الفكرى ونقد الأوضاع الأزهرية فى تحفظ وتحرز ، إذ كان يقدر لرجله قبل الخطو موضعها . .

لعله لم يكن يعلم أنى ذلك « المجاور » الصغير القابع على كرسى لا ظهر له فى دكان الحاج عبد السلام الحلاق يستمع إلى مداعباته للأسطى الوفدى ، وكان هو على غير المذهب الوفدى فى السياسة ، يستمع دون أن ينبس بحرف ، وماذا يقول هذا الكائن الصغير الآتى من « وراء الجاموسة » ؟ وماذا يفعل سوى أن يحاول فهم ما يقال ؟ . لعله لم يكن يعلم ذلك حينما كتب إليه وقد أصبح « المجاور » كاتباً فى مجلة « الرسالة » العظيمة الشان . . كتب إليه يناقشه ويبدى رأياً جريئاً فى شأن من شئون الفكر ، ويطلب إليه ألا يكتب اسمه أو يذكر

صفة محددة لشخصيته ، على عادته فى التحرز . . قائلاً : « غضب الله عليك إن فعلت ! »

وكم كان « المجاور » الذى أصبح كاتباً ، والذى هو كاتب هذه الكلمات ، كم كان سعيداً بثناء عليه تضمنته رسالة الأستاذ الذى أعجب به الكاتب فى الصغر وكان فى نظره عظيماً . .

أريد أن أقول إن « التحرز » قتل كثيراً من « أجنة الفكر » فى مجتمعنا ، ولولاه لولدت تلك الأجنة سليمة ونمت وفعلت فعلاً عظيماً . والعجيب أن « التحرز » كثيراً ما كان وما يزال وليد أوهام ! وقد كان أكثره فى الماضى من المحافظة على الوظيفة أما الآن فهو سلم إلى المكاسب . .

* * *

أسكننا الحاج عبد السلام فى حجرة أرضية (مندرة) أجرتها الشهرية عشرون قرشاً ، وضعنا فيها السرير الذى ننام عليه أنا وأخى ، ولم يكن سريراً بالمعنى المعروف ، بل كان ألواحاً من خشب ترص على « حمارين » والحماران هما حمالتان من خشب تستقر على كل منهما أطراف الألواح . ولم يكن فوقه مرتبة مثل التى توضع على السرير ، بل كنا نفترش فوقه « فروتين » من فراء الخراف الكبيرة التى نذبحها فى عيد الأضحى ، أحضرناهما طبعاً من القرية ونوينا أن نأتى بمثليهما فى العام القادم إن شاء الله كى نفرشهما على الحصيرة حول « الطبلية » التى نأكل ونستذكر عليها ، ونشرب عليها الشاى فى بعض الأحيان ، وكنا نقرأ على ضوء مصباح بترولى ذى شريط« نمرة ٥ » رأينا بعد مدة أن ضوءه غير كاف ، فتوكلنا على الله واستبدلنا به مصباحاً أكبر « نمرة ١٠ » ولم يكن ثمة وسائد ، فكان نومنا

صحيًّا دون قصد . . أى أن الرأس لا يرتفع على بقية الجسد . ثم تفتقت الأذهانُ عن وضع « شرح الكفراوى » على « الأجرومية » وهو مجلد ضخم تحت بعض الثياب ، بحيث يكون ذلك بمثابة وسادة . .

وقد وقف فى ركن الحجرة « زير » كبير يتسع لقربة الماء التى يأخذ السقاء ثمناً لها قدره ستة مليمات وتكفينا ثلاثة أيام شرباً ووضوءاً وغسلا للصحون ، أما الاستحمام وغسل الثياب والطهى فنحضر لها قربة خاصة يوم الجمعة ، وقد وضعنا الطست والحلة تحت السرير أو ما يدعى بالسرير . .

وكنا نضيق بغسل الثياب ، وشيئاً فشيئاً تعودنا عليه . . وكله يهون فى سبيل العلم . .

كان ذلك الوضع مما « يحقرنا » فى نظر المواطنين من أهل القاهرة ، فكانت كلمة « مجاورين » تحمل معنى هذا التحقير . . وأى مواطنين هم . . ؟ هذه مثلاً « أم بخاطرها » التى تسكن فى المندرة الكبيرة ذات النافذتين المطلتين على الحارة ، إنها من طبقة أعلى . أليس فى حجرتها سرير كبير ذو أعمدة نحاسية « بوصة ونصف » تدور حولها « دانتلة » بيضاء ناصعة وعلى السرير ملاءة بيضاء ناصعة أيضاً ، وبجوار السرير كنبه « اسطامبولى » ذات وسائد للظهر واستناد الأيدى . . إلخ وفى بعض الأيام تذهب أم بخاطرها إلى المذبح وتشترى بقرشين من أطراف الذبائح وأحشائها ما تملأ به قدراً كبيراً ، ويتعشى منه أبو بخاطرها ، ويبيت راضياً عنها . وفى الصباح ينفحها « حتة بخمسة » أى قطعة نقود ذات خمسة قروش ، قبل أن يذهب إلى محطة السكك الحديدية حيث

يعمل حمالاً ، وهو لا ينسى أن ينفح « بخاطرها » الصغيرة « نكلة » وهى – إن كنت حدثاً لم تعرف النكلة – عملة قريبة العهد قيمتهامليمان .

وكنا نتألم أشد الألم حينما نريد أن نغير المسكن أو حينما نعود من العطلة الصيفية ونبحث عن مسكن ، فنمر بالمنازل المكتوب عليها « للإيجار » وندخل ونصفق ،

– نعم ؟

– عندكم حجرة خالية ؟

– لا نسكن مجاورين !

فنخرج وأقفيتنا كانت تنفع فى تجمير الخبز . . لولا أننا أحضرناه معنا مجمراً جاهزاً يكفينا مدة ، حتى ننتظم فى « الرابعة » ونأخذ « الجراية » .

مهلاً . . سأقول لك عن « الرابعة » :

رواق الفيوم بالجامع الأزهر هو جزء من محيط مستطيل حول صحن الأزهر مخصص لطلبة الفيوم ، يقيم به المعدمون منهم أى الذين ليسوا « أغنياء » مثلنا يسكنون بجوار « أم بخاطرها » مقابل عشرين قرشاً فى الشهر . وكيف يقيم أولئك الطلاب ؟ أرض الرواق مفروشة بالحصير مثل باقى الجامع ، وفى الحائط « دواليب » صغيرة ، أو قل « أصونة » باللغة المفروضة على صغار التلاميذ . وهى على هيئة صناديق البريد التى تثبت فى داخل العمارات الكبيرة ، ولكل طالب واحد منها يضع فيه متاعه . والطالب المقيم فى الرواق أحسن حظًّا من المقيم فى الخارج أمثالنا ، من حيث التمتع بدورة المياه فى الجامع ، وهى أحسن مما يتاح فى المنازل

التى نسكنها ، وفى « ميضة » الجامع « دش » يتزاحم عليه الجميع فى الصيف ، وكنا نقصده مع القاصدين ، ونقف أمامه فى « طابور » لا يختلف عن طابور « المجمعات الاستهلاكية الآن . . إلا أنه غير منظم مثلها !

وكان كشفاً جغرافيًّا عظيماً . . عندما جاءنى أخى وأنهى إلى نبأ هذا الكشف . . فى جامع السيدة فاطمة النبوية القريب منا « دش » وليس عليه زحام . .

وفكرة « الدش » نفسها بالنسبة لنا كانت مذهلة عندما عرفناها أول مرة . . ما على الإنسان إلا أن يخلع ملابسه ويقف تحته ويفتحه فينزل الماء على جسمه برداً وسلاماً . . يا سلام !

مهلا . . سأحدثك عن « الرابعة »

ها نحن أولاء قد استيقظنا مبكرين ، وخرجنا إلى الجامع الأزهر مهطعين . ودلفنا إلى الرواق ، وهذه حلقة كبيرة ينتظم فيها نحو مائة وخمسين طالباً من طلاب الفيوم ، فهى خاصة بهم ، مائة وعشرون منهم « منتسبون » وصلوا إلى درجة الانتساب بالأقدمية . والباقون « منتظرون » .

عدد المنتسبين يساوى عدد أجزاء القرآن الكريم الثلاثين مضروبة فى أربعة ، ولذا سميت « الرابعة » . يوزع على كل منهم جزء مطبوع فى مجلد مستقل لكى يقرأه ويهدى ثوابه إلى « الواقف » ، أى الرجل الغنى الذى أوقف « ريع » هذه الرابعة على هؤلاء الطلاب يأخذونه خبزاً طرياً كل يوم . . لا أذكر عدد أرغفته . والخبز يصرف فى نحو العاشرة صباحاً . بمكان خاص قريب من الجامع الأزهر ، وهذا الخبز هو « الجراية » .

المائة والعشرون طالباً المنتسبون لا يحضرون جميعاً ، بل يتغيب بعضهم ، فيحل محل الغائب أحد المنتظرين بترتيب الأقدمية ، ويحدث أن بعض المنتظرين المتأخرين فى الترتيب لا يخلو له مكان ، فيعود بغير جراية فى هذا اليوم . . وكان ذلك يحدث لى كواحد منهم قبل أن أرتقى إلى الانتساب . . ولك أن تتصور شعور الخيبة !

وكان هناك احتمال آخر للخيبة ، وذلك إذا تأخر الطالب قليلا ، وصدر أمر رئيس الرابعة بالعد . . يصدر هذا الأمر إلى « الشيخ عبد اللطيف » وهو « برميل على رجلين » وله يدان تبرزان من أعلى البرميل ، يوزع بهما الأجزاء على المستحقين ، فإذا صدر إليه أمر العد فإنه يحرك أصبعه المكونة من عقلة واحدة ، ويصوبها إلى الموجودين ، « واحد ، اثنين ، ثلاثة . . إلخ » .

ومعنى « العد » أن الوقت قد انتهى ، ومن جاء بعد البدء فيه فلا جراية له اليوم ، وكانت أصبع الشيخ عبد اللطيف بمثابة مسدس صوب إليه . .

والشيخ عبد اللطيف « يجاور » فى الأزهر منذ دهر لا يعلم مقداره إلا الله . . دون أن يعى شيئاً من علم . . ولكن « الجراية » كانت أطوع له من العلم ، فهو يوزع « الأجزاء فى الصباح المبكر . وعند الضحى يوزع الخبز ويتاجر فيه . . فإن بعض المستحقين يؤثرون بيعه على أن يكلفوا أنفسهم مشقة الذهاب إلى تسلمه ، على أن يحاسبوا الشيخ على ثمنه ، وهو يبيعه بثمن أكبر . وكان جمهور من الفقراء يذهب إلى هناك لشرائه رخيصاً .

ولم تكن تستغرق قراءة الأجزاء فى « الرابعة » إلا دقائق معدودة

تنعدم فيها « الذمم » فلا يقرأ القارئ « المستحق » إلا قليلاً من الجزء ، أى ما تيسر . على حين يظن « الواقف » – فى قبره – أن القرآن كله يقرأ على روحه أربع مرات كل صباح !

وخبز « الجراية » نوعان : عادى وهو الذى يصرف للمستحقين من الطلاب على اختلاف « أروقتهم » ، والنوع الثانى « خاص » وهو يصرف للعلماء المدرسين بالأزهر ، لكل منهم عدد كبير من الأرغفة يكفى له ولأسرته ، أما شيخ الأزهر وهو فى الوقت نفسه شيخ الإسلام فكانت تذهب إلى منزله العامر عربة محملة بالخبز الخاص يجرها جواد ينوء بها .

والخبز الخاص – من حيث الجودة – فى مستوى الخبز الذى يباع فى أسواق القاهرة ، وكان هذا جيداً أبيض من لباب القمح الخالص ، أما خبز الجراية العادى فهو دون ذلك . وأحياناً كنا نبيعه للشيخ عبد اللطيف لنشترى بثمنه أرغفة جيدة من السوق .

كنا نذهب إلى « الرابعة » فى الجامع الأزهر من درب المحروق عن طريق مختصر « خرامى » فى سفح المقطم ، وكنا نعدو عدواً حتى نبلغ المكان قبل أن تتحرك أصبع « البرميل » فتضيع علينا جراية اليوم . . وكان ذلك رياضة بدنية مفيدة ، تعوضنا ما نفتقده فى البرنامج الأزهرى اليومى الذى يخلو تماماً من أية رياضة بدنية . لم تعرف هذه الرياضة إلا عندما انتقلنا إلى القسم الثانوى فى نظام حديث بمدرسة فى الحلمية الجديدة على غرار المدارس الثانوية . وسيأتى الحديث عنها .

وبعد « الرابعة » نغادر الجامع الأزهر إلى جامع إبراهيم أغا فى

السنة الأولى وجامع المردانى فى السنة الثانية وجامع الفكهانى فى الثالثة وجامع المؤيد فى الرابعة . والمسافة بين الجامع الأزهر وهذه الجوامع ليست قصيرة ، والواقع أن مشى المسافات الطويلة كان رياضة نافعة لنا . وكنا نزاوله لمسافات بعيدة فى النزهات أيام الجمع ، وكان الباعث عليه هو الضن بأجرة الترام (ستة مليمات) لتنفع فى أشياء أخرى أهم . وليست الستة المليمات بالمبلغ القليل فنصفها كان يشترى عوداً فارهاً من قصب السكر نشتريه من حقل القصب المقابل « لكازينو بديعة » بعد « كوبرى بديعة » المسمى الآن « كوبرى الجلاء » .

من يماثلنا ؟ ومن هو أسعد منا ؟ فى يد كل منا « عوده » يتمصصه عقلة عقلة وهو عائد على الكوبرى إلى الجزيرة ويرمى بالقشر حيثما اتفق . . ولكن الفرحة لا تتم ، فبعد كوبرى قصر النيل ننظر إلى اليسار حيث ثكنات الجيش الإنجليزى ونرى الوجوه والأجسام الحمراء المنكرة وهى تطل من النوافذ فى تحد ووقاحة . .

– وكان أخى – وهو الأكبر المتصرف – يعطينى صباح كل يوم خمسة مليمات ، « أفك ريقى » بطبق صغير جداً من البليلة ثمنه مليمان ، وكثيراً ما كنت أجد هذا القدر من البليلة قد انزوى فى ركن من معدتى وليس فى بقية الأركان إلا عصافير تزقزق طالبة طعاماً ، فأتوسع بنكلة أخرى لصنف آخر يسيل لعابنا وهو « الكسكسى » الذى يصنعه « المغاربة » فى القاهرة ، ويبقى فى جيبى مليم . . عسى أن تذهب نفسى إلى شيء آخر . . وثمة صنف مرموق وليس سهل المنال : البسبوسة ذات السمن البلدى ، إن الطبق الصغير منها بقرش كامل ، ولكن هذا أخى يخرج من جيبه قرشاً :

– خذ هذا .

– ! !

– أصلى . . صرفت قرش فى حاجة . .

أنت يا أخى صاحب ذمة ولا شك ، أنفقت قرشاً ، وأنا شريكك فى هذه القروش التى تضعها فى محفظتك الجلدية ، ليت لى مثلها ، ولكن ماذا أضع فيها ؟ وهذا القرش الذى تعطينى إياه سيذهب إلى بائع البسبوسة .

كانت هذه « الذمة » ترضى جانباً من نفسى ، وهناك جانب آخر يقبع فيه من يقول لى : معنى هذا أنك لست حر التصرف فى مالك . . نعم فأنا أملك نصف ما فى هذه المحفظة ، ولكنى لا أستطيع أن ألبى رغبة نفسى فى شىء إلا إذا رغبت نفس أخى فى شىء . . ظلت هذه « العقدة » فى نفسى لم تحل إلا عندما تخلف أخى عن طلب العلم وقعد فى القرية ، ولهذا حديث آخر سيأتى فيما بعد .

كان نظام الدراسة الأزهرية فى ذلك الحين أن تبدأ الحصة الأولى فى الساعة السابعة صباحاً حتى منتصف التاسعة ، وتكون هذه الحصة « فقهاً » باعتبار الفقه هو العلم الأساسى للتفقه فى الدين ، وبعد فاصل قصير تأتى الحصة الثانية فى مادة أخرى خفيفة كالإملاء والخط ، وتنتهى فى تمام العاشرة ، ثم نخرج من الجامع فى فسحة نحو ساعتين لتناول الفطور ، كنا نملأ الشارع الذى يقع فيه الجامع . وكانت الصورة التى تتكرر مرتين كل يوم : مرة فى الضحى ، والثانية عند الانصراف آخر النهار فى الرابعة بعد الظهر ، هى منظرنا « الكرنفالى » العجيب فى

ملابسنا المختلفة ، من جلابيب ريفية إلى أخرى قاهرية ، والقلة تلبس جبباً وقفاطين وخاصة أولاد المشايخ ، ومن قلنسويات « طواقى » بعضها فلاحى والآخر قاهرى إلى عمم بعضها على القلنسوة والآخر القليل « طربوش عمة » ومن حذاء جلدى إلى « قبقاب » خشبى « يطرقع » على « أسفلت » الشارع .

كان ذلك المنظر يغرى نوعين من الناس مختلفين أكبر اختلاف : النوع الأول السياح الأجانب ، يغريهم بالتقاط الصور التى هى لا شك فريدة . والنوع الثانى هم الصبية « أولاد البلد » القاهريون ، كان المنظر يغرى هؤلاء العفاريت بالمعاكسة . . يرددون بأعلى أصواتهم فى شبه نشيد يقول واحد :

« يا مين يسيب . . .

ويرد آخر أو آخرون : « المحابيس ! »

أو ينشدون :

« يا مجاور عمتك دابت   مالسلطة والفول النابت »

يقولون ذلك ثم يعدون عدواً إذا كانوا فى مقابلة جمع من المجاورين ، أما إذا انفردوا بواحد أو اثنين فى عطفة أو حارة ظلوا ثابتين وهم يقهقهون

وكثيراً ما كان يقع الاشتباك بين الفريقين . وأذيع أن « فتوات » درب شعلان القريب من جامع إبراهيم أغا يتربصون بالطلاب ليضربوهم انتقاماً لأولاد منهم ضربهم الطلاب . وبرز فى صفوف الطلبة « زعماء » من ذوى الأجسام القوية والقلوب الجريئة يدعون إلى الاستعداد والاستنفار . . ونشبت فى ذلك اليوم معركة وقف لها الحى على رجل ، ولم تستطع الشرطة

فضها إلا بعد حين . وكان « القائد العام » للطلاب فتى أعرابياً من بادية قرب بحيرة قارون ، أبلى فيها بلاء عظيماً ، واستطاع بقيادته وعظيم قوته وجرأته أن يوقع الهزيمة بفتوات درب شعلان ذوى الصيت . . لم يكن بيده أى شيء يضرب به . . بل يضرب « الأعداء » بعضهم ببعض كان يرفع الواحد منهم ويقذف به الآخر . !

ولأن هذا الفتى « بلدينا » من الفيوم فقد شعرنا بالعزة والفخار بين الطلبة ، وقوى جانبنا فى المعارك « الأهلية » أى التى تنشب أحياناً بين أبناء الأقاليم من الطلبة أنفسهم .

ولم نكن – أنا وأخى – ممن يسارعون إلى المعارك أو يشغلون أنفسهم بانتصاراتها وهزائمها ، ولكنا لم نكن نتقاعس إذا اعتدى علينا . كان همنا هو « العلم » وقد لاحظت – بعد – أن الذين كانوا يخوضون المعارك ويتفاخرون بالقوة و « الفتونة » لم يفلحوا فى طلب العلم .

مأذون قريتنا الآن « الشيخ عبد المطلب » كان فى مثل سنى عندما ارسلـه والده معنـا إلى الأزهر فى السنـة التالية للحاقى بالأزهـر كان يميل إلى « الفتونة » ولم تكن شهيته للعلم مفتوحة ، أول ما جاء إلى القاهرة استصحبته لنشترى ما يلزم للعشاء ، وعرجنا على « دكان الطرشى » ودفعنا « السلطانية » إلى البائع ، فوضع فيها كالمعتاد قدراً من الجرجير كفرش لبقية « المخللات » وكانت أعواد الجرجير ظاهرة غالبة على قطع اللفت والخيار والفلفل . إلخ . والجرجير غير معروف فى قريتنا ، فما كان من صاحبى إلا أن صاح مستنكراً :

« آدا . آدا . . أدى ! »

وهذا تعبير فيومى إذا ترجم إلى العامية القاهرية هكذا : « إيه ده . إيه ده . . إيه دا . . » أو إلى العربية الفصيحة : « ما هذا . . ما هذا . . ما هذا . . » لم تؤد الترجمة ما فى التعبير من استنكار شديد إلى جانب ما فيها من استفهام .

قالها بصوت عال كأنه فى « الغيط » وكاد يشتبك مع بائع الطرشى ظنًا منه أنه يستغفلنا ويضع الحشيش مع المخللات . . لولا أن التفتت إلينا الأنظار المتفرجة ، وخاصة لما أردف :

« والله العظيم ، جاموستنا ما ترضى تاكل ده ! »

وعلت القهقهات التى قلبت الموقف من الجد « الدرامى » إلى مهزلة ضاحكة . .

ولم يمكث الشيخ الصغير معنا طويلاً . والعلم فى الأزهر « طارد » لمن لا يألفه ، فكما طرد الشيخ عبد اللطيف « البرميل » إلى الجراية . . طرد الشيخ عبد المطلب إلى « الفتونة » إذ تعلق بذلك الفتى الأعرابى الذى قاد الحملة على فتوات درب شعلان وأوقع بهم الهزيمة ، ولزمه كتلميذ أو « صبى فتوة » وتركنا وأقام معه ، حتى عاد كل منهم إلى قاعدته فى الفيوم .

كنا أقوياء الأجسام برغم حياتنا غير الصحية فى القاهرة وبرغم « البق » الذى يأكل من دمنا فى الليل ويسرح على الجدران أمامنا فى النهار. كنا نأكل أكلتين رئيسيتين فى اليوم ، الأولى فى الضحى وقوامها الفول المدمس الدائم يوميًا ، وأقول إن هذا الصنف من الطعام برغم استهزائنا به واقترانه بالفقر يعد عنصراً مهمًا فى تغذيتنا ، لا عيب فيه إلا

أنه رخيص ودائم إلى درجة الإملال . وهو والطعمية التى كانت الصنف الرئيسى فى الوجبة اليومية الثانية حوالى الساعة الخامسة مساء ، يعدان « موادأزهرية » ،تكاد تكون « مقررة » . قلنا مرة لشيخ ظريف من شيوخنا : لماذا لا تكتب تاريخ حياتك يا سيدنا الشيخ ؟ وكنا قد تقدمنا بعض الشىء عندما وصلنا إلى مرحلة التعليم الثانوى فى نظام حديث وسمعنا عن ناس فى أوربا يكتبون تاريـخ حياتهم . . أجاب الشيـخ الظريف ساخرا : « تاريخ حياتى . . ؟ » حياتى يا مولانا كلها « مدمس فى مدمس ! »

كنت أنا وأخى نتعشى طعمية وسلطة بأربعة مليمات ، فإذا أردنا « البحبحة » أكلنا صنفاً أو اثنين من الجبنة والزيتون والحلاوة الطحينية ، وكان هذا يكلفنا مليمات زائدة فإذا رغبنا فى مزيد من البحبحة ، تعشينا سمكاً مقلياً بقرش « صاغ » وقلما كان يحدث ذلك .

أما اللحم والطبيخ فكان موعدهما يوم الجمعة ، ولم نكن نعرف غير طبخ البطاطس . على أن أيام الجمع التى فيها تكون النقود قد تأخر وصولها بالبريد أو إرسالها من البلد كانت تخلو من الطبيخ ، وأذكر يوم جمعة لم نتناول فيه أى شىء ، وذهبنا إلى الجامع الأزهر ، وصلينا فيه الجمعة على مسغبة ، ودعونا الله أن تنتهى هذه المسغبة ، ثم وضع كل منا حذاءه كمخدة تحت رأسه وحاول النوم . . وبعد ذلك كلما سمعت القولة الذائعة : « هو حد بيبات من غير عشا . . . ؟ » أقول فى نفسى : « نعم ومن غير غدا » .

كانِ التجاؤنا إلى الجامع الأزهر فى ذلك اليوم نفسيًّا . . فلم نستطع البقاء فى حيز الحجرة الضيق وهى خالية من طعام ، فغدونا إلى الجامع

الفسيح نتلهى مع الناس فى الصلاة وفى الوضوء ونشرب بعض الماء من الحنفية ثم نتمدد ونسرح الطرف فى صحن الجامع الفسيح العتيد التليد . . ولم تطاوعنا النفس على أن نسأل أحداً قرضاً . .

لما قعد أخى فى البلد وصرت وحدى فى القاهرة ، كانت النقود تتأخر عنى كثيراً ، فكتبت إلى أخى مرة أقول له : « اذكر يوم الجمعة فى الأزهر » .

وكان يجب أن نصاب بالروماتيزم ، من رطوبة الحجرات التى كنا نسكن بها ، وكانت فى أغلب الأحيان « منادر » أرضية « تنشع » الرطوبة فى أسفل جدرانها و « يلسع بلاطها » وكذلك بلاط الجوامع الذى لا يقينا منه إلا الحصير ، وما هو بواق . . وكان بعض الطلاب يفترش فروة فوق الحصير – كان يجب أن نصاب بالروماتيزم ولكن التقشف الذى نشأنا فيه جعل أجسامنا أقدر على الاحتمال ، وذلك على عكس ما حدث لطالب مرفه من أسرة غنية كبيرة فى قرية بالفيوم كانت لنا علاقة مصاهرة بها ، كانت تلك القرية على عكس قريتنا ، إذ كانت تحكمها هذه الأسرة حكماً إقطاعياً ، وليس هناك أسرة أخرى تستطيع أن تنافسها أو تقف فى وجهها ، وكان كبيرها « باشا » وفيها دائماً عضو بالبرلمان ، إذا كان البرلمان قائماً . وكان معظم أبناء الأسرة يتعلمون فى المدارس المدنية ، ما عدا « أحمد » الطالب الذى كان والده متدينا وأراد لابنه أن يكون من علماء الأزهر . ولكن « الروماتيزم » الذى زحف إليه من خلال حصير الجوامع الأزهرية أقعده فى قصرهم بالقرية بعد سنوات قضاها معنا . ثم لم تمهله المنية بعد ذلك .

كان أحمد زميلى فى الدراسة ، وكان يسعى إلى صداقتى ، وأقول « كان يسعى » لأنى كنت أجفل من هذه الصداقة غير المتكافئة أيام كنا فى فرقة دراسية واحدة ، ولكنه كان فى فصل وأنا فى فصل آخر إذ كانت الفصول حسب المذاهب الفقهية ، وكان هو مالكيًا طبقاً للمذهب المالكى الذى يتبعه الناس فى قرانا بالفيوم . وكنت انا حنفيًا ، إذ أراد أبى أن أتمذهب بمذهب أبى حنيفة الذى يتيح للخريجين فيه أن يلوا مناصب القضاء الشرعى . ومنصب مفتى الديار المصرية ، عسى أن « أفلح » وإلى هذا المنصب ، والأمل الآخر أن « يفلح » أخى المالكى المذهب ويصير شيخاً للأزهر ، فتجمع المجد الدينى من طرفيه . . هكذا كانت أمنية أبى التى لم تتحقق . وكنت أنا – فيما بعد – أمثل « خيبة الأمل » بالنسبة لهذا الوالد . أقل شىء فى هذه الخيبة أنى صرت على عكس الصورة التى رسمها لى ، فأصبحت كالعفريت فى البدلة الإفرنجية ، وأعرضت عن الجبة والقفطان والمركوب . .

فى السنة الثانية من حياتى الأزهرية تكرر تفوقى فى امتحان النقل ، إذ جاء ترتيبى الأول ، وكان الثانى فى السنة الأولى ، ففرح والدى بى فرحاً عظيماً . وبالصدفة باع القطن فى ذلك العام بثمن غال ، فأخذنى إلى مدينة الفيوم وفصل لى جبة وقفطاناً واشترى لى « مركوباً » وقال لى : هذا هو زى العلماء اللائق لك . . لم أسر بهذا الزى ولكنى سكت وكتمت غيظى من « المركوب » . .

آه من ذلك « المركوب » ! وواشوقاه إلى « جزمة » نصف رباط ينسق رباطها بحيث يكون ذا طرفين مزدوجين على هيئة « الفيونكا » ! !

لا أنسى ليلة ليلاء ألح علىّ فيها « أحمد » أن أصحبه إلى قهوة بباب الخلق (ميدان أحمد ماهر الآن) لكى نلعب طاولة . . وبطبيعة الحال التى لا تسر والتى كانت تدعونى إلى الإجفال - كان هو الذى سيدفع « الحساب » وكان إلحاحه مع الرجاء بإرسال خادمه مرتين ، والخادم شاب فى نحو الخامسة والعشرين من عمره ، نشأ فى قصر الوالد نشأة ليست ريفية خالصة ، بل اكتسب من أهل القصر وأقاربهم وزوارهم ومن تردده معهم إلى القاهرة اكتسب من ذلك خبرة ومعارف حضارية وكان لسانه سليطاً فى ظرف مزيج من الريفية والحضارية ، يسلق به من يستريح سادته إلى سلقهم وإن تظاهروا بزجره مقهقهين ! وكان يحمل الكتب والفروة لسيده الصغير ، من المنزل إلى الجامع وبالعكس ، وكان يلازمه فى غدواته وروحاته ، عملاً بتوصية « البيه الكبير » .

لم يسعنى إزاء الرجاء والإلحاح إلا أن ألبى دعوة « أحمد » للذهاب إلى القهوة والتسلى بلعب الطاولة .

ورأيت أن « أتقمش » فى هذه « الفسحة » فلبست الجبة والقفطان ، وكذلك « المركوب » الذى لا بديل له من « جزمة » لائقة . .

شىء صغير جدًّا هو الذى أفسد على متعة هذه « الفسحة » وعكر مزاجى حتى جعل الولد المنشأ فى الحلية يغلبنى فى الطاولة .

ذلك هو قطع فى الجورب على كعب القدم يظهر أعلى حرف « المركوب » ويزيد ظهوره انفلات الكعب من « المركوب » فى أثناء المشى ، إذ كان ذلك « المركوب » ، اللعين سوقيًّا . . أى ليس « مفصلاً عمولة » فتراخى الجزء الخلفى منه المحشو بالورق « الكرتون » .

لو كنت أنا وأحمد وحدنا لهان الأمر ، ولعله كان يخفى ، ولكن الخادم الذى أعرف سلاطة لسانه ودقة ملاحظته يسير خلفنا . . كنت أتعلل بأى شىء كى أقف فى الطريق منزوياً عنهما وأبل أصابعى بريقى كى ألصق حرف « المركوب » على الجزء العارى من الكعب ، فيسمك قليلاً ثم يجف ، فأعاود البل واللصق . .

لم يهدأ لى بال فى تلك الليلة ، حتى بعد أن افترقنا ، وحاولت النوم ، فلم يواتنى إلا بعد كثير . .

ويوم أن ثرت على المركوب عندما بلى ، وأبيت أن أكرره ، وأصررت على أن ألبس « جزمة » أخذت ثمنها وذهبت وحدى واشتريتها على مزاجى من شارع الموسكى وخرجت من المحل لابساً إياها ، يغلب الزهو بها على الخجل من المركوب البالى الذى لم أر من اللائق ولم يكن من الممكن أن أتركه فى المحل ، فأخذته فى يدى ورميته فى أقرب مكان صالح لرمى القمامة . .

يوم ذاك تذكرت تلك الليلة الليلاء ، وهتفت فى نفسى : أين أحمد ؟ وجاءنى الجواب من الأعماق : واسفاه . . لقد أقعده الروماتيزم فى البلد . وأسفاه عليه . ويا فرحتاه بحذائى الجديد « النصف رباط » .



فاطمة والحلاوة والنحو

كنت مشتاقاً إلى العلم ، قضيت أربعة عشر عاماً من عمرى ولا أرانى تعلمت بعد . لم أتلق شيئاً يقنعنى بأنى أتعلم ، ما عدا الخطوات الأولى التى علمنى فيها أبى الكتابة ودربنى على صحة رسم الكلمات بالإملاء ، كما علمه « أحمد أفندى » الذى سبق حديث قدومه إلى قريتنا ورحيله عنها بعد أن أضاء فيها نور العلم والمعرفة .

ثم كانت سنوات « الكتاب » عذاب الطفولة المسكينة ، إلى خلوها من التعليم الصحيح . وما إن جئت إلى الأزهر حتى وجدته وِرداً صافياً للعلم . سأجده بعد المرحلة الأولى غير صاف أو ليس هو المنشود ، إذ تفتح عقلى وميولى على آفاق جديدة أخذت فى ارتيادها ونشأ الصراع بينها وبين القديم .

على أية حال لندع هذا إلى حينه ، فأنا الآن - فى المرحلة الأزهرية الأولى - قانع بما أتيح لى ، وهو خير مما كنت فيه ولا شك ، لا يكدر صفوه إلا ما فى خارج المجال الدراسى من شظف العيش ومن شعور بالمهانة أحياناً إزاء المجتمع الجاهل الذى يزدرى فينا أموراً ثلاثة ، نعتز باثنين منها ، ولا حيلة لنا فى الثالث .

هؤلاء القاهريون يسخرون من « ريفيتنا » وهى الأمر الأول ، ومن

« أزهريتنا » وهى الثانى ، ونحن معتزون بالصفتين ، فلنا فى قرانا قدر ، وفى دراستنا عزاء . أما الفقر ، وهو الأمر الثالث ، فهو كما قلت لا حيلة لنا فيه ، ولنا أمل نرجو أن يتحقق بعد سنين ستطول ، نعم ، ولكن بعدها سنحصل على شهادة « العالمية » ونأخذ مرتبات كبيرة ، ونتخذ مساكن لائقة ، ويحترمنا هؤلاء الذين يحتقروننا ، ويقبلون أيدينا ، ويحملون أحذيتنا فى المساجد . . وإذا أردنا أن نتزوج من بناتهم عَدُّوا مصاهرتنا شرفاً لهم . . ستسبق أسماءنا عبارة « حضرة صاحب الفضيلة » وإذا خوطبنا قيل لنا : فضيلتكم . .

كذلك كان ، فالمجاور بمجرد نيله شهادة « العالمية » يصبح غير مجاور . . يصبح عالماً جليلا له شأن مختلف جدًّا عما كان قبلاً ، لأنه أخذ « الدرجة » كما كانوا يعبرون . وهو أمر يبدو غريباً ، ولعل تفسيره فى انتفاء أسباب مثل السذاجة الريفية وزراية الملابس ، ثم الفقر الذى قتلته الوظيفة . وتلك أشياء كانت ولا تزال منظوراً إليها بالنظر الشذر فى مجتمع كانت تشغله تطلعات « برجوازية » غير علمانية .

* * *

كان نهارنا فى الجامع الذى نتلقى فيه الدروس ، وليلنا أو الجزء الأول منه فى الجامع الأزهر . فى الأول نشاط لا يفتر إلا قليلاً : بعد تناول وجبة الفطور الثقيلة ، إذ كان الفول « يكبس » علينا ، فقد أكثرنا منه ، وربما مزجناه « بفحل بصل » وفى هذه الحالة نلجأ إلى الشاى ، حتى نسرع منتبهين إلى الحصة التالية لفسحة الفطور التى تبدأ عقب صلاة الظهر ، وكانت هذه الحصة مخصصة للنحو ، ولأننى أحب النحو

وأحب أن أتلقاه صافى الذهن أعلنت فى السنة الثانية الثورة على الفول والبصل فى فترة الضحى . .

– وماذا تأكل ؟

هكذا سألنى أخى . أجبت :

– أنا حر . أريد بدل الفول « نكلة » .

– كيف ؟

– ألسنا نأكل فولاً بأربعة مليمات ؟

– بلى .

– خلاص . . أنت تأكل فولاً بمليمين وأنا آخذ مليمين أشترى بهما ما أشاء .

حقًّا . كانت الملاليم فى ذلك الوقت لها قيمة شرائية ، ولكن العسر فى امتلاكنا إياها ملحوظ . كان أبى يرسل لنا – أنا وأخى – جنيهين فى مطلع كل شهر عربى . وعلينا ، أو على أخى باعتباره المتصرف ، أن يدبر بهما كل ما نحتاج إليه . وكان يحدث كثيراً أن يتأخر إرسالهما ، فنعيش أياماً فى الانتظار . . نسأل ساعى البريد : هل من جواب ؟ ولا جواب . . ونخجل من الاقتراض ، أولا نجد من يقرضنا . . ويوم يأتى « الجواب » وفى داخله « الحوالة » يكون يوم الفرح . .

* * *

قصدت دكان البقال القريب ، واشتريت منه حلاوة طحينية بالمليمين ، وكان قدراً لا بأس به ، واستمرأت هذه الحلاوة مؤتدمة بالخبز الطرى . وزاد من سرورى بهذا النظام الجديد أن كنت أجد فى

الدكان « فاطمة » بنت البقال تحل محل أبيها . أين أبوها ؟ أهو مريض ؟ هل يذهب إلى أعمال أخرى ؟ لا يهم . . المهم عندى أن أجد هذه البنت اللطيفة التى كانت فى عمر البدر - ١٤ - أو تصغره بقليل . . وكنت أجد منها رقة تأسرنى . . لم تكن هذه الصورة : بنت تبيع فى دكان - متكررة فى ذلك الزمان ، كأنها كانت من أجل إسعادى . . كنت أردد فى نفسى : إنى أشترى الحلاوة من الحلاوة ! وتظل الحلاوة فى مذاقى وأنا أتلقى درس النحو المحبوب . .

حسبى من الحظ السعيد فى يومى أن أخرج مع « المحابيس » - كما كان غلمان الحوارى يطلقون علينا - من الجامع فى الضحى ، وأهرع إلى ذلك الدكان ، وأرنو إلى فاطمة ، وأطيل الوقوف متظاهراً بأنى أنتظر حتى تفرغ من زبائن جاءوا قبلى ، ثم أمد لها يدى بالنكلة أو بالقرش التعريفة وآخذ الثلاثة المليمات الباقية ، وهذا أحسن لإطالة الإعطاء والأخذ . . وأرقب اليد البضة الرخصة وهى تقطع الحلاوة بالسكين وتلف لى ما قطعت فى ورقة من كراسة تلميذ باعها للبقال . . إلى آخر ما أود أن أطيل بسرده وأخشى أن تمل أنت منه ، لأنك تراه أمراً عادياً . ولم يكن أمراً عادياً ، كان إذ ذاك شيئاً عظيماً !

ويوم لا أجد فاطمة فى الدكان ، إذ يكون أبوها هناك ، أتذكر قول امرئ القيس :

أفاطم ، مهلاً بعض هذا التدلل وإن كنت قد أزمعت صرمى فأجملى

وأترنم بهذا البيت متوجعاً متولهاً متخيلاً أنها « تزمع صرمى » ثم أضحك فى نفسى عندما أتذكر شيخ النحو وشرحه كلمة « صرمى »

بأنها لا تعنى « الضرب بالصرمة ! »

لنترك هذا كى نعود إلى البرنامج اليومى الذى كنت أسير عليه فى السنوات الأولى بالأزهر .

هأنذا – بعد أن تناولت الفطور فى الضحى – خفيف البطن ، نشيط الذهن ، سعيداً بذكرى اللحظة السابقة ، فما إن أسمع : « سودانى . . نانى . . نانى . . » حتى أعلم أن الساعة قد بلغت الثانية عشرة ظهراً أو قاربتها ، فليس عندى ساعة وهذا الرجل الصعيدى المتقدم فى السن الذى يحمل على كتفه « قفة » الفول السودانى وينادى على بضاعته ذلك النداء ، يمر فى هذا الموعد كل يوم لا يخلفه . . وعندئذ أهرع إلى الجامع لتلقى درس النحو الأثير . كنت أصغى وأفهم ، فإن سألت الشيخ عن شىء غمض علىّ أجابنى ببشاشة وعطف ، إذ يشعر بصدقى وإخلاصى ومحبتى للعلم . وذلك على خلاف ما يقابل به طلاباً آخرين من توبيخ وسباب قد يشمل الأم والأب والبلد الذى قذفهم . . لأنه يشعر أنهم « يستتشكلون عليه » ويقصدون إظهار براعتهم ، وكثيراً ما كانوا يظهرون غباءهم . وهم يعللون ذلك بأنهم أفحموا الشيخ فلم يستطع إجابتهم فانهال عليهم بالشتائم ، وقد ينهال الشيخ بالحذاء ، وقد يذهب الحذاء بعيداً فيسرع طالب مؤدب أو الطالب المضروب نفسه . . فيتناول الحذاء ويعيده إلى الشيخ !

وكان من عادتنا – وهى عادة دراسية مفيدة قرأنا فيما بعد أنها متبعة فى جامعات أوربية – أن نقرأ الدرس المقرر قبل تلقيه عن الشيخ ، ونحاول أن نفهمه ، وكان البعض يبحث فى الحواشى عن مسائل معقدة

واعتراضات يعترض بها الشيخ فى الدرس رغبة فى الظهور أو كما نقول الآن : استعراضاً للعضلات . . ولم أكن من هؤلاء . وكان الشيخ المتمكن ينظر ساخراً إلى الواحد منهم ويقول : نعم ، ورد هذا فى حاشية كذا وقاله فلان . كأنه يقول له : ليس هذا من عندك ولا هو من بنات فكرك وأنت تعرف جواب سؤالك لأنه ذكر هناك ولكنك تريد إظهار قلة أدبك . .

كان الأساتذة يعاملون كل طالب بما يناسبه ، لا يحمقون إلا فيما يثير الحماقة ، فإن ثارت فلا حدود لها . . وعلى الطالب أن يخضع ويتقبل ، عملاً بالقاعدة التى يهتم المشايخ بإرسائها فى نفوس الطلاب ، وهى أن العلم كالماء الذى يروى الأراضى المنخفضة ولا يصعد إلى العالية .

ومع ذلك فكان الحال لا يخلو من توجيه العبارات اللطيفة لأولاد المشايخ من الطلاب ، أى أولاد الزملاء ، كأن يقول الأستاذ لأحدهم . « فاهم يا ابن الشيخ ؟ سلم لى على أبيك يا ولد ! على أن هذا لم يكن يمنع الأستاذ إن رأى أن الولد ليس أهلاً للإكرام أن يقول له : ملعون أبوك الشيخ ! وكان معنا ولد من هذا النوع المدلل ، وكان يوصف بأنه « دلوعة » ويعلل هذا الوصف بأن أم الولد مصرية . . أى قاهرية .

على أن أكثر علماء الأزهر – يلحقون أبناءهم بالمدارس المدنية ، والقلة تؤثر تعليمهم فى الأزهر ، وكان معنا من هؤلاء « كامل الشناوى » الذى صار فيما بعد شاعراً وصحفياً كبيراً . وكانت تلك الظاهرة منتقدة من قبل أنصار التعليم الدينى ، ولعلها ترجع إلى التطلع « البرجوازى » ، فأولئك العلماء كانوا يرجون لأولادهم مستقبلاً فى الوظائف والمناصب الكبيرة التى تؤهل لها المدارس والمعاهد العليا ، وخاصة مدرسة الحقوق

أو كلية الحقوق التى يتخرج فيها القضاة والمحامون الذين إذا اشتغلوا بالسياسة صاروا وزراء ، والوزراء فى ذلك الزمان كانوا ملوكاً غير متوجين . . وبرغم ذلك كان يمكن لأى كاتب فى صحيفة معارضة أن يمسك بقلمه الوزير أو رئيس الوزراء و « يمرمط » به الأرض . . وكان ذلك شيئاً باهراً . وكلمة الحق تنطق بأن الأحزاب السياسية فى ذلك العهد هى التى حملت لواء الحرية بحيث لم ينج حاكم مستبد أو منحرف من سياط الأقلام فى الصحف والألسنة فى الخطب والمرافعات فى القضايا السياسية . كانت أرواحنا ومشاعرنا تتغذى بذلك الكلام ، وقد تسلل منه إلى أعماقنا عشق المواقف العظيمة ، وإلى ميولنا حب التعبير الجميل والتطلع إلى محاكاته .

ثم نعود إلى « أولاد المشايخ » فأذكر شيخاً ابن شيخ ، يمثل فى ذاكرتى . هو الشيخ البجرمى » رجل لطيف ظريف عالم يجذب الطلاب بحسن أدائه للدرس . كان من أولاد المشايخ الذين التحقوا بالمدارس ، وقالوا إنه بعد أن أتم مرحلة التعليم الابتدائى وحصل على الشهادة الإبتدائية ، وكانت شهادة « معتبرة » يجيد حاملها اللغة الإنجليزية . . رغب فى التعلم بالأزهر ، فأجابه والده – الشيخ البجرمى الكبير – إلى رغبته . وها هو ذا شيخ جليل تكبر حلقة درسه وتتسع رقعتها فى الجامع ، حقًّا كانت أعداد الطلاب فى الفصول متساوية تقريباً ، وكان كل طالب « منتسب » مقيداً بفصله ، ولكن كان هناك طلبة « متطوعون » يحضرون ما شاءوا من الدروس ، فكانوا يختارون من يروق لهم من المشايخ فيحضرون درسه . وكان الشيخ البجرمى مركز جاذبية . . كان يدرس

النحو ، وكنت أصغى إليه معرضاً بسمعى عن شيخنا ، فالفصول لا يفصل بينها إلا فراغ . وأتيحت لى الفرصة عدة مرات بتغيب شيخنا فى النحو وضم فصلنا إلى فصل الشيخ البجرمى ، وكان هذا الضم سهلاً فحصيرة المسجد واسعة . . وكان وضع الفصول بهذا الشكل يجعل أصوات المشايخ يختلط بعضها ببعض ، حتى كان يتضايق أحدهم من الآخر إذا كان صوت الآخر عالياً .

كنت أحسد أو أغبط – كما تعلمنا من مشايخنا أن المؤمن يغبط ولا يحسد – الطلبة المتطوعين – وكان منهم أغراب غير مصريين – على حريتهم فى اختيار الأساتذة ، فقد كان هؤلاء يتفاوتون تفاوتاً كبيراً من حيث المستوى العلمى ومن حيث الأداء التعليمى . وأذكر مشايخ لم نكن نفهم عنهم شيئاً ، وخاصة فى تدريس المنطق والتوحيد ، فهذان العلمان من تفرعات الفلسفة المعقدة ، وأرجح أن المدرسين أنفسهم لم يكونوا فاهمين ما يدرسونه . كان مدرس المنطق يظل يقول لنا أياماً متوالية : البغاشة سمن ودقيق وسكر ، فالبغاشة كل ، وكل من السمن والدقيق والسكر جزء . ويعيد هذا ويكرره ، حتى سميناه « الشيخ بغاشة » . وبذلك كان يتجنب المسائل العويصة فى المنطق . أما موقفنا فى الامتحان فأمره سهل ، ما علينا إلا أن « نصم » الكتاب المقرر – وهو « إيساغوجى » – دون فهم ونفرغه فى الامتحان .

وكان مدرس التوحيد عند ما يرى السبات قد ران علينا . . يرفع صوته كى يوقظنا قائلاً : الوجود عين ال . . فنجيبه فى صوت جماعى : موجود ! فنكمل العبارة التى يلقيها علينا : « الوجود عين الموجود دون أى فهم

أما مدرس التفسير الذى لا يأتى بشىءمن عنده فى تفسير كلام الله ، فإنه فى تفسير قوله تعالى « إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين » يصنع هكذا :

« إن الله إصطفى ، اصطفى مين يا وله ؟ اصطفى أبوك ؟ لأ ، اصطفى أمك ؟ لأ ، قال لك اصطفى آدم . آدم وحده ولا معاه حد تانى ؟ قال لك ونوحاً . . إلخ » والواقع أن هذه الطريقة كانت تسترعى أسماعنا وانتباهنا إلى الشيخ ، ولكن لا نصل معه إلى شىء.

وكان معظم المشايخ يعرفوننى لما يلحظونه من إتجاهى إليهم بالإصغاء التام . وكانت مكافأتى على ذلك أن يقول لى الشيخ بعد الشرح : « فاهم يا واد يا فيومى ؟ جتك داهية فى بلدك ! »

* * *

كان ليلنا أو الشطر الأول منه فى الجامع الأزهر كما قلت ، وكنا نشعر نحو الجامع الأزهر أنه الأم الرؤوم ، التى تأخذنا فى أحضانها فى الوقت المناسب . وكان بنا شوق إلى أن نجتاز القسم الأولى ثم الثانوى فى الجوامع الفرعية فى حى الدرب الأحمر وحى الجمالية – نجتاز ثمانى سنين إذا كان النجاح كل سنة إلى القسم العالى بالجامع الأم ، ولكن هذا الشوق لم يصل بنا إلى غايته ، فقد تغير النظام إلى نظام آخر عقب حصولى على الشهادة الأولية ، وجد شوق آخر إلى غاية أخرى لا تزال بعيدة .

فلنلزم الآن هذا القريب : ها نحن أولاء قد فرغنا من تناول الوجبة الثانية فى المساء ، فهيا بنا إلى « الأم » . سنبدأ هناك بالتوضوء استعداداً

لصلاة المغرب ، فقد أوشك ماء « الزير » بالمسكن أن ينفد ، أو يجب أن نبقي عليه ، حتى تكفينا قربة الماء أكبر مدة ممكنة ، فثمنها ستة مليمات . . نرى أحياناً بيوتاً فيها أنابيب تحمل الماء إلى سكانها وتصبه على أيديهم حنفيات ، ويسكن بها بعض الطلبة ذوى اليسار . وقد سكناها بعد ، إذ اشتركنا مع زملاء فى شقة بها ماء وليس بها نور ، أجرتها ثمانون قرشاً فى الشهر ، وكسرنا « الزير »

ونحن الآن قبل ذلك ، نبرح المسكن وندع « الزير سالم » وعند الأم الرؤوم دورة مياه (ميضة) عظيمة « نبلبط » فيها كما نشاء بدون حساب . .

وندع كذلك المصباح البترولى ذا الشريط « نمره ١٠ » الذى حل محل القديم « نمره ٥ » وضوؤه مع ارتفاع درجته خافت بالنسبة إلى نور الأزهر الساطع الذى نستطيع أن نقرأ فيه بوضوح الملازم الصفراء من الكتب المقررة فى الفقه والنحو وبقية العلوم الأزهرية ، ومع هذا نقتصد ثمن « الجاز » كى نوجهه وجهة أخرى . . نحو كوب من الشاى ثمنه « نكلة » نأخذه من البائع الذى يصنعه ويمر به على الطلاب فى الجامع فى أكواب مذهبة الحافة والنقوش ، لها « خصر » نحيل يتوسط القاعدة والحافة الواسعتين ، ومعها أكواب أخرى أصغر غير مذهبة ثمنها مليم واحد . وليلة أن نشرب الشاى تنشط أذهاننا ويذهب عنا إغراء النوم ونحصل كثيراً من الدروس حفظاً وفهماً أو حفظاً فقط . . كان علينا أن نحفظ « المتن » وهو الكتاب الصغير المركز (بتشديد الكاف) وهو المحور الذى يدور عليه الشرح ، ثم الحاشية التى تعلق على الشرح ،

ونحن ننظر فى الحواشى نظرات خاطفة ، لا نمعن فيها كثيراً ، وهناك أيضاً التقارير التى تعمل على الحواشى ، وهى بعيدة المنال منا ونحن فى البداية . بعض الطلبة كانوا يجشمون أنفسهم الغوص فى الحواشى والتقارير ، ثم لا يخرجون منها إلا بالمماحكات اللفظية ولا يحصلون منها إلا القدرة على الجدل العقيم . . الجدل من أجل الجدل ! قال لى مرة أحدهم فى مرحلة لاحقة : قل ما عندك فإنى سأسفه رأيك ! وذلك قبل أن يعرف ما هو رأيى . .

كانت ألفية ابن مالك أسهل المتون حفظاً ، لأنها منظومة نظماً مسبوكاً ، وكانت مقررة فى السنة الرابعة الأولية مع شرحها لمؤلفه « ابن عقيل » وكنا نرفع أصواتنا مترنمين بأبياتها بطريقة خاصة . وكان هناك متن اسمه « الولدية » لعله فى التوحيد ، وسمى كذلك لأن المؤلف قال فى المقدمة : « عملتها لك يا ولد » .

كنا نبدأ هكذا : قال المؤلف رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه ، آمين . . وذلك اقتداء بالمشايخ المدرسين فى ابتدائهم للدرس ، فالشيخ بعد أن يجلس متربعاً على الكرسى الكبير ، وفى الغالب يخرج علبة النشوق ويأخذ منها « تنشيقة » تسخن « الطاسة » — بعد ذلك يمسك بالملزمة الصفراء ويبدأ بالترحم على المؤلف والدعاء بنفع علمه ، ثم يقرأ ويشرح ، القراءة بنغمة ، والشرح بأخرى . . ولا يتوقف إلا إذا « حبك كيف النشوق » أو وجه إليه سؤال من أحد الطلبة ، وأسئلة الطلبة كانت مجالاً لطرائف التعليقات أو الشتائم من جانب الشيخ ، إذ كان كثير من الأسئلة يدل على الغباء وعدم استيعاب الدرس ، أو على سذاجة مضحكة ،

أو على رغبة فى الظهور من الذين غاصوا فى بحور الحواشى وتصيدوا منها الاعتراضات . ومن تعليقات المشايخ التى كانت تتكرر عندما يسأل طالب فى نقطة سبقت فى الدرس – فيحكون حكاية الرجل الذى جلس طول الليل يستمع إلى شاعر الربابة وهو يحكى قصة أبى زيد ، وفى آخر الليل يقول الرجل للشاعر القاص : هلا قلت لنا شيئاً من قصة أبى زيد الهلالى . . ؟

وكان يحضر الدروس معنا فى سنة من السنين طالب متطوع كبير فى السن ذو لحية وزى حسن ، وكان دائماً صامتاً . ومرة خرج عن صمته بسؤال بائخ . . فنظر إليه الشيخ ساخراً وهو يقول :

« آن للشافعى أن يمد رجله ! »

وحكى الشيخ واقعة مماثلة وقعت للإمام الشافعى ، إذ كان يلقى درسه فى الجامع وهو جالس على حصيره وحوله طلاب علمه ، وكان بينهم رجل حسن السمت يدل مظهره على شخصية محترمة ، فكان الإمام يلتزم جلسة متحفظة : لا يتكئ على عمود ولا يمد رجله استرخاء . . إلخ ، وذات مرة فاجأه الرجل « المحترم » بسؤال ينم عن غباء لا مثيل له . . فما كان من الإمام الشافعى إلا أن مد رجله قائلاً تلك القولة التى تمثل بها شيخنا : آن للشافعى أن يمد رجله .

* * *

فى الجامع الأزهر ليلاً ، وخاصة قبيل الامتحانات ، كنت ترى أخلاطاً من الطلبة ، أزهريين وتلاميذ مدارس ، يستذكرون فى دوى متصل . . جماعة يشتركون فى الاستذكار وقد تحمى المناقشة بينهم ،

وواحد يقرأ فى صمت ، وآخر فى صوت مرتفع ، وثالث يترنم بما قال المؤلف رحمه الله تعالى . . إلخ

والعجيب أن ذلك الدوى الهائل لم يكن فى الغالب يضايق أحداً ، أو يعوق تفكيراً ، أو يسبب أى وجع دماغ ، أو يمنع نعاساً لذيذاً ، أو يوقظ من سبات عميق ! ربما كان ذلك لأن الأصوات متداخلة مندغمة لا يند منها « نشاز » . هذا فى الغالب ، وفى بعض الأحيان كان يحدث أن يكون الصوت المرتفع قريباً من « صاحب مزاج » فيقول هذا ·

– يا أستاذ وط صوتك .

– وأنت مالك . . أنا حر .

– لا ، لست حرًّا .

– لا ، أنا حر . .

وتنشب بين الاثنين معركة قد تكون شرارة تندلع منها معركة شاملة بين الوجه القبلى والوجه البحرى إذا كان أحد الاثنين صعيديًّا والآخر بحراويًّا . . إذ يعلو الصفير ، وتأتى النجدة من الأروقة مشرعة « السلاح الأحمر » الذى حدثتك عنه فى فصل سابق .

كنت كثيراً ما أنام فى أثناء ذلك الدوى متوسداً حذائى ، ولهذا فائدتان : الأولى أن الحذاء لا يسرق ، والثانية أنه وسادة . . ولا أدرى لماذا كان النوم لذيذاً فى ذلك الدوى وفى تلك الهيئة وعلى الفراش اليابس ! طالما جفانى النوم فى مراحل من العمر بعد ذلك وأنا على الفراش الوثير فى هدوء كان بعضه فى الضواحى . . فإن سمعت صوتاً

فى المنزل ضربت الجرس ثلاث ضربات يعرف القوم أنها ضربات الأمر بالسكوت . . وإلا تحملوا تبعة إقلاقى ، وهم منها برآء .

* * *

بعد الفراغ من الامتحان نستعد للرحيل إلى القرية لنقضى فيها عطلة الصيف ، وأول شيء نفكر فيه وندبر له هو الأثاث أو بلفظ مناسب « العفش » : أين نتركه ؟ فلا نستطيع أن نحجز الحجرة وندفع أجرتها طوال أربعة أشهر ونحن فى البلد ، ولا داعى لذلك . فعندما نعود سنجد مساكن كثيرة خالية ومعلقاً عليها لافتة تقول : « للإيجار » . حقًّا سنسمع ما لا يسر مثل « لا نسكن مجاورين » وقد تكون العبارة مهذبة فتقول : « لا نسكن عزاب » .

كانت هناك طريقتان لتخزين « العفش » إحداهما أن نشترك مع طلاب آخرين فى غرفة نكدس فيها كل « الكراكيب » والثانية — وهى أكثر اقتصاداً من الأولى — أن نودع « الكركوبتين » عند أسرة من « بلدياتنا » الذين يعملون ويقيمون فى القاهرة . وعلى أى حال فنحن عندما تبدأ « العمارة » — أى الدراسة — فى الأزهر المعمور ونعود إلى القاهرة ننزل أولاً بالجامع الأزهر « الأم » ونبيت فيه ليلة أو ليلتين حتى نؤجر مسكناً .

هناك فى رواق الفيوم « نجاور » من يقيمون فيه دائماً ، وهذا هو أصل « المجاورة » لأن المقيمين فى الجامع الأزهر يجاور بعضهم بعضاً . وكان رواق « الفييامة » — كما كان يسمى — يقع بجوار « الميضة » وهو عبارة عن ركن من الأركان التى تطل على صحن الجامع ، ولا تختلف

أرضه المفروشة بالحصير عن بقية الجامع إلا فى شىء واحد هو عدم نظافتها . . وفى الجدران « دواليب » لكل طالب واحد منها يتسلمه بقرار من شيخ الرواق .

ومثل ذلك كانت بقية الأروقة على اختلاف فى الاتساع بما يلائم عدد الطلاب . وكان كل من رواق الصعايدة ورواق البحاروة كبيراً يتسع للطلاب الوافدين من جنوب الوادى وشمال القطر ، وكان معظم طلاب الصعيد يقيمون فى رواقهم بالجامع الأزهر ، والقليل القادر منهم يتخذ مساكن فى الخارج . وثمة فرق كبير بين الصعيدى الغنى والصعيدى الفقير ، وعلى وجه عام نجد طلبة الأزهر معظمهم من الفقراء من أى بلد كانوا .

على حين كان الصعيدى الغنى يقترب زيه من زى مشايخ الأزهر نجد الفقير من الصعيد يكاد يكون بدائياً فى مظهره : الزعبوط الخشن المتسخ ، والعمامة الملففة أيًّا كان وقد تحول بياضها إلى قتام . . يتدلى منها طرف على جانب ، يظهر أن الأصل فى هذا الطرف أن يتلثم به القتلة وقطاع الطرق فى الصعيد ، ثم المركوب الأحمر المدبب الطرف الأمامى ، والذى لا يغطى إلا القليل من مظاهر القدم « المقددة » أما باطن القدم فلا يعلم المشاهد هل هو مغطى كله أم هناك بعض أجزاء تلامس الأرض . . هذه الصورة لم نعد نراها الآن من أهل الجنوب .

كانت تلك الهيئة من أسباب المعارك بين الصعايدة وغيرهم . . إذ كانت تغرى بالسخرية ، ثم تنكسر قرون السخرية على الصخرة الصلدة المنحدرة من الصعيد الجوانى . .

وكانت فى الجامع الأزهر أروقة للغرباء ، مثل رواق الشوام ، ورواق

المغاربة ، ورواق الجاويين (الإندونيسيين) . وهذه الأروقة نظيفة ومهيأة للسكنى ، على خلاف أروقة المصريين ، وسكانها « الأغراب » على مستوى أعلى من النظافة وحسن الهندام ، وخاصة الإندونيسيين الذين كانوا يلبسون بدلاً إفرنجية ويرجلون شعورهم الناعمة . وربما كان ذلك لأن الأوقاف الموقوفة عليهم وافرة أو كانت حكومات بلادهم تعينهم بما يتيح لهم عيشاً رخياً بعض الشيء ، وربما كان ذلك لأنهم فى بلادهم من ميسورى الحال . وقلَّ ، بل ندر أن يحدث اشتباك بينهم وبين المصريين ، ربما لأن المصرى بطبعه يحاسن الغريب ويعامله بالود وخاصة أبناء البلاد الشقيقة ، وربما يرجع ذلك إلى الخشية من « السكاكين » التى يحملها الغرباء . . وكنا نستشعر هذه الخشية فعلاً ، إذ كان يقال لنا إنهم « حماية » فكثير منهم تحميه الحماية الفرنسية أو الإيطالية أو الإنجليزية . . على حسب الدولة الأوربية التى تحتل بلاده والتى يتمتع أفرادها وأفراد مستعمراتها بالامتيازات الأجنبية فى مصر ، ومن أبرزها عدم خضوعهم للسلطة المصرية .

مسكينة مصر . . طالما عانت !



زواج أخى

كنت فى السنة الثالثة الأولية بجامع « الفكهانى » بشارع الغورية ، وكان أخى فى السنة الأولى الثانوية بجامع « برقوق » – كنا كذلك عندما أعلن عن قرب صدور قانون يحدد سن الزواج بحيث لا تقل سن الزوج عن ثمانى عشرة سنة والزوجة عن ست عشرة . وعلى حين كنا منهمكين فى دراستنا كان أبى يعد العدة لأمر آخر . كان يبحث لأخى (ابنه البكر) عن عروس يعقد قرانه بها قبل صدور هذا القانون ، فقد كان المتبع وخاصة فى القرى أن تتزوج البنات صغيرات . وأذكر أن صدى ذلك المشروع فى البلاد كان يشبه الاعتراض ، كما تنطق بذلك أغنية شاعت وقتئذ وسجلت على اسطوانات تدار فى الحاكى (الفنغراف) فلم تكن الإذاعة قد ولدت بعد . أذكر من تلك الأغنية :

البنت سن ١٣ والوجه قمر ١٤
أبوها راضى وأنا راضى
مالك أنت ومالنا يا قاضى ؟

ولك أن تلحظ أن رضا البنت ليس فى الحساب ، فالمهم أن أباها راض وكذلك العريس . .

ونشطت حركة عقد القران فى جميع بلاد القطر ، حتى بالنسبة لغير

المستعدين للزواج ، على أن يعقد العقد ويكون الزفاف على مهل حسب الظروف. وكان المأذون يخرج من بيت إلى بيت ، كما يفعل الآن مدرسو الدروس الخصوصية قرب الامتحانات !

وجاءنا أو جاء لأخي خطاب من الوالد يطلب فيه سرعة حضور الأخ لعقد قرانه. لم يكن لدى أخي أية فكرة عن هذا الأمر ، ولم يعرف من هي التي سيعقد قرانه عليها ، ولكنه فرح لأنه سيتزوج. . وأنا داخلتني الغيرة. . « اشمعنى أنا ! » ولماذا لا أتزوج أنا أيضاً ؟ لم أفكر كما لم يفكر أخي في بنت معينة. . كلانا يريد أية بنت والسلام وها هو ذا ينفرد بالحصول على أمنيته ، وأنا. . .

كنا في فورة الشباب الأولى ، في المرحلة التي اصطلح الآن على تسميتها مرحلة المراهقة ، وإن كنا قد عرفنا في الفقه وفي اللغة أن المراهقة هي ما قبيل البلوغ.

لم نكن – أنا وأخي – مستقيمين على طول الخط. . كما يعتقد أبي وكثير من الناس. نعم كنا مجتهدين في الدراسة ، وكان ظاهرنا يدل على ما نتسم به من الأخلاق الحميدة ، وكان الباطن كذلك ، ما عدا زاوية منه هي ما استراح ضميرنا إلى تسويغها بما نسمع وما نقرأ أحياناً في كتابات حديثة من أنها « أخلاق شخصية » وكل واحد حر في أخلاقه الشخصية ، أو قل من غير لف ودوران إنها الغريزة الطاغية. . والله على كل حال غفور رحيم. وكان بعض الشباب من بلدنا ومن أقاربنا يجيئون إلى القاهرة ويبحثون فيها عن المتع المحرمة ، وينزلون عندنا ، ونخرج معهم ، ويقودوننا أو نقودهم إلى أماكن مريبة. . وقد نعرج على مثل ما كان

يعرج عليه أبو نواس قاصدين ما تداوى منها بها !

كنت وأخى مشتركين فى ذلك ، لا يخفى أحدنا عن الآخر شيئاً إذا فعله منفرداً ، وكان أخى على عادته فى إنصافى معه وعدم قبول ذمته أن يخص نفسه بشىء دونى ، كان إذا أنفق وحده نقوداً فى حرام أعطانى مثلها ، كما يحدث فى الحلال . .

على أن ذلك كان قليلاً ، بل نادراً . ولم تكن الحالة المالية متيسرة لنا على رخصه فى ذلك الزمان ، وكان يلفتنا عنه – إلى جانب العسر المالى – شعورنا العميق بالمسئولية وحبنا العميق أيضاً للدراسة ، فكل ما كان خارجاً عنها إنما هو كالحشائش الطفيلية نسرع إلى إزالته ، لكى ينمو الغرس المنشودة ثماره .

سافر أخى إلى القرية ، وعقد قرانه بالتى اختارها والده ، ثم عاد وحكى لى فى سعادة أن العروس من عائلة « فلان » أصحاب الضيعة المنسوبة إليهم وإن كانوا من متوسطى الحال . وقال فى شىء من السرور بالتوفيق : إن الأصهار – والبنت طبعاً – من أصل تركى ، وهى لهذا بيضاء جميلة .

ولما عدنا إلى القرية فى العطلة الصيفية التالية ، أو « المسامحة » – كما كانت تسمى فى العرف الأزهرى – قال الوالد للأخ الأكبر : خذ أخاك واذهبا لزيارة أصهارك . فأعددنا العدة ، واصطحبنا بعض الهدايا ، وركبنا حمارين وتوكلنا على الله . وفى أثناء الطريق كنت أهز رجلى على الحمار وأنا أنظر إلى حذاء (أجلسيه نصف أستك) استعرته من ابن عمى ، لأن حذائى كان بالياً ، فينال رضاى وأنا راكب ، ولكنه نال سخطى

وضيق لما مشيت به وأحسست أنه ضيق على . تعدّدت أزماتى النفسية فى تلك المرحلة من حياتى بسبب الأحذية : مرة أكون حافياً ، ومرة يفرض على لبس المركوب ، ومرة ألبس « كتنلة » فلاحى تشبه « البلغة » وفى كل حال أتطلع إلى لبس حذاء « مدنى » جميل . . وأعتقد أن ذلك أثر فى أحلامى ، إذ كنت أحلم فيما بعد بأنى أمشى حافياً فأخجل فى الحلم من الحفاء .

كنا نمشى فيما يحيط بالضيعة من أشجار الفاكهة ، ونقطف منها ونأكل ، فكان هذا جديراً بأن يكون ممتعاً لولا هذا الحذاء الضيق الذى يكتم أنفاس قدمى . .

يقال لى وأنا أسير فى شبه عرج :

– مالك ؟

– الجزمة ضيقة ، أصلها جديدة . .

– لا بأس ستتسع . .

كانت تخالجنى خشية أن يعرف القوم أنه ليس حذائى ، قد يقولون إنها « جزمة دنقاش وهذا هو اسم قريتنا . وكان الشبان من أبناء الأعيان وميسورى الحال فى القرية ، عندما يتزوجون ، يتحذون زياً لا يختلف من واحد إلى آخر : جبة « سد » من الجوخ الأخضر وحذاء من الجلد « الأجلسيه – نصف أستك » لونه أبيض قاتم (بيج) ويظل هذا « الطقم » عند صاحبه لا يلبسه إلا فى « مشوار » خارج البلد ، وقد يعيره للغير . ومن هنا اشتهرت الجبة الخضراء عند أهل القرى المجاورة ، وتخيلوا أوافتروا على قريتنا أنهـا تملك جبة واحدة ملكاً جماعياً ، يلبسها من

يخرج فى « مشوار » . . وأطلقوا عليها « جبة أبو دنقاش » ولكن الحذاء مثل الذى كنت ألبسه ونحن فى زيارة أصهارنا لم يأخذ مثل ذلك اللقب ، ربما لأنه كان يتفاوت بعض الشيء فى اللون أو لأن واحداً « نصف أستك » وآخر « أستك برقبة كاملة » .

* * *

مكثنا بضعة أيام فى ضيعة أصهارنا ، ومعنى الضيعة هنا أو « العزبة » باللغة الدارجة ، أنها مصغر قرية ، يسكنها أصحابها الذين يملكون أرضها ويزرعونهـا ، لا أنها ملك لمالك كبير يقيم فيها زراع أرضه .

لم ير أخى عروسه ، لا فى هذه الزيارة ولا فى غيرها ، حتى دخل عليها فى ليلة العرس بعد نحو سنتين . . وما قاله لى يوم عاد إلى القاهرة بعد عقد القران من أنها بيضاء جميلة - كان عن سماع ولم يكن عن روية . وذلك على خلاف الحال فى قريتنا التى لم تكن فيها امرأة من أهلها متحجبة ، أصلنا بدوى عربى ، وأصل هؤلاء تركى .

كان كل وقتنا فى تلك الزيارة مع الرجال : إخوة العروس وأبوها المسن الذى يضفى حضوره على المجلس وقاراً من مظاهره أن يسرع أبناؤه إلى إطفاء السجاير وإخفائها عندما يلمحونه قادماً . .

على أنه حدث فى عدد من المرات أن دعى أخى إلى « الحريم » لمجالسة حماته . . حماته فقط . . بعض الوقت ، ودعيت أنا كذلك مرة للسلام عليها . وكان هناك بنات صغيرات لم يبلغن بعد سن الحجاب ، هن بنات إخوة العروس ، كان الإخوة كباراً والعروس آخر العنقود » .

قيل فى شبه مزاح إن والدى « اتكلم لى » على كبرى أولئك البنات ،

وأشار لى أخى إليها من بعيد . فكنت أختلس إليها النظر وأكاد أقول لها : اكبرى . . دعى هذين الناتئين فى صدرك يبرزان ، وأتخيلها بعد ذلك فى أحضانى . . .

وكأن أخى يقول لى بلسان الحال : لا ، يا شقيقى ، لا تحزن . . فكما اعتدت أن أتيح لك ما أتيح لنفسى من كل شىء كذلك هذه البنت لك . . ولا بأس أن أسبقك فى الزواج ، فإنى أسبقك فى كثير : إذا راحت نفسى لشىء وحققته لها فإنى أتيح لك مثله . ولا بأس فى سبقى إياك ، فقد سبقتك إلى الوجود فى هذه الحياة .

وما أنا فى أعماقى بمقتنع . لماذا لا أنال ما أريده مباشرة ؟ لماذا أنتظر حتى يريد أخى . . ؟

هذه البنت التى أمنّى بها عندما تكبر ، وفاطمة القاهرية بنت البقال التى كانت تبيع لى الحلاوة الطحينية ، وأولئك النسوة القاهريات وما يبدو فى أعلى صدورهن من فتحة بين الثديين مثل « الخياطة » التى ذهبت إليها لتخيط لى جلباباً وطلبت منها أن تعمل لى فتحة فى الجانب الأيسر ، والمتبع أن الجانب الأيمن يشغله جيب « سيالة » ، فسألتنى وهى ترقص حاجبيها ماذا سأصنع بهذه الفتحة إذا أدخلت يدى فيها ، ثم المغامرات التى سبقت الإشارة إليها - كل ذلك كان فى عالم غريزى شبه حيوانى ، يطفو على المشاعر والأحاسيس أحياناً ثم يذهب فى الهباء . ولكن المشاعر والجوانح تنطوى على شىء آخر مستكن فى الأعماق ، هو الذى سبق الحديث عنه فى فصل سابق . والغريب أن فكرة الزواج لم تكن تتعلق بهذا الحب ، وخاصة بعدما تزوجت الحبيبة . . وكان « حسبى منها الحديث والنظر »

كما قال الشاعر القديم ، على أن هذا الحب سوف يأخذ فى الضعف شيئاً فشيئاً باتساع الهوة بيننا من تقدمى فى الحضارة والثقافة وبقائها على حالها بطبيعة الحال ، وكل شىء فى هذه الدنيا إلى الزوال . .

بدأت أقرأ فى هذه الفترة – وخاصة فى العطلة الصيفية – روايات رومانسية غارقة فى الخيال ، يتعذب فيها الأبطال ويتألمون لهجر حبيب أو لقسوة قدر أو لظلم مجتمع أو . . إلخ ، فتعذبت معهم ، وتألمت كما يتألمون ، وعشقت الطبيعة كما كانوا يعشقون . كنت أذهب إلى الحقول ومعى رواية ، وأجلس على حافة ترعة فى ظل شجرة ، أو أدخل فى حقل ذرة وأمهد لى مجلساً بين أعوادها ، وأقرأ . . .

وأنا عائد أمر على دار الحبيبة ، ولو كان هناك طريق أقصر من الذى أمر به ، عسى أن أراها ، فإذا رأيتها ألقيت التحية التى تلقى فى الريف على النساء أو تلقى منهن :

– عوافى يا . . .

– الله يعافيك .

وأمضى فى طريقى . . . ولو كنت بالقاهرة فى مثل تلك الحال وفى مثل هذه الأيام لصدمتنى سيارة . . . لا محالة ، كما يحدث فى الأفلام . . .

وعند النوم ليلا آوى إلى الفراش متمثلاً بما قرأته فى قصة ، إذ كان البطل البائس يقول : مرحباً أيها النوم ، أنت البقية الباقية من سعادتى .

وكانت تلك القراءة وما تحدثه فى نفسى من آثار خيالية تشغلنى من جهة ، ومن جهة أخرى تولد فى نفسى شعوراً بالغربة عما حولى ، كأن

القوم ليسوا قومى ، وكأنى من عالم آخر غير هذا العالم . . فلا أحد يفهمنى ولا أحد يحس بما أحس به .

كانت الفكرة التى تستقر فى أذهاننا وأذهان أهلنا وأهل القرية ، أن خروجنا لطلب العلم هو أيضاً خروج لطلب حياة أخرى أرقى من الحياة فى القرية . سمعت جدتى وهى تدعو عقب صلاة الفجر وتقول : « إن شاء الله يارب أشوفك يا حمزة – أخى – أنت وعباس مآمير ونيابة ! » أى أن يكون الواحد منا مأمور مركز أو وكيل نيابة ، وهى لا تفهم طبيعة تعليمنا إن كانت تؤهلنا لهذه الوظائف أو غيرها . . المهم عندها أن ترانا شيئا آخر غير ناس القرية .

إذا عدنا إلى القرية فى العطلة الصيفية الطويلة فنحن فى عطلة حقاً من أى عمل لا من الدراسة فقط ، ولا يصح – فى نظرنا ونظر القوم – ولا يليق بنا أن نشارك أهلنا فى أى عمل من الأعمال مهما كانت الحاجة ماسة إلينا . . شىء واحد كنا نفيد به : حديثنا فى المجالس ، فقد تنورنا وتعلمنا وعرفنا كثيراً مما يجهله أهل القرية ، فإذا تحدثنا كان لحديثنا وقع يجذب الأسماع . كنا نجد مع أهل الجد ، فنفتيهم إذا استفتونا ، ونتكلم فى السياسة ونفيض فى مناقب سعد زغلول وصحبه أعضاء الوفد ، ونشتم الأحزاب الأخرى التى تعارضهم . كنا نفقههم فى الدين وفى السياسة على قدر علمنا ، وقل كذلك على قدر فهمنا .

فإذا كنا فى مجالات أخرى ، مع شباب يميلون إلى المرح والمجون ، فنحن خلق آخر . . وكانت ليالى الصيف أمتع الأوقات وأكثرها ملاءمة لذلك المرح . كان شاب صديق وزميل فى كتاب الشيخ ونيسى بمدينة الفيوم

قد أقام فى القرية وفتح دكاناً يطل على الترعة ، وأمامه شجرة حميز وارفة ظليلة ، يرش الماء تحتها ، ويفرش حصيرة بعد أن تجف الأرض . حتى إذا جاء وقت « العصارى » وهو الذى يقع بين العصر والمغرب ، ذهبنا إلى هناك . نشرب الدور الأول من الشاى الثقيل ، ثم نتغامز على « القطع » والمعاجين التى تذاب فى أكواب الدور الثانى من الشاى المعاد غليه والمحلى بسكر أكثر أو أن السكر يظهر فيه أكثر لأنه أخف . وما هى إلا ساعة أو أكثر حتى تبدأ أجسامنا وأذهاننا فى الخدر . . وتنطلق ضحكاتنا لسبب ولغير سبب ، فنحن فى « المضحكخانة » كما أطلقنا على ذلك المكان تحت الشجرة ، وكانت تلك « القطع » متوافرة فى ذلك الوقت ، سمعنا وقرأنا بعد ذلك أنها كانت تتسلل إلى بلادنا من يهود فلسطين ، ولم تكن غالية الثمن ، على أن الغنى منا يتحمل الأثمان دون محاسبة الآخرين ، إذ كنا نعد أنفسنا من « الخيرين » الذين ليس بينهم حساب . . .

واشتهرت « المضحكخانة » حتى بلغ صيتها البلاد الأخرى ، فكان يفد إليها القاصدون مودتنا من ظرفائها ، ونعقد مباريات فى « القافية » بين ظريف من قرية وآخر من قرية أخرى . ومرة اصطحب بعضهم شاباً قاهرياً يزور أقارب له فى القرية ، وقالوا إنه لا يستطيع أحد أن يباريه فى « التنكيت » . وسأله أحدنا من أى حى هو فى القاهرة ، فأجاب : « من التبانة ! » فقال قائلنا وهو يكاد يموت من الضحك :

« أهلا وسهلا . . تشرفنا . . تحب تعلق ! »

* * *

كذلك كنت أقضى العطلة الصيفية : ألوان مختلفة من الحياة والمشاعر ، بعضها يناقض بعضاً : حب عذرى ونوازع مراهقة ، قراءة رومانسية تخلق الحزن المستعذب : لهو من الشباب ، صابون ، فقهقهات بغسل الأحزان الرومانسية . .

والواقع أنه كان فى النفس أسى عميق ، ليست المآسى الرومانسية إلا غذاء مريئاً له ، وليس « الخدر » إلا هروباً منه ، وليست القهقهات إلا مقاومة كمقاومة نسيج الجسم للجراح كى تلتئم ، رأيت فى القاهرة حياة غير الحياة فى القرية ، وحركة غير ركود القرية ، وعلما غير جهل القرية ، وحضارة غير بدائية القرية ، ولين عيش غير شظف القرية . ثم نحن فى القاهرة محرومون من أكثر متعها ، ونشعر بهذا الحرمان لأننا نرى ما نحرم منه ، أما فى القرية فالقوم لا يشعرون لأنهم كالسائرين نياماً .

فلا أنا فى القرية ناعم بالجهل كما ينعم ثور الساقية المعصوب العينين ، ولا أنا فى القاهرة من أهل القاهرة !

ثمة فرق : فى القرية لا أمل فى شىء ، فلم يكن يخطر على البال كما لم يكن فى الإمكان ، التلاؤم مع واقعها أو العمل على تغييره ، كان أسوأ من أن يجذب للتلاؤم ، وأقوى من إرادة تغيير . . أما فى القاهرة فهناك الأمل والتطلع إلى أشياء فى الأفق وأخرى وراء الأفق ، أشعر بها وإن كانت لا تستبين . . .

* * *

فى عطلة صيف – بعد نحو عامين من عقد قران أخى – رأى القوم

أن يفرحوا . . أعدوا العدة للفرح ، وكان كل شىء مفرحاً لكل من هناك ، ما عداى . . أخى التحق بتجهيزية دار العلوم ، وكانت مدرسة ثانوية يجرى التعليم فيها كما يجرى فى سائر المدارس الثانوية مع العناية باللغة العربية وعدم العناية باللغة الأجنبية . . وذلك بغية الإعداد لدار العلوم العليا . وكان ذلك بعد أن غير طلبة دار العلوم زيهم بسنين ، وعلى هذا صار أخى أفندياً من تلاميذ المدارس ، وأنا لا أزال مجاوراً بالأزهر وإن كنت قد اتخذت طربوشاً ألبسه فى غير أوقات الدراسة . . وأخى هو الذى تجرى مراسيم الفرح احتفاء بزواجه ، وأنا غيران من هذا وذاك . . والعبء النفسى الذى أنوء به هو أنه يجب على أن أفرح لفرح أخى وفى أعماق الأسى !

ولكن الحركة التى تسبق العرس ، ودعوتى إلى المشاركة فيها أو استجابتى التى يجب ألا تنتظر الدعوة ، وإتحافى بكسوة لائقة ، ثم الحفلة العظيمة التى أقيمت للعرس – نومت أساى . . اندمجت فى كل شىء ، ذهبت إلى مطبعة بمدينة الفيوم وطبعت بطاقات الدعوة المذهبة آلافا تكفى لجميع أهالى القرية ولكثير من الأعيان والأصهار والأقارب والمعارف بالقرى المجاورة ، كان موزع البطاقات بالقرية يمر ببيوتها فلا يختار هذا ويدع ذاك ، بل يلقى فى كل بيت بطاقة . .

وأتى بأشهر « صييت » فى المديرية ليطرب المدعوين ، وبفرقة موسيقية من المدينة ، ورقصت الخيل على نغمات الموسيقى . وأحضر كذلك طهاة من المدينة على خلاف العادة التى تجرى فى القرية بأن يقوم بالطهى فى العرس نساء من الأقارب والجيران متعاونات مع أصحاب البيت .

وكان ذلك وغيره فوق الطاقة المالية ، فاضطر أبى إلى الاستدانة ،

وعانى بعد فى تسديد الديون ما عانى ، بل عانت الأسرة كلها ما عانت من ضيق أفضى فى النهاية إلى تمزق نالنى منه ماجر على كثيراً من الشقاء فى حيانى كطالب بالقاهرة .

أذكر أن نزاعاً كان يجرى بين والدى ووالدتى على بيع الجاموسة ، كانت تتمسك بوجودها فى البيت ، لأنها مصدر الخير من لبن وسمن وجبن وكشك ، وكيف نعيش من غيرها ، ولكن هذا التمسك مجرد كلام يشبه الولولة » فالرجل – رجل البيت – مصر على البيع ، وهو بحاجة إلى ثمن الجاموسة ، حتى ييسر الله الحال ونشترى غيرها – كما يقول – على أننا نستطيع أن نشترى ما نحتاج إليه من سمن أو جبن أو غير ذلك كما يقول أيضاً . والواقع أن شراء هذه الأشياء لم يكن ييسر الحصول عليها كما لو كانت من نتاج « جاموسة البيت » والذى كان يحدث أن النقود لا توجد دائماً للشراء . . أما ما يأتى إلينا منها هدية من الأقارب فكان يشعرنا بأنهم يرثون لحالنا ، إذ ليس عندنا جاموسة تدر الخير ، فينعمون علينا « وبدلا مما كنا نعطى أصبحنا نأخذ » كما تقول أمى مولولة . . .

ودارت الأزمة الناشئة من « الفرح » دورتها حتى استقرت أخيراً على العريس نفسه ، وحتى أدت إلى انقطاعه عن الدراسة ، ثم امتدت « عاقبة الأفراح » الوخيمة إلى شقاق دائم بين الوالدين ، وكذلك بين العروسين حتى انتهى الأمر بينهما إلى الطلاق . . . إذ اصطدمت « العنطزة » التركية من جانب العروس بالإباء والشدة الموروثين من البادية فى طبع العريس .

اضطر أخى إلى أن يقضى حياته فى القرية ، انتهى طموحه الخارجى ، ومكث يصارع بين ما اكتسب من علم ومعرفة وبين واقع القرية ، حتى تم التصالح بين المتصارعين شيئاً فشيئاً عن طريق الجامع !

كان جامع بلدنا تابعاً لوزارة الأوقاف ، وبرغم ذلك كانت الخدمات فيه بالتطوع . . الإمام متطوع ، والفرش بالحصير وبترول المصباح بالتبرع ، والنظافة بالتطوع وإن كان للجامع خادم معين بمرتب « خادم مسجد » ولكنه يهمل ، وكان هو الوحيد الذى تتكفل به الوزارة . وكان كل من يحسن الأذان أولا يحسنه يسارع إلى نيل الثواب بالصعود إلى سطح الجامع وأداء الأذان . كان أبى يؤذن أحياناً ، وكان بعض صبيان الكتاب يتسابقون إلى الأذان متفاخرين ، وشملتنى هذه العدوى ، فطلبت من أبى أن يمرننى على الأذان ، ففعل ، وأذنت . . وضحكوا علىّ . . فلم أكررها .

بعد سنين كنت قد بدأت أكتب كلمات تنشر فى الصحف والمجلات ، وتعرفت بالكاتب الأديب « عبد الرحمن الجديلى » الذى كان سكرتيراً لسعد زغلول . وكان وقت تعارفنا مديراً عاما للمساجد فى وزارة الأوقاف . كلمته فى شأن أخى وجامع بلدنا ، فعين الأخ الحامل للشهادة الأولية من الأزهر مؤذناً وقائماً بالإمامة والخطابة فى الجامع .

ورضيت نفس أخى بالمرتب الطارئ ، وهو لن يتجشم عملا جديداً ، فهو يقوم به متطوعاً وصار يؤجر عليه . وفى ظل الاطمئنان النفسى أخرج « ملازمه » الصفراء فى الفقه والتفسير والحديث وذهب بها إلى الجامع واتخذ به موقعاً كموقع شيوخه فى الأزهر . . . وبدأ صراعاً من نوع آخر ،

بين العلم الأزهرى الصحيح وبين الجهل والخرافات السائدة من جهة أخرى . محاربة الجهل ليست صعبة ، إنما الصعوبة كل الصعوبة فى مواجهة الخرافات المعششة البائضة المفرخة فى الأذهان من قديم الزمان ، تتحدى « السيف الخشبى » الذى يشرعه خطيب الجمعة على المنبر . . بل هى كانت تعيش فى حماية هذا السيف لأنه من خشب ، ولم يعد الخطيب أميراً للمؤمنين ولا والياً على ولاية يحمل السيف الحقيقى فى يده .

لست أدرى أين ذهب ذلك السيف الخشبى ،، فإن الخطيب الجديد نحاه عن يده ، وشرع يحارب بالموعظة الحسنة ، متخذاً سلاحه من علم امتزج فيه التليد والطريف وإن لم يوغل فيه إلى آخر الشوط . وكان له بلاء حسن فى مكافحة نوع من الخرافات يتخذ الدين رداء له . . نوع من الناس يدعى الصوفية ويتخذها وسيلة سهلة للارتزاق ، بل للترف والنعيم ، بدلا من العمل والكد والعرق .

« الشيخ » من أولياء الله « الواصلين » الذين رفع عنهم التكليف وأبيح لهم ما لا يباح لغيرهم . . والبركة كلها ستحل فى البيت الذى « يعزم » الشيخ . . إنه لا يكون من أهل البلد ، فالشيخ البعيد سره « باتع » ومن يتدروش من القرية فعليه أن يرحل ، ليكون هناك بعيداً . . « سره باتع » وهو لو أراد – ولم يرد أحد – أن يكون شيخاً فى قريته صاحب طريق . . فإن الجميع يعرفونه ، فهو على الأقل خائب فى الزراعة إن لم يكن صاحب سوابق . . .

يأتى الشيخ إلى القرية ومعه مريدوه ، وينضم اليهم المريدون المحليون ،

وهؤلاء وأولئك قد « أخذوا عليه عهداً » وصاروا من أتباع طريقته . . إنه لا يدرس علماً ولا حتى يفتي فتوى ، فما هو من أهل العلم ولا من أصحاب الفتوى . والغريب أن الناس لا يطلبون منه ذلك ، ولا ينتظرون منه أن يفيدهم بعلم ، إنما يطلبون « البركة » والدعاء وقراءة الفاتحة . العاقر تطلب الحمل ، والمريض الشفاء ، وذات الولد تطلب أن يحفظه الله لها . . . إلخ و « الحجاب » يعطى ، والثمن يبذل ، كل على قدره . .

مسألة عبادة الأشخاص فى بلادنا تحتاج إلى دراسة ، ما منشؤها ؟ ولم لم تنقرض حتى الآن ؟ والعجيب أنها توجد بين المتعلمين ومن يزعمون أنهم مثقفون كما توجد بين سائر الناس .. وهى ليست فى الدين فقط ، بل هى كذلك فى السياسة وكرة القدم والفن ، حتى فى الأدب ، وقد يبدو الأدب غريباً فى هذا الصدد لعدم تقدير الناس له مثل ما يقدرون غيره ، وإلا فهل يقدر الناس فى بلادنا على أدهم ومحمود البدوى مثلاً كما يقدرون « شحته » و « جريشة » مثلاً أيضاً . . ؟ ونرى تقديس الأشخاص فى الأدب فى اختيار واحد أو اثنين أو ثلاثة ، لا يتميز الواحد منهم عن كثير من أنداده ، ويكيلون المدائح للمختار المحظوظ لسبب ما ، ويفسحون له مجال الشهرة ، ويدعى كل من يتظاهر بالاطلاع أنه يقرأ له ، وقد يذكر اسم كتاب له مشهور وهو لم يقرأ فيه حرفاً . .

ونعود إلى مدعى التصوف فنرى الشيخ مقدساً ، والويل لمن « يخوض فيه » ومن يفعل فكأنما أهان الإسلام الذى هو رمز له . . رأيت مرة أحد أتباع الشيخ ينكب على إناء تجمع فيه الماء من أثر وضوء الشيخ ، ويغترف منه بيديه ويشرب . . ثم يعتدل واقفاً ويصرخ بأعلى صوته :

« مدد . . على طول المدا . . د ! » .

كان أبى ممن ينخدعون بأدعياء الطرق الصوفية ، وكان من المريدين الذين يقيمون الولائم للشيخ وأتباعه ، وكنا « نحجز » عجلاً كعجل السيد البدوى الذى كان يطلقه الشحاذون والمداحون فى القرى ليدخل البيت الذى يقفون على بابه ، ولا يجرؤ أهل البيت - خوفاً من السيد البدوى - أن يطردوه أو يمسوه لأنه منذور للسيد البدوى . . بل يأمره صاحبه « الشحاذ » أن يخرج بعد ما يعطيه أصحاب البيت العطاء المطلوب . فيطيع العجل ويخرج ، وكنت أندهش لذلك ، ولابد أنه كان مدرباً .

وعجل الشيخ « المحجوز » يظل يرضع ويأكل حتى يجىء الشيخ ، ويكون قد نما وسمن ، فيذبح ، ويظل قبل ذلك مقدساً . . يعامل برفق ، وإن أفسد شيئاً أو أكل ما ليس من شأنه أن يأكله أخذ بحنان ووضع فى مكانه . .

ولا يقتصر طعام الشيخ على لحم من العجل ، بل تعد له دجاجات محمرة وألوان أخرى من الطعام خاصة به ، ولا يأكل معه إلا « المنشد » ذو الصوت الرخيم الذى ينشد للذكر ، وهو من نوع « الصبيتة » الذين يغنون فى الأعراس . كلمة « عرس » - بكسر العين - هى المستعملة فى بلدنا مقابل كلمة « فرح » فى القاهرة وغيرها . والعرس - بضم العين - هى الكلمة العربية .

كنت وأنا صغير أتجشم السهر حتى ينتهى الذكر وأسمع المنشد يغنى فى « فاصل » أخير غير مصاحب للذكر . أو كنت أنام وأوصى

من يوقظنى . كان يأسرنى المنشد وهو يوقع غناءه على عصاه الأبنوسية ، إذ يضرب عليها بالمسبحة « التلت » ذات « الشربية » الحريرية . كان بعض المستمعين يصيحون معجبين ويأتون بحركات مستملحة وكلمات ظريفة . وكان هذا الغناء يؤلف جواً مرحاً ممتعاً ، أو قل كنت أشعر به كذلك . وشعرت فى نفسى بالقصور ، إذ لا أفعل مثل ما يفعل المستمعون « أصحاب المزاج » فعزمت على أن أحاكيهم وأثبت أنى صاحب مزاج مثلهم . . وفعلت ، فضحك القوم من صغير مثلى يفعل ذلك ! وخجلت أنا ، فلمَ أكرر . .

ولما كبرت وعشت فى القاهرة وسمعت عن « المطيبتية » الذين « يطيبون » للمغنى – عرفت سر ذلك الفتى الذى كان يأتى إلى قريتنا فى الأعراس التى يغنى فيها « الصييت » ويأخذ مكانه فى آخر الصفوف ، ويظل طوال الغناء يرفع صوته بكلمات الإعجاب الظريفة ، ويرقص أحياناً وهو يفرقع أصابعه ويلعب حاجبيه . . إلخ ، وفى آخر الليل ينتحى به الشيخ جانباً وهو يأخذ من جيب قفطانه ويضع فى يد الفتى . . .

كنت أطرب كل الطرب من أولئك المنشدين والمغنين ، ولا تزال فى ذاكرتى كلمات من أغانيهم ، وكانت كلها قصائد باللغة العربية وهممت بمحاكاتهم فى أثناء اللعب مع الأولاد فرددت عبارة تشتمل على كلمة « ظبى » فأطلق على ولد كبير لقب « ظبى » فكنت أغتاظ منه ، وكففت عن ذلك الغناء ، ما حاولت الغناء قط إلا وصدمت بالاستنكار . .

كنت أحب أشياء فى الصغر ، وأجد لها مذاقاً لذيذاً لا أجده الآن ، مثل الجزر والبطاطا والذرة المشوية والحياة . . .



صحوت على عالم جديد

لأول مرة أعيش وحدى فى القاهرة بعد أن تخلف أخى فى القرية وانقطع عن مواصلة تعليمه ، وشعرت بالنقيضين : الحزن والسرور ، الأول لوحدتى وافتقاد أخى ، والثانى لحرية تصرفى فى أمور نفسى ، فلا وصاية ولا تبعية ولا قيود من خارج إرادتى .

زاد من شعورى بالوحدة إصرارى على أن أسكن وحدى ، ولكنى تحملت هذا الشعور فى سبيل استكمال الحرية : حرية التصرف والحركة ، حقاً كنت أتحرك فيما يشبه « زنزانه » السجن : غرفة صغيرة جداً فى أسفل منزل بحى طولون ، لها نافذة واحدة صغيرة عالية ، حتى لا تكون قريبة من سطح الأرض فيرى السائر من فيها وما فيها ، إذ ليس لها « شيش » بل زجاج فقط ، لا تصلح لأن يطل منها الإنسان فيرى المناظر الخارجية ، ولكنها كانت منفذاً لنظرى – وأنا مستلق على الفراش تحتها – إلى النوافذ المقابلة وإلى من يطل أو يطللن منها . . وحديث الجارات بعضهن إلى بعض من النوافذ أمر مسل للغاية ، وكذلك محاوراتهن مع الباعة الجائلين ، وتفرجهن على باعة حب العزيز الذين ينادون على بضاعتهم مغنين : « حب العزيز الربعة بقرش » . وأكثر من كل هذا تسلية اشتباك النسوة فى عراك وتبادلهن عبارات مما يسمى فى القاهرة « الزدح » وهى

نصوص « فولكلورية » مأثورة محفوظة . .

ومهما كان الأمر فإنى حر فى كل شىء ، أخرج متى أشاء وأعود متى أشاء ، وآكل وأشرب ما أريد وقتما أريد وفى أى مكان . وحى طولون بجوار حى السيدة زينب ، وهذا حافل بكل شىء . وكان فى ميدان السيدة مطعم فول وطعمية أثير لدى ، ومطاعم الفول والطعمية من أهم معالم حياتى . . حدث مرة فى ذلك المطعم الأثير أن طلبت طعمية وسلطة طحينة ، فجاءنى خادم المطعم بما طلبت . ولكن كان بدل السلطة « مش » فاستطبت مذاقه مع الطعمية . ولما جئت فى اليوم التالى كان شوقى إلى أكلة مثل أكلة أمس ، فطلبت نفس الطلب ، فجاء الخادم بسلطة طحينة حقيقية ، فسألته عن « المش » فضحك قائلاً وكأنه عثر على الفاعل فى جريمة :

– هو انت ؟ !

– أنا إيه ؟

– اللى كلت المش . .

– . . .

– يا أستاذ ، دا أصله بتاع المعلم ، جايبينو من البيت عشانه . .

وفى « درب الجماميز » رأيت لافتة على مطعم ، استوقفتنى كلماتها الظريفة التى تعلن عن أسعار المحل : « سندوتش كده وكده – خمسة مليمات . سندوتش بحق وحقيق – ٧ مليمات »

قلت فى نفسى : لا بأس ، فلأضح بمليمين زيادة وآخذ واحدًا بسبعة مليمات . وفعلا وجدته يستحق التضحية . والأهم من ذلك أنى تعرفت بصاحب المحل وصرنا صديقين . إنه شاعر الربابة « على عبده » الذى

ننشد القصص الشعبية فى الإذاعة ، وكانت هذه حديثة العهد . كان الرجل أمياً ، وكانت عنده القصص المطبوعة – طلب منى فى لهجة ظريفة أن أقرأ له منها ما تيسر فى بعض الأوقات ، فأجبته إلى طلبه . وكان يعد لى أكلات خاصة شهية ، مثل « العجة » و « المسقعة باللحم المفروم » ويرفض أخذ الثمن . وذلك بعد ما دار بيننا ما يأتى :

– اسمع يا أستاذ ، أنا آخذ من الإذاعة خمسين قرشاً فى المرة الواحدة ، والحمد لله رضا . . وعلى رأى المثل « اللقمة الهنية تكفى مية »

قال ذلك وهو يمد لى يده بشلن فى مودة وخجل . .

قلت له فى حسم :

– عيب يا معلم . .

ولكن الأكلات كانت أسخى من الشلنات . . وهى طبيعة ابن البلد المصرى الذى جبل على النخوة و « الفنجرة » فى إطار الذوق والإنسانية . وللأسف لا نجد هذه الطبيعة الآن كما كانت فى ذلك الزمان ، فقد تكاثرت أخلاط الناس فى القاهرة وتزاحموا على كل شىء . . وديست الفضائل الأصيلة تحت الأقدام .

لم أمكث فى تلك الغرفة « الطولونية » إلا شهراً واحداً ، إذ تعرفت بواحد من « بلدياتنا » من الفيوم ، وهو موظف صغير يحمل الشهادة الابتدائية . استأجرنا شقة من ثلاث حجرات فى الدور الخامس من منزل بالحلمية ، على أن أختص بحجرة من الثلاث ، والحجرتان الأخريان إحداهما له وهى الكبرى ، والثانية لطالب بالأزهر من قريته . وقبلت ذلك لأن كلاً منا سيكون مستقلاً فى حجرته . وكانت نقلة سكنية كبيرة ،

فالشقة صحية نظيفة وبها ماء وإن لم يكن بها نور ، ولم أسكن فى منزل به ماء من قبل . نعم الدش فى المرحاض ، ولكن لا بأس ، من كان يطول . . ؟

فرحت فرحاً عظيماً بهذا المسكن ، وكان يتردد على به صديقى الجديد وزميلى فى الدراسة « طاهر أبو فاشا » قال لى وهو يلهث من صعود خمسة أدوار وفى يده كعكة « سميطة » : خذ هذه اشتريتها من الباعة الذين ينادون فى كل دور : سميط وبيض وجبنة ! كأنه مسافر فى قطار . وعندما يهم بالنزول يسألنى : ألا تريد شيئاً من أهل الأرض ؟

وكان فرحى بالمسكن الجديد خاصة لأنه قريب من المدرسة . . أى مدرسة ؟ ألم أقل لك . . إنها مدرسة الحلمية الثانوية الأزهرية كما كان يحلو لنا أن نسميها ، وهو القسم الثانوى من الأزهر كما هو فى سلم التعليم الأزهرى ، غير أنه انتقل من الجوامع المتفرقة بشارع الغورية وما يجاوره إلى هذا الحى الأرقى (الحلمية الجديدة) واتخذ له مقراً أحد القصور الكبيرة ، ويقال إنه كان قصر على باشا مبارك .

بدأت به الدراسة الثانوية من أولها عقب حصولى على الشهادة الأولية ، وقد أتى إليه أيضاً طاهر أبو فاشا بعد انتهائه من التعليم الأولى فى معهد الزقازيق ، إذ كانت المعاهد الأزهرية القليلة فى بعض الأقاليم مقصورة على التعليم الأولى .

فجأة وجدنا أنفسنا - نحن الأزهريين الذين أكل بلاط الجوامع من أجسامنا - على مقاعد خشبية ، وأمام كل منا درج - قمطر بلغة المدارس - ووجد أساتذتنا المشايخ أنفسهم فى حجرات تعلق على

جدرانها سبورات ، ويطلب منهم أن يقفوا ويكتبوا عليها بالطباشير . . على أن معظمهم لم يعبأ بذلك ، فقد قضوا حياتهم العلمية الماضية الطويلة لا يستعملون الأقلام – فضلاً عن الطباشير – إلا قليلاً . فالجهد موجه إلى القراءة وتفهم نصوص الكتب المقررة ، ومادتهم العلمية كلها قواعد ونظريات لا تطبيق فيها ، ولم نعرف من الأمثلة فى النحو والصرف – اللذين يسميان فى المدارس قواعد اللغة – إلا ما يتعلق بزيد وعمرو ، فالأول قائم أبداً ، وهو يضرب عمراً دائماً . . وكان بعض الظرفاء يعلل – تفكهاً – ضرب زيد لعمرو بأنه يؤدبه لأنه سرق الواو من داود !

ولأول مرة فى حياتنا الأزهرية نرى عنصراً جديداً علينا من المدرسين : خريجى مدرسة المعلمين العليا بقسميها العلمى والأدبى يدرسون لنا العلوم الحديثة مثل الحساب والهندسة والجبر والطبيعة والكيمياء والجغرافيا والتاريخ . شباب ورجال مثقفون على أرفع مستوى مصرى حديث ، بعضهم معين فى الأزهر ، وبعضهم يعطى حصصاً إضافية إلى جانب عمله فى مدرسة ثانوية تابعة لوزارة المعارف . كانت مدرسة المعلمين العليا تمتاز على كليات التربية الحالية من حيث العناية بالمادة العلمية والأدبية ، وتمتاز على الكليات الجامعية بالدراسة التربوية ، وكانت هى ومدرسة دار العلوم العليا هما اللتان تعدان المدرسين للمدارس فى جميع المواد . وقد تخرج فيهما إلى جانب رجال التعليم أعلام ورواد فى الأدب ، مثل المازنى وفريد أبى حديد وأحمد ضيف وعبد العزيز جاويش وحفنى ناصف والجارم والسكندرى .

وكان من أساتذتنا « الحديثين » محمود الخفيف الذى برز فى مجلة الرسالة منذ صدورها كاتباً ناشئاً بين الرواد الكبار .

كنا نرى أنفسنا فى عالمين مختلفين : عالم المشايخ القديم وإن كانت تتخلله قلة منفتحة على تيار العصر تحاول أن تصطنع أساليب التربية الحديثة ، وعالم عصرى حديث يتمثل فى خريجى المعلمين العليا . كنا ننتقل من حصة الشيخ إلى حصة الأفندى فكأننا انتقلنا من مدرسة إلى مدرسة ، أو قل من عصر إلى عصر . . .

لم أنبهر بشىء فى ذلك الوقت قدر انبهارى بأستاذ عظيم هو « الأستاذ حمدى » وآسف لأنى لا أذكر اسمه الكامل ، كان يدرس لنا تاريخ أوربا ، وفى المقرر دراسة « نابليون بونابرت » . علمنا أنه قبل بدء السنة الدراسية سافر إلى فرنسا ، وبحث هناك عن آثار نابليون وصوره وما يتصل به من وثائق ، ثم جاءنا بكل ذلك وبعلمه الغزير وفنه التربوى فى الأداء ، يشرح لنا حياة نابليون وطموحه ومعاركه الحربية وحملته على مصر وآثار هذه الحملة فى بلادنا وفى نهضتنا الحديثة ، ويعرض علينا الصور بالفانوس السحرى ، ويسحرنا حتى يخيل إلينا أننا نعيش فى فرنسا مع نابليون ورجاله وحبيبته « جوزفين بوها رنيه »

ومع الأسف لم نجد أستاذاً يصنع مثل ذلك ، بالنسبة لخالد بن الوليد مثلا . .

وكان الذى يضايق أولئك « الأفندية » منا – ما تدربنا عليه وتعودناه من المناقشة وكثرة الأسئلة فى أثناء الدرس ، وذلك على خلاف ما يجرى فى المدارس التى يوضع تلاميذها فى قوالب تعليمية لا يخرجون عنها ، وليس أمامهم إلا مجرد التلقى واختزان ما يلقى إليهم . أما نحن فقد عاشت عقولنا بين المتون والشروح والحواشى والتعليقات ، وهى مفعمة بالحوار

بين المؤلفين منهم من يشتد ويعنف فى جداله واعتراضاته ، ومهم من يدق ويعمق فى ردوده وتفنيذاته . عالم زاخر بالحركة الفكرية والنشاط الذهنى حقاً إن كثيراً من ذلك الجدل يدور على مسائل عقيمة وافتراضات تكاد تكون مستحيلة ، ولكنها حركة عقلية أى حركة . . .

والأزهريون إزاء ذلك الأسلوب من الدراسة إما جدليون يحبون الجدل لذاته لا للوصول إلى حقيقة ، وإما أفراد ممتازون يكتسبون من تلك الدراسة مقدرة فكرية على تحليل الأشياء واستخلاص النتائج من المقدمات بطريقة مثمرة ، والوسط بين الطرفين قليل .

فى بدء هذه المرحلة شعرت بأن يداً قوية تهزنى لأصحو على عالم غير العالم . . اهتز العلم الأزهرى القديم فى نظرى ، وتبخرت قداسته من نفسى ، وليس المقصود من « العلم » هنا المادة الأصيلة نفسها ، بل انصب السخط على الطريقة والتفريعات العقيمة ، وإهمال ما يجب الاهتمام بدراسته من تراثنا نفسه ، مثل تاريخ الأدب العربى ودراسة أعلام العرب فى مختلف النواحى على النحو الذى درسنا عليه نابليون بونابرت . .

والحق أن الأمور كلها ، فيما يتعلق بالدراسة الأزهرية وعلومها ، قد اختلطت إزاء السخط والسخرية التى كنا نصبها على كل شىء . . وإزاء ذلك لم أستطع أن أوفق بين الدراسة الأزهرية القديمة التى قضيت فى محرابها أربع سنين ، وبين الآفاق الجديدة التى تفتحت عيناى عليها ، فى دروس مدرسينا الجدد وفى درس نعده جديداً وهو تاريخ الأدب العربى ، وقد تقرر علينا كتاب الشيخ أحمد السكندرى المقرر على جميع المدارس الثانوية فى الآدب العربى ، وفى قراءة الكتب الحديثة لكبار الأدباء

مولفة ومترجمة ، وفى الأصوات الحرة التى تدعو إلى التجديد والإصلاح فى الصحف والمقالات الأدبية والقصص المؤلفة والمترجمة فى المجلات الأدبية .

وبفعل تيار مغناطيسى خفى عبر عن مثله من قال « شبيه الشىء منجذب إليه » التقينا : شباب متطلع إلى آفاق جديدة . ساخط وساخر من الأمور الجارية . كنا نقابل الأوضاع السيئة بالسخرية الضاحكة ونعبر عن احتجاجنا بمرح ، ولا أظن الشباب الحالى يعانى مثل ما كنا نعانى . أو يواجه أسوأ مما كنا نواجه ، ولا يسعنى إزاء هذه المفارقة إلا أن أسأل : لماذا هم يعبرون بالتمزق والضياع ، وكنا ننقد فى تفاؤل وأمل ؟ ألأنهم نشأوا مدللين ثم صدموا بواقع خشن ؟ يؤيد هذا أننا نشأنا نشأة خشنة لم تصدم بما واجهته من أمور خشنة .

كنا نتقابل فى فناء المدرسة أو المعهد أو القسم . فقد كنا حائرين فى تسمية هذا المكان الذى نتعلم فيه . ونتبادل الزيارات فى المساكن ، ثم يمتد اللقاء إلى « قهوة الحلمية » قريباً من أدباء معروفين يجلسون بها ، سنتصل بهم ونتعارف فيما بعد .

كنا نسخر من شيوخنا ومن الطلبة الذين يتأثرون بهم ، ونتحدث بإعجاب عن بعض الأعلام البارزين فى الحياة الفكرية ، ولم يكن إعجابنا هذا يعفيهم من نقدنا . أذكر مرة قال أحدنا عن كاتب كبير إنه بدأ « يهجص ! » فرد عليه آخر : أنت الذى بدأت تقرأ له !

وانضم إلينا شباب آخرون من غير الأزهريين ، وكانت اهتماماتنا ذات صبغة أدبية ، تنزع إلى الاحتجاج ونقد ما يحيط بنا من أشياء تنكرها فى مختلف النواحى : اجتماعية وسياسية وغيرها ، وذلك على

طريقتنا الضاحكة الساخرة . لم أنس ذلك الشاب ولا الاسم الذى كنا نناديه به وهو « خطاب » – كان يستوقف أى « خواجة » فى الطريق ، وكانت القاهرة إذ ذاك مملوءة بالخواجات ، ويقول له : « اسمع يا خواجة . . » ويهذى بكلام كثير ونحن من حوله غارقون فى الضحك والاندهاش . . كان يكلم الخواجة بلغة عربية فضيحة ، والخواجة لا يفهم ما يقول . وكنا نضحك كثيراً مما يكرره فى لوم الخواجات لأنهم السبب فيما أصاب « المش المصرى » من دود . . لأن « الجبنة الرومى » التى جلبوها إلى مصر – حتى ذلك الحين وما بعده لم تكن تصنع فى مصر – قد فتنت المش فاتصل بها وانتقلت إليه العدوى وأصيب بالدود . .

قال أحدنا :

« اسمعوا ياولاد ، لا تظنوا أن « خطاب » يهذى ، حكاية المش المصرى والجبنة الرومى هى نفس حكاية الشعب المصرى مع الأجانب المستعمرين وغيرهم ، كل ما فى بلادنا من فساد يرجع إليهم ، وكل أدوائنا وعللنا من ميكروباتهم » .

قال آخر : خذوا الحكمة من أفواه المجانين .

وكان « عسكرى البوليس » فى ذلك الوقت معروفاً بالبلادة وانغلاق الذهن . كنا سائرين فى الشارع والمناقشة حامية بين طاهر أبو فاشا ومحمد شوقى أمين حول « إعراب المثنى » إذ أخذ الأول على أحد الشعراء مجىء المثنى – فى قصيدة منشورة له – بالألف مع أنه فى موقع نصب ، فدافع الثانى عن الشاعر بأنه يجرى على لغة من يلزم المثنى الألف فى جميع حالات الإعراب . وهنا كنا وصلنا إلى جوار

الشرطى الواقف فى حراسته ، فدنا منه أبو فاشا وقال له :

« قل لى يا شاويش، تعرف لغة تلزم المثنى الألف . . ؟ »

فقال « الشاويش » :

« متعرفش هوا فى شارع آ . . ولا نمرته كام ! »

* * *

لا تحسبن — من ترددى على قهوة الحلمية مساء كل يوم — أنى صرت قادراً على التوسع فى الإنفاق . كلا ، إنما كان يجرى الأمر هكذا :

كان من « طلبات » القهوة أرز باللبن ، وكان كغيره من الطلبات — ما عدا الشيشة — بقرش تعريفة . فكنت أطلب « سلطانية » وأكتفى بها كعشاء خفيف ، وأقنع نفسى بأنها تكفى ، والنفس توحى إلى البطن . . . وكانت الوجبة الأساسية هى الغداء ، وللمعدة فيها من الفول والطعمية ما يرضيها .

وعلى ذلك كنت أقعد على القهوة وأتعشى بخمسة مليمات . . ليس هذا فقط ، بل أقرأ الجرائد أيضاً . . فى القهوة ثلاث منها يومية صباحية : الأهرام والجهاد وكوكب الشرق ، وجريدة مسائية هى المقطم . وهى تعلق بالجدار فى « مساكات » خشبية لتكون مصونة ومعروفة فى أيدى الجالسين ، وأحياناً يتزاحمون عليها بطريقة خفية . . واحدة فى يد زبون ، وأنت تريدها ، فأنت ترقبه من بعيد « بنصف عين » حتى إذا لمحته يضعها على المنضدة أسرعت إليها قائلاً برقة : عن إذنك !

وهناك طريقة أخرى : أن توصى الجرسون ، وهو بطريقته الخاصة يأتى لك بها بعد دقائق ، ولا يخفى عليك أن هذه الطريقة الخاصة إنما

تكون من أثر « البقشيش » وكان بيننا وبين الجرسون شبه صداقة ، أولا لما نعطيه من بقشيش ، وثانياً لأننا أحلاس . . والأحلاس فى اللغة هم الملازمون للمكان ، وثالثاً ، للذوق والإنسانية المتبادلين .

وأعلم أن عندك سؤالاً : وماذا عساك أن تعطى بقشيش ؟ كنت أؤجله دفع « الحساب » حتى يتجمع لخمسة أيام ، ثم أضيف إليه خمسة مليمات « بقشيش » أى أن هذا كان مليماً فى اليوم . . وثمة اعتبار آخر ، وهو أن بعضنا كان على شىء من اليسار ويجزل البقشيش . . فتعامل « الشلة » كلها معاملة خاصة ، فلم نكن على مستوى واحد من الناحية المالية ، ولكننا كنا نشبه المهاجرين والأنصار عقب هجرة الأولين من مكة إلى المدينة ، كان – مثلا – صديق يدفع كل « حساب » صديق آخر دائماً .

ليلة الجمعة نطيل السهر . وهنا لا يجدى الإيحاء النفسى إلى المعدة ، إذ تعلن أن سلطانية الأرز باللبن قد تم هضمها منذ مدة . وهذا الإيحاء لا يغنى من جوع . . واستجابة للمعدة الصارخة أتوكل على الله وأقصد ذلك المنزل الأثرى العتيق ، فأدخل إلى فناء واسع يحتل ركناً منه « مطعم العم مصطفى » وهو عربة يد فوقها عدة طهى وتحمير ومعلق بجوارها « كلوب » ساطع الضوء يخفت أحياناً عندما يحتاج إلى جاز أو تسليك ، ثم بضعة صناديق خشبية تستعمل كموائد وكراسى . . ولكى تنال رضا العم مصطفى وتأكل أكلة طيبة عليك أن تقبل عليه فى ود واحترام قائلاً : « مساء الخير يا عم مصطفى ، عاوز أتعشى . . » وإن كنت كبيراً فى مثل سنه تقول : « يا بودرش » وتدس فى يده قرشين « صاغ » ويتناول هو

النقود ويدسها فى جيب جلبابه دون أن ينظر إليها ويشير لك إلى أحد المقاعد قائلا : « اقعد . . » وأعتقد أن يده كانت تعرف النقود دون حاجة إلى أن يراها بعينه . ثم تأكل أكلة « الزبون » المفضلة « المحبشة » المكونة من قطع طحال وكبد وباقى الأحشاء . أما بغير ذلك ، أى بغير أن تتبع تلك المراسيم ، فإن الأمر يكون غير ذلك . .

ولم يكن العشاء عند أبى درش ميسوراً دائماً ، أو بتعبير آخر كل ليلة جمعة . فقد كان يحدث أن يتأخر إرسال النقود من البلد . وفى هذه الحالة : حالة العسر ، أتعشى بمليمين بدلا من عشرين مليماً . . فول سودانى بالمليمين عشاء لا بأس به ، وقد يحل محله ذرة مشوية أو بطاطا أو نحو ذلك .

ولم ينقطع هذا العشاء « الاقتصادى » على مدى سنين ، حتى بعد أن عملت فى مجلة أصدرها أحد أفراد « الشلة » الذى انقطع عن الدراسة فى الأزهر وتعلق بالصحافة ، وكان جديراً أن ينجح وتنجح المجلة ولا سيما أنها كانت تصدر وفدية ، والصحف والمجلات الوفدية تروج بين الشعب . كان ذلك ممكنا لولا أن الصديق لم يكن حسن التصرف ولم يكن مستقيماً ، فكان ينفق ما تدره المجلة على بنات الهوى وبنت الحان . ثم يأتى إلى إدارة المجلة خاوى الوفاض بادى الإنفاض ، كما قال الحريرى فى مقاماته . قد يمد يده لى بقروش « تحت الحساب » ولا حساب . . ومع ذلك كنت أنغمس فى العمل أكتب وأصوغ ما يأتى به المخبرون الذين لا يحسنون الصياغة ، وقد أخذت عن « محمد على غريب » صنعته فى الصياغة التى تقوم على الظرف أو التظرف فى « تمطيط »

الخبر الصغير فى مقال ، بإضافة ما يلزم من « بهارات » تفتح نفس القارئ . كان الأخ صاحب المجلة ورئيس تحريرها « محمد عفيفى شاهين » يتعامل أولا مع الأستاذ غريب ، ولكن هذا صحفى محترف منقطع لهذا العمل ، وقد بلغ فيه ما بلغ ، فهو يحتاج إلى أجر مناسب : جنيهات ولو معدودات ، أما أنا فشاب صغير طالب مبتدئ ترضيه القروش مع المودة والصداقة والحديث عن أصدقائنا ونوادرنا فى قهوة الحلمية ، ثم هذه « السرحات » الليلية بين متناقضات . مرة فى بعض « الكباريهات » فى أوقات قليلة جداً من أوقات الرخاء ، ومرات فى شوارع القاهرة حيث نتمشى أو نتسكع عند بائع الذرة المشوية أو البطاطا التى بنار الفرن . . ثم نقصد أو أقصد أنا إلى إدارة المجلة ، وهو إلى ما لا أدرى . فالبركة فىّ (بتشديد الياء) . .

وظللت صابراً على تلك التعلات ، حتى نظرت فى حالتى الملبسية . . فوجدتنى فى حاجة إلى بدلة . كنت قد انقلبت أفندياً منذ تخلف أخى عن الدراسة فى تجهيزية دار العلوم وقعد فى القرية ولم يعد فى حاجة إلى بدلتين كانتا عنده ، فأخذتهما منه ، وجسمانا لا يختلفان كثيراً ، فكنت ألبس البدلة فى غير أوقات الدراسة الأزهرية ، أخلع البدلة والطربوش فى دكان ترزى لم يعد قادراً على أداء صناعته لضعفه فى سن الشيخوخة ، فكان يكتفى ببعض الإصلاحات للملابس القديمة ، وألبس الكاكولة والعمة وأدلف إلى المعهد المجاور للدكان . وعند الانصراف يحدث العكس ، وكنت أدفع له فى الشهر خمسة قروش .

أفضيت إلى صديقى صاحب المجلة ورئيس تحريرها باحتياجى إلى

مبلغ كبير لشراء بدلة ، ففكر وهرش . . ثم قال وهو ينهض واقفاً :

– تعال ، الترزى فلان لنا عنده مبالغ متأخرة ثمناً لإعلانات بالمجلة ، وكان يعلن أنه يصنع البدلة « قماش وتفصيل » بأربعة جنيهات . . هيا بنا .

وذهبت معه إلى الترزى ، وأخذ هذا مقاسى وضرب لى موعداً لتجربة القياس ، وموعداً للاستلام . ولما ذهبت إليه فى الموعد الأول قال لى وهو يتصنع الأسف : والله يا أستاذ ، الحالة « مش ولا بد ! » أقول لك ؟ هات جنيهاً وأنا أعد لك البدلة ، وتخصم الثلاثة الباقية من الحساب .

أحضرت الجنيه بطريقة ما ، وذهبت إليه فى الموعد وكان الوقت قبيل الغروب. فلما رآنى أسرع للاتجاه إلى القبلة وهو يقول : لا مؤاخذة ، المغرب غريب . . ونوى صلاة المغرب ولا تزال الشمس طالعة !

تركته فى صلاته ، ونجوت بجنيهى . .

أنا – والحمد لله – خبرت الناس من أول حياتى ، لأنى عشت « متلطماً » أعرف مخاتلاتهم وأحذرهم. والحقيقة أنى أجتهد فى هذا الحذر ، ولكنى كثيراً ما أقع فى الحبائل . ومهما يكن فإن معرفتى بهم تسهل علىّ ما يحيق بى من الكثيرين ، فلا أصدم ، إذ لا يكون الأمر جديداً علىّ ، ولا أتمزق لأنى أعرف أن الناس هكذا ، وقد جريت على أن آخذهم على علاتهم . وأحياناً أعود إلى نفسى وأقول : وأنا ؟ ألست مثلهم ؟ !

لابد أنك قد عجبت – إن لم تكن مخضرماً مثلى – من أن تكون البدلة بأربعة جنيهات « قماش وتفصيل » وستعجب أكثر إذا علمت أن القماش صوف إنجليزى ، فقد كان هو الموجود فى السوق ، ولم يكن

صوف البدل قد صنع فى مصر بعد . وأذكر أنه – بعد ذلك بسنين – قامت حركة وطنية تدعو إلى مقاطعة البضائع الأجنبية ، ولبس بعض الداعين المتزعمين ملابس من قماش وطنى قطنى من صنع المحلة ، صنع محاكاة لصوف البدل فى السمك واللون ولكنه كان يتكسر و « يتكرمش » من أى حركة ، وكان من زعماء تلك الحركة « الأمير عباس حليم » الذى أعلن انضمامه إلى الحركة العمالية بمصر ، وتبرأت منه أسرته « المالكة » . ونال بذلك « شعبية » توجس منها الوفد ! ويؤسفنى أن التاريخ أهمل هذا الرجل .

أذكر حادثة كان لها صيت : نشرت مجلة « الكشكول » رسماً كاريكاتيرياً لعباس حليم فى وضع لم يعجبه ، فذهب إلى إدارة المجلة وبيده سوط واقتحم مكتب رئيس التحرير « سليمان فوزى » وجعل يضربه بالسوط حتى جرى من أمامه . . ونشرت صحف الوفد هذا الحادث متفكهة ساخرة بصاحب الكشكول . . لأنه كان ضد الوفد ، وكانت مجلته دائمة الهجوم على زعمائه بالصور الكاريكاتيرية والشعر « الحلمنتيشى » وكانت هذه المجلة – فى ذلك الوقت – هى الوحيدة التى تصدر ضد الوفد ومع هذا توزع وتنتشر . ويرجع هذا إلى قوة تحريرها واتجاهها الفكاهى الجذاب . وكان من أقوى الأقلام فى « الكشكول » قلم « محمد الههياوى » وهو كاتب قدير أزهرى الأصل ، وهو « الشاعر إياه » الذى يوقع هذا الترقيع تحت الشعر العامى « الحلمنتيشى » وكان يكتب بلغة عربية عالية المستوى فى غير « الكشكول » وكان من المناوئين لطه حسين ، حكى لى – وكنت قد اتصلت به – أن طه حسين سرق منه وهما طالبان معاً

فى الأزهر « مجموعة المتون » وهى مجلد يجمع عدداً من المتون المؤلفة فى مختلف العلوم ، واتهمه صراحة بأنه أخذها ، فأنكر ولكن حدث عندما كانوا خارجين من الجامع أن انشغل الشيخ طه بلبس حذائه فسقطت المجموعة من حيث كان يخبئها . . حكى لى الهياوى ذلك لما سألته عن قوله لطه حسين فى إحدى مقالاته : « ألا تذكر مجموعة المتون ؟ »

أعجبتنى مقالة كتبها الهياوى فى جريدة « المنبر » التى كان يرأس تحريرها ، يدل عنوانها على موضوعها : « كلية الآداب جائعة عريانة ودار العلوم هى الغذاء والكساء » وذلك عندما قامت دعوة لضم دار العلوم إلى كلية الآداب ، وكان طه حسين عميداً لهذه الكلية .

من الذين كانوا يدعون إلى مقاطعة البضائع الأجنبية شابان نابهان هما أحمد حسين وفتحى رضوان اللذان أسسا حزب مصر الفتاة . كانت مشاعرى مع هذين الشابين فى موقفين فقط ، فقد كنت وفدياً أولاً ، والوفديون لا يميلون للأحزاب الأخرى ، ثم كنت ثانياً لا وفدياً ولا غيره . . إذ انصرفت نفسى عن جميع الأحزاب . أما الموقفان فهما « مشروع القرش » وجريدة « الاشتراكية » التى هاجمت فاروق عندما استشرى فساده . كان فحوى مشروع القرش أن يجمع من كل مواطن قرش على الأقل ، وينشأ بما يجمع مصانع تصنع ما يغنينا عن البضائع الأجنبية . وفعلاً أنشئ « مصنع الطرابيش » وظهر الإنتاج الجديد فى حالة جيدة ، ولم يكن « طربوش محمد على » أقل جودة من « طربوش النسر » الأجنبى . وقد اشتريت طربوش محمد على بخمسة وثلاثين قرشاً ، وظل على رأسى عدة سنين على حاله أولا ، ثم حال لونه

فطلبت من الطرابيشى أن يقلبه على الوجه الآخر ، وكنا نتظرف بتسمية الطربوش المقلوب « على محمد » .

أما جريدة « الاشتراكية » فأظن أن أحمد حسين كان رئيس تحريرها ، وأنا لا أعتمد فى هذه الكتابة إلا على الذاكرة ، ولم تنمح من ذاكرتى مقالات « مصطفى مرعى » بتلك الجريدة ضد فاروق . ولا أعلم أن هنـــاك من هو أعظم ممن يعترض الحاكم المتمادى فى غيه ، وبيد الحاكم الذهب والسيف ، فلا يغريه الذهب ولا يخيفه السيف ، ويقول له : قف !



مفلس طروب

أهملت فى الدراسة كل الإهمال ، وكنت فى مطلع المرحلة الثانوية ، واجتزت امتحان النقل من السنة الأولى إلى الثانية ، ثم إلى الثالثة ، بنجاح قريبة درجاته إلى الرسوب . ولم يخل الأمر من غش .. وأذكر مرة كنت فيها أضع ملزمة من كتاب الفقه فى ثنية الكاكولة بين البطانة والظاهر ، ولم يكن « البرشام » قد اخترع بعد . . وكان بعض الشيوخ يعيننا على الغش بقصد الثواب . . ودافع الشفقة والرحمة ! وأذكر ذلك الشيخ الطيب القلب والجسور القلب أيضاً . . إذ لم يخش أحداً عندما لحظ أن سؤالاً من أسئلة الامتحان فى الفقه صعب ، وأننا حائرون فى الإجابة . وكان السؤال فى أمر من أمور الحج ، فجعل يتمشى بين صفوف الطلاب مترنماً بالجواب : « من حج واعتمر . . إلخ »

وشيخ آخر من كبار السن ، سأله طالب فى الامتحان عن سؤال فى الجغرافيا ، فقال له : والله يا ابنى لا أدرى . وكأنه يخاطب نفسه : « لا أدرى » نصف العلم . ولكنها لا تنفع الآن . . والتفت إلى طالب مكب على الكتابة والإجابة فقال له : قل لأخيك يا ابنى !

وفى السنة الثالثة انقطعت عن الدراسة وعن الامتحان . ثم أعدت السنة الدراسية فى نظام جديد اقتضى تعديل مدة الدراسة فى جميع

المدارس الثانوية التى نسير على منهجها ، فصارت خمس سنوات بدلاً من أربع ، فخسرت سنتين : واحدة بالإعادة والثانية من فرق النظامين .

دفعتنى إلى ذلك الإهمال عوامل كثيرة ، منها الرغبة فى العمل بالصحافة التى بدأت التعلق بها على نحو ما حدثتك فى الفصل السابق ، والصحافة قريبة من الأدب ، قرابة بعيدة أو قريبة حسب تنوعها ، ومنها النظر الشذر الذى شرعت أنظر به إلى الدراسة الأزهرية والحياة الأزهرية ، وما صاحب ذلك من انصراف نفسى عنها وضيق بها وتطلع إلى الأفق الأدبى الذى يمثل مركز الجذب !

وأهم تلك العوامل هو « شح اللبن » فى « ضرع » الأهل . . كان هناك اضطرار ، وكانت قسوة ، كان الاضطرار لسوء الحال من جراء الشقاق والانقسام بين أفراد الأسرة ، وتخلل ذلك تطاول من الولدين ومعهما الأم على الأب . . أحد الولدين هو الأخ الأكبر الذى تخلف عن مواصلة التعليم وصار شرس الطبع من خيبة أمله وقعوده ، والآخر أخ أصغر لم يتعلم وكان من طبعه مواجهة الأمور بالعنف الذى أدى به إلى السجن فى حادث مشاجرة قتل فيها – عن غير عمد – من اشتبك معه .

وكان فى أبى شدة اضطرت أمى – وفيها هى أيضاً شدة مكبوتة – إلى الخضوع لها زمناً ، فلما رأت إلى جانبها ولدين قويين « فاح عرقهما » كما يعبرون هناك . . استعانت بهما على شدة الزوج . ولم يرضخ الرجل (الأب) بل تمادى فى سطوته ، ورأى أن يغيظ الجميع فتزوج ، وأمعن فى الإغاظة فكان زواجه من « زنجية » كانت أصولها من الرقيق . .

لقى ذلك الزواج استنكاراً شديداً ، لا من الأسرة الصغيرة فقط ، بل كذلك من الأسرة الكبيرة : الأعمام وأبناء الأعمام ومن إليهم ، بل من سائر أهل القرية . ووقع النبأ على وأنا فى القاهرة وقعاً أليماً ، وقررت ألا أذهب إلى القرية ولو مت جوعاً بالقاهرة .

ولا شك أننا – وأنا داخل طبعاً فى الضمير « نا » – نكتب ونقول عن المساواة والإخاء بين بنى الإنسان وعن مساوئ التفرقة العنصرية وأننا جميعاً لآدم وآدم من تراب . . إلى آخر ما يقال فى الكتابات الحديثة وفى المواعظ الدينية جميعاً ، ولكن فى طباعنا ومشاعرنا رواسب تختلف تماماً عما نخطه بالأقلام وما نصيح به على المنابر . .

لم يسهل علىّ أن يتزوج أبى بتلك المرأة ، فسخطت عليه سخطا فوق سخط ، فقد قطع عنى النقود ، إذ رأى ، أى لا بد أنه رأى ، عقوق الأولاد . . وهل أنا إلا مثلهم ؟ ومن هنا كشرت القسوة عن أنيابها وعضتنى . تمنيت لو أنه يموت ، وقدرت ما أرث منه . . قلت فى نفسى : أنا الآن أقل من يتيم . . لأن اليتيم ينال حقوقاً من العطف والرعاية لا أنالها . فليتنى أنالها !

على أنه كان يأتينى أحياناً وعلى غير انتظار « شىء » من نقود يرسلها أخى الأكبر باسم « الحلف ! » فقد تصالح القوم وكان من بنود الصلح أن يرسل لى مبلغ شهرى يشترك فيه الجميع المتحالفون ، ثم يتعكر جو الوفاق وينقطع « الإرسال » لعطل عائلى . . ثم يكون إصلاح ، فانقطاع إلخ .

لذلك عولت على أن أعتمد على نفسى وأكسب رزقى بعمل . ورحت

أضطرب بين أمواج تعلو وتهبط ، تقذفنى مرة إلى الشارع ، ثم تعيدنى إلى الدارسة بالأزهر ، وقذفتني في إحدى المرات بعيداً ثم أعادتنى إلى اللحاق بدار العلوم ، ودقت أوتادى بمجلة الرسالة . .

ظللت كذلك حتى أنهيت دراستى بدار العلوم . . . نحو عشر سنين لا أزعم أنها كانت بؤساً أو حرماناً كلها ، فلم تخل من متع مختلفة : مادية وروحية ، ولكن هذه المتع كانت كالبرق الخاطف وسط ظلام دامس . . كان الشباب الفائر المتحفز المقاوم يختلس من أنياب الوحش ، ويستنبت القفر ، ويستقطر الصخر !

فى أوائل ذلك العهد ذهبت إلى نائب الدائرة التى تتبعها قريتنا ، وهو عبد الستار الباسل بك أخـو حمد الباسل باشا أحد أصحاب سعد زغلول وأقطاب الوفد ، وطلبت منه أن يقدمنى إلى جريدة كوكب الشرق الوفدية كى أعمل محرراً بها ، على أن أقضى فترة تمرين ، طبقاً لما كان متبعاً فى الصحافة إذ ذاك ، إذ كان « معهد الصحافة » هو التمرين فى الصحف بدون أجر . وكان والدى يساعد النائب فى الانتخابات بدافع العقيدة الوفدية ، وكذلك أخى الأكبر وكان يخطب فى الدائرة مؤيداً له . فرحب بى وأركبنى إلى جواره فى سيارته الفارهة التى سارت بنا من الزمالك إلى إدارة كوكب الشرق بحى عابدين . دخل هو مكتب صاحب الجريدة ورئيس تحريرها أحمد حافظ عوض بك ، ومكثت خارج المكتب ، ثم استدعيت للدخول . مد لى حافظ عوض يده مصافحاً وهو جالس ، وقال كلاماً تبينت منه أنه موافق على قبولى فى الجريدة ، وأنه يرحب بأبناء « الأسر الكريمة » كعنصر طيب فى

الصحافة . . واستدعى سكرتير التحرير « محمد بيومى الجنيد » وسلمنى له وأوصاه بى . .

وقد فهمت من عبارة « الأسر الكريمة » أن نائب دائرتنا قال له إنى من أولئك الأبناء . . وسررت من ذلك ، ثم عرفت بعد أن لها وجهاً آخر لا يسر . . فإنى بعد أن قضيت شهوراً فى « التمرين » طالبت بمرتب ، وبلغ هذا الطلب سمع صاحب الجريدة ، فخاب ظنه . . كيف يطلب أحد أبناء الأسر الكريمة أجراً على عمله ؟ ! إذن فأنا صعلوك ولست من الأسر الكريمة . . ولا داعى لأن أبقى فى الجريدة . .

وبينما أنا جالس فى غرفة التحرير مع باقى المحررين دخل مدير إدارة الجريدة ، وكان قصير القامة ، ووقف أمام المكتب الذى أجلس إليه ، فوقفت ، وأنا طويل القامة . نظر إلىّ وهو يرفع وجهه ، ثم قال :

« واحد طويل زيك . . خسارة يعطل نفسه ! »

دارت بى الأرض ، وظلت تدور حتى قذفتنى إلى خارج الجريدة . .

وبينما أنا أنقل خطوى المتعثر فى « شارع قوله » حيث تقع إدارة الجريدة ، سمعت نداء مترفقاً ، فالتفت ، فرأيت الزميل الأكبر « محمد الحناوى » يستوقفنى ، ثم يصحبنى فى السير بعض المسافة ، وفهمت من حديثه الرقيق الذى قصد أن يهون به الأمر علىّ ، أنه مكلف بأن يفهمنى – إن لم أكن فهمت – أنه لا داعى لأن أعود إلى الجريدة . . وقال لى فيما قال :

« حنعمل إيه ؟ الصحافة كده ! »

التقيت بالحناوى بعد ذلك عدة مرات ، وتصادقنا ، وكان محرراً بجريدة الأهرام وشاعراً معروفاً وإن كان الآن غير معروف إلا لأمثالى القدماء . .

« على النحاس » ما كنت لأذكر هذا الاسم لولا أن قرأته فى الآونة الأخيرة فى بعض الأنباء والتعليقات الصحفية ، كما رأيته موقعاً على شكايات مرة من سوء حالته الصحية والمعيشية فى شيخوخته . . يقول كل ذلك إنه تقرر له معاش استثنائى ولكن القرار لم ينفذ . .

كان على النحاس يعمل بجريدة كوكب الشرق مترجماً أو رئيس قسم الترجمة أو كان هو كل قسم الترجمة . . رأيته هناك رجلاً فتيا مجلجل الصوت ، يطالب بمرتبه المتأخر الصرف مثل سائر المحررين ، وكان لأحمد حافظ عوض ضيعة يذهب إليها ويجىء . . سمعت على النحاس يصرخ مهدداً :

« هو رجع من العزبة وجاى الليلة ؟ قسماً بالله إن ما كان فيه فلوس لأروح أسكر له . . وآجى أشوف شغلى معاه ! »

وكان إذا عربد هز أركان إدارة الجريدة هزاً . . وأحكم رئيس التحرير ومدير الإدارة والكاتب الأول عباس محمود العقاد – إغلاق غرفهم . . الأولان اتقاء لشره ،والثالث اتقاء للصخب والضجيج . أما باقى المحررين فهم يحاولون تهدئته وفى أعماقهم ارتياح وتشف ممن لا يدفعون . .

ليت شعرى ، هل كتب على « على النحاس » أن يجأر بالمطالبة . . حتى فى وهن الشيخوخة ؟ كان الزميل يلقى الزميل الذى يعمل فى صحيفة أخرى فيسأله : هل عندكم « دفع » ؟ والشيوخ الآن يسألون : هل

عند الدولة دفع . . ؟

* * *

كنت أتقاسم الهموم مع زميل الصبا والشباب « محمد شوقى أمين » فقد كان زميلاً لى ابتداء من القسم الأولى فى الأزهر ، وكان يلبس الجبة والقفطان والعمة مثل أولاد المشايخ ، وكان هو أيضاً والده « الشيخ أمين العالم » من العلماء السنيين وإن لم تكن له وظيفة فى الأزهر ، بل كان يشتغل بالتجارة فى الأقمشة ، وكان دكانه بشارع المغربلين . وتوطدت صداقتنا فى القسم الثانوى وفى قهوة الحلمية . جمعتنا مشابه من تطلع أدبى ، وسخط على الحال ، وسوء حال . . فصل من الأزهر لأنه تزعم حركة أدبية تبلورت فى جمعية ، وكلمة جمعية كانت مخيفة للمسئولين . . ولم يسع للعودة مثل غيره من أعضاء الجمعية الذين فصلوا معه ، ومنهم طاهر أبو فاشا ، فقد قال بلسان الحال : « بركة يا جامع ! » إذ لم تكن الحال تساعد على استمراره فى طلب العلم ، وعين موظفاً بالمجمع اللغوى بعد قليل من إنشائه ، أهلته لهذه الوظيفة مقالات لغوية كان ينشرها فى جريدة الأهرام . وهو الآن عضو بالمجمع .

كنت أقاسمه الهموم ، فقد أخذ على نفسه رعاية إخوته بعد وفاة والدهم ، ولم يكن أمامه إلا الحل الذى اختاره ، وهو الوظيفة الصغيرة التى لا يحمل صاحبها مؤهلاً عالياً ولا متوسطاً وإن كان فى مستوى أدبى أعلى من مستوى المؤهلات .

لم يكن أحد غير شوقى أمين يعرف دخيلة حالى . كان قد اتصل بالأديب الكبير محمود تيمور ، وعمل معه ، بدأت العلاقة بالاتفاق

على أن يصحح أصول كتابته ، ثم تطورت إلى أكثر من التصحيح ، ورأيت ملامح من قلم الصديق المكافح تطل من خلال كتابات الكاتب الكبير .

جاءنى شوقى يوماً وقال لى : إن تيمور يزمع الكتابة عن الحجاج فى عمل أدبى ، وقد عهد إلىّ بجمع المواد التاريخية ، وهو عمل ضخم ، سكت ثم قال فى عبارة رقيقة : هل لك أن تساعدنا فيه ؟ أجبت : بكل سرور . وكان المطلوب منى أن أنقل مافى المراجع التاريخية خاصاً بالحجاج ، وكان شوقى يأتينى بالمراجع ويأخذ منى ما أكتب ، ثم يأتينى بالنقود . . . ثم انتهى العمل ، ونضب هذا المعين .

ظهرت بعد سنين مسرحية « ابن جلا » – وهو الحجاج الثقفى – لمحمود تيمور . وكنت وقت تمثيلها على المسرح أكتب فى مجلة الرسالة ، فكتبت عنها وأنا أحس فى داخلى بأسف . . لأنى أبرزت جهد المؤلف والمخرج « زكى طليمات » والممثلين ، ولم أستطع أن أشير إلى جهد آخر « وراء الكواليس » هو جهد شوقى أمين .

تحدثنا مرة – شوقى وأنا – عن الصحافة والأدب وإجداب حقلهما مما ييسر للإنسان عيشاً كريماً ، وخاصة إذا كان هذا الإنسان ناشئاً مثلنا . وقد جربت أنا ذلك وعرفت صواب هذه النتيجة المحزنة . . حقًّا إنى لا أبغى الارتزاق أساساً من الأدب ، فالميل إليه فى النفس مثل الغريزة التى تعمل عملها تلقائيًّا ، كأنه « عمل عكسى » لا إرادى ، ولكن « اللقمة التى تقيم الأود » كيف نحصل عليها ونحن لا نحسن شيئاً ولم نعد لشىء مما يجىء بها . . ؟

كان شوقى يكتب مقالات لغوية بصفحة الآداب والعلوم والفنون فى الأهرام ، بالمجان بطبيعة الحال وقتئذ ، وقد اتصل حبله برئيس التحرير « أنطون الجميل » . كان أنشطنا فى الاتصالات بالشخصيات الكبيرة ، وإن كان « يتزيد » علينا فيزعم أكثر مما يفعل . . سواء فى الاتصال نفسه أو فى تفصيلات الحديث التى يهتم فيها بأن يبرز قيمته ويعظم قدره . .

كان من ثمار صلته بأنطون الجميل أن توسط لصديق زميل لنا ، فى العمــل مصححاً بجريدة الأهرام ، وجاء ذلك الصديق فرحاً بقبوله فى هذا العمل وشاكراً لشوقى ، حكى أن أنطون الجميل قال له : اعتبر الأهرام مثل بيتكم . . فقلنا له على الفور : لا . . مثل بيتكم ؟ وماذا جنيت إذن ؟ !

قال لى شوقى : أتعرف أن التصحيح هو المهنة المضمونة الرزق فى الصــحافة ؟ وفعلاً كان المصححون يتقاضون أجورهم كاملة وبانتظام وإن كانت قليلة ، على عكس المحررين الذين يتفق معهم على أجور أكثر ، مجرد اتفاق . .

ولكنى سمعت قول صديقى ذاك من أذن وتركته يعدو من الأخرى . كان فى أعماقى سؤال : لماذا لا أعيش مما أريد عمله . . من قلمى وعصارة فكرى؟ وأعلم الآن أن ذلك السؤال كان كبيراً على . . ولكنى كنت متشبثاً به ، لعلى أشبــه فى ذلك حفيــدى الذى اشتريت له « مسدساً » فلما قلبه فى يده قال بازدراء : ما هذا ؟ أريد مسدساً حقيقيًا لا مسدس لعبة !

كثير من الأشياء كنت أتمسك بها وأنا صغير لأبدو كبيراً . غضبت غضباً شديداً – فيما بينى وبين نفسى – لحذف بعض العبارات من كلمة نشرت فى باب رسائل القراء فى إحدى الصحف ، وقلت فى نفسى : هذا اعتداء على الحرية ! ولما كبرت وكثرت تجاربى فى النشر صرت لا أعبأ لذلك كثيراً ، بل أحياناً أضحك – فى سرى – من جهل المتصرف فيما أكتب أو سوء تقديره للأمور .

ولم يستمر إعراضى عن مهنة التصحيح طويلاً ، فقد عضنى الجوع ، فاضطررت أن أذهب إلى « أحمد الصاوى محمد » صاحب ورئيس تحرير « مجلتى » التى تصدر ثقافية نصف شهرية ، وكنت قد قدمت له من قبل مقالاً ونشره ، بدون أجر طبعًا ، وطلبت العمل مصححاً للمجلة ، بعد أن علمت أن مصححها تركها .

لقيتنى هناك آنسة مصرية لطيفة ، أو باللغة التى كانت مستعملة فى إدارة المجلة : « مدموازيل » عرفت أنها سكرتيرة « الأستاذ » وكان ذلك نادراً لم ينتشر بعد . تحدثت معه تليفونيًّا بالفرنسية ، ثم قالت لى : تفضل ، وأشارت إلى مكتبه . لم أشعر فى لقائه بأننا من فصيلة واحدة . وبرغم ذلك اتفقنا على العمل وإن كان الأجر لم يعين .

عملت شهراً بمجلة « مجلتى » لا مصححاً فقط ، بل كذلك « مغلفاً » فقد كان المشتركون فيها كثيرين ، وكان أمر الإرسال إليهم يقتضى وضع النسخ فى ظروف من الورق طبعت عليها العناوين ، وفى ليلة هذا الإرسال نسهر طوال الليل فى هذا العمل ، أنا واثنان آخران هما موظفا الإدارة . قمت بذلك ليلتين هما اللتان وقعتا فى الشهر الذى

قضيته هناك . وكنت أعود إلى مسكنى فى الفجر مارًّا بشوارع القاهرة الخالية فأشعر بجمال وجلال هذا الجو الغارق فى الصمت ، وأستعذب السكون الذى لا تقلقه إلا زعقة شرطى هنا أو هناك . . وأنا – ولعلك مثلى – أتذوق موسيقى الصمت !

فى نهاية الشهر لحظت تغيرًا على ملامح « المدموازيل » وهى تقابلنى وتنهى إلى أمراً مؤسفاً . كنت آنس بها فى معظم الأيام ، وتعلمت منها أن أقول « بونجور » فى الصباح و « بونسوار » فى المساء ، لا فى مخاطبتها فقط ، بل كذلك فى مخاطبة « الأستاذ » وباقى من هناك .

الأمر المؤسف أنى مفصول من العمل . .

– لماذا يا مدموازيل ؟

– لا أدرى .

– فقط أريد أن أعرف السبب .

– أتحب أن تقابل الأستاذ ؟

– لا بأس .

وقابلت « الأستاذ » فأنهى إلى بلهجة حاسمة أن « الموضوع قد انتهى ، وكل شيء قسمة ونصيب . . وقال :

– أنت يا أستاذ ، يظهر أنك لسه ما تمرنتش كويس على التصحيح ، فى المجلة أخطاء كثيرة .

وسكت هو ، وظللت أنا ساكتاً ، فتابع كلامه الحاسم :

– مدموازيل ، أعط الأستاذ حسابه . .

وكان « حسابى » مائة وخمسين قرشاً .

وما أسفت على شىء هناك غير مفارقة الآنسة اللطيفة . . إذا كنت أنت اليوم تلقى كثيرات من مثيلاتها فى كل مكان ، فقد كانت هى فاكهة نادرة فى ذلك الزمان .

ثم أتيح لى بعد مدة من الزمن أن أدخل فى تجربة مماثلة ، مماثلة فى جنس العمل : التصحيح ، ولكنها مختلفة جداً ، كانت التجربة فى مجلة الرسالة بعد أن نشرت بها مقالات « شعراء الموسم فى الميزان » ولا أريد هنا أن أكرر ذلك الذى فصلته فى « ذكرياتى الأدبية » . فقط أريد أن أقول إنى وجدت الأستاذ الزيات من فصيلتى . . وأنست بمن هناك ولو لم تكن ثمة آنسة . .

وتذكرنى آنسة « مجلتى » بفتاة لقيتها على رصيف شارع بحى « كلوت بك » حيث كانت مطبعة الرسالة فى مقرها الأول الذى اشتراها فيه الزيات من « واحد خواجة » . وجه الشبه بين الفتاتين الرقة الأنثوية الآسرة . . وهما فيما عدا ذلك مختلفتان بل متناقضتان ، تلك فتاة متعلمة تعمل عملا شريفاً ، وهذه من فتيات الفتح : فتح الزجاجات لرواد الحانات الذين يسعون إلى مجالسة هؤلاء الفتيات وما يلابس هذه المجالسة . . كانت تعمل هناك فى « قهوة وبار » بذلك الحى . بدأتنى بالكلام وهى تتصدى لى أمام المحل الذى تعمل فيه .

– أراك تمر هنا كثيراً . .

قلت مأخوذاً :

– وماذا فى هذا ؟

– قلبى مال إليك . .

أجفلت وقلبي هو أيضاً ميال ! وقلت متلجلجاً :

– ولكنى . . ولكنك . . .

أنقذتنى من اللجلجة قائلة :

– أنا لا أريد منك شيئاً ، فقط نجلس قليلاً ، فنجان قهوة على حسابى . . لا تخف !

ولم أكن غرًّا ، فأنا أخاف فعلاً . . أخاف أن تستدرجنى إلى الدخول وتورطنى فى فتح زجاجة . . ثمنها يقصم ظهر الجنيهين اللذين أتقاضاهما شهريًّا مقابل تصحيح الرسالة !

قلت لها وأنا أسير :

– مرة ثانية . .

قالت وهى ترنو إلى فى رقة وانكسار غير معهودين فى هذا الصنف !

– راحتك يا حبيبى !

شغل بها فكرى وشعورى ، ولكن خوفى المشار إليه جعلنى أغير الطريق إلى المطبعة ، ثم وجدتنى أعود إلى طريقى الأول . . فلما رأتنى قالت وهى تقف أمامى تكاد تلتصق بى :

– اخص عليك . . أنت فين ؟

اكتفيت بالنظر الصامت والقلب واجف والعقل خائف !

– أتبخل على بخمس دقائق تشرب فيها فنجان قهوة أو زجاجة كازوزة . . ؟

لم أبخل عليها ! وجلست معها كما أرادت :

كلام مرتبك منى لا يخلو من عبط . . وعبارات لطيفة لبقة

منها ، و « زغرات » من الخواجة الذى يدير المحل تتحمل التأنيب على جلب هذا الزبون الذى لا « يفتح » .

أظن أنها قالت إنها تستريح إلى مجالستى وتعد هذه المجالسة راحة من المعربدين . . وإنها تتوسمنى شاباً طيباً « غلبان ! »

قلت فى نفسى وأنا أضحك فى نفسى أيضاً : أهى تؤدى الزكاة ؟ !

وأمرنى العقل الخائف أن أغير الطريق ثانية ، وقال لى : ألم تقرأ ما قاله العربى القديم : « شر الفتيان المفلس الطروب » . ولم يطل التردد بين الطريقين ، فقد انتقلت المطبعة إلى « العمارة » التى بناها الزيات بحى عابدين . وخصص الطابق الأرضى منها للمطبعة .

° ° °

أرانى قد تقدمت بك فى الزمن كثيراً ، وخلفت ورائى ما يجدر أن نرجع إليه . بعد أن فصلت من العمل فى « مجلتى » تفرغت للغدوات والروحات بين أماكن متعددة فى القاهرة ، أهمها المعهد وقهوة الحلمية ودار الكتب وندوة القاياتى ، أقضى فى ذلك كله معظم النهار وشطراً من الليل ، وكنت أقيم وحدى فى غرفة من شقة مشتركة فى الحلمية ، بها ماء وليس بها نور ، ولم أسكن بعد فى مسكن تدخله الكهرباء ، فما زلت أستعمل المصباح البترولى الذى كان يضايقنى نوره غير الكافى . ولهذا حرصت على النوم المبكر لأستيقظ مبكراً ، وأقرأ أو أكتب إن عن لى أن أكتب ، وقد لزمت هذه العادة حتى الآن ، أكدها فيما بعد عملى بمجلة الرسالة الذى كان يستغرق أول الليل ، فإذا عدت إلى المسكن كنت متعباً فأنام ، وأستيقظ مبكراً وأقرأ ، على أن قراءاتى لم تكن

مقصورة على وقت الصباح ، وكثيراً ما أدع كل شيء حتى الدراسة الرسمية وأذهب إلى دار الكتب فأقضى فيها ساعات أنفصل فيها عن العالم وعن همومى . كانت الهموم تراودنى أكثر ما تراودنى فى دروس العلوم الأزهرية القديمة ، وكنت أدفنها فى النوم على الدرج بأن أكور ذراعى وأضع رأسى عليها وأروح فى النوم ، وكان معظم المشايخ لا يعبأون بذلك ، ولا سيما إذا كان الطالب مشاكساً ، كأنهم يقولون : نوم الظالم عبادة . . وكانت الفترات الواقعة بين الحصص بمثابة « نزهات » نتمشى فيها أو نجتمع واقفين فى بعض أركان الفناء ، نتبادل المداعبات والمناقشات . وبعد أن فصل شوقى أمين ورفاق آخرون اقتصر « الاستقطاب الأدبى » على اثنين : طاهر أبو فاشا ومحمد رفعت فتح الله – هو الآن أستاذ ورئيس قسم بكلية اللغة العربية بالجامعة الأزهرية – كنت أسير أو أقف مع الشيخ رفعت ، أنا طويل نحيف وهو قصير سمين ، فإذا جاء أبو فاشا فلا بد أن يعدل وضعنا بحيث يكون الشيخ رفعت بجوارى مثل « الصفر الإنجليزى » وأشكل معه رقم « ١٥ » وفى الصباح عند بدء الحصة الأولى يأتى أبو فاشا إلى حجرة الدراسة حيث نجلس – الشيخ رفعت وأنا – متجاورين قريباً من الباب ، فيطل منه ويقول فى تنغيم مرح .

صباح الخير يا عـــبا وسلم لى على الدبا !

و « عبا » هو عباس ، و « الدبا » هى الزميل واسع الصدر وإن كان لا يترك ثأره ولو بعد حين ، فهو يفخر على أبى فاشا وعلىّ بأن له عرضاً . . على خلافنا !

كنا نتعاطى الحياة بطريقة مرحة ، ونتغلب على ما نقاسى أو

ما لا يعجبنا بالفكاهة والسخرية ، كان ذلك هو طابع جيل الأدباء الذى تفتحت عليه عيوننا فى الحاضر ، وقرأنا جذوره فى تراثنا الأدبى ، فنحن – الشباب – لنا أسوة بالمحدثين والقدماء على السواء . كان شوقى أمين يغيب عنا ثم يأتى فيحدثنا عن المازنى وحسين شفيق المصرى ومحمد السباعى وغيرهم ، ولا يخلو حديثه من « الزيادة » واستعظمنا أمره عندما قال إنه اتصل بأمير الشعراء أحمد شوقى بك . . وعقب ذلك كتب مقالا نشر فى مجلة « الكشكول » تحت عنوان « قمبيز بين القزم والعملاق » يدافع فيه عن مسرحية قمبيز الشعرية لشوقى ويرد على النقد الذى وجه إليها من المازنى (القزم) والعقاد (العملاق) .

قادنا محمد شوقى أمين إلى ندوة القاياتى : حارة مسدودة بجوار باب زويلة تنتهى بمنزل كبير عتيق هو منزل الأسرة القاياتية فى القاهرة ، وهى أسرة عريقة فى الصوفية أصلها فى الصعيد اشتهر منها فى عالم السياسة الشيخ مصطفى القاياتى : عالم من علماء الأزهر ، يدرس فيه حيناً ، وحيناً يبعد عن التدريس فيه فى عهد الحكومات غير الوفدية ، إذ كان من أعضاء الهيئة البرلمانية الوفدية ، وكان من خطباء الوطنية المعدودين . رأيته مرة واحدة فى جامع برقوق ، يدرس هناك مادة الإنشاء لطلبة القسم الثانوى ومنهم أخى ، فذهبت معه لأرى هذا الشيخ الذى ذاع صيته وأسمع منه . وأذكر أنه كان يشرح للطلاب كيف يكتبون موضوع الإنشاء « اكتب تاريخ حياتك » وقد استظرفته وهو يقول : أدخل فى الموضوع مباشرة ولا تلجأ إلى المقدمات ، لا داعى مثلا لمثل ما رأيته فى كراسة طالب من ذكر زواج والده بوالدته ثم اجتماعهما فى

ليلة موفقة حملت فيها والدته به . .

وبرز من الأسرة القاياتية فى عالم الأدب السيد / حسن القاياتى الشاعر الكبير الذى يتصدر الندوة التى نقصدها ، رجل ظريف أنيق فى ملبسه الأزهرى ، يمتلئ مجلسه فى فناء الدار الذى رصت فيه الأرائك والكراسى ، بالأدباء ومدعى الأدب ، وهو يفسح صدره بل يهش لكثير مما يقال ظريفاً كان أو سخيفاً ، فكل من هذين يضحك ويسلى .

قام رجل من بين الجالسين ، والتفتت إليه الوجوه باسمة ساخرة . على رأسه طربوش طويل جداً ، وله شارب مبروم ، وكرش بارزة . . وزع على الحاضرين نسخاً من بطاقة (كارت) عملها حديثاً : « الأستاذ عبد الحكيم . . الشاعر الثانى والناقد الأول فى مصر » ترك منزلة الشاعر الأول لصاحب الندوة « القاياتى »

مرة كان معنا من أصحابنا الشيخ رفعت فتح الله . ظل ساكناً وهو يلحظ « الأستاذ عبد الحكيم » وفجأة قال له فى لهجة الشاتم : أستاذ عبد الحكيم . . أنت جبان الكلب ! وهى عبارة مدح كناية عن الكرم ، كما تعلم . فما كان من « الأستاذ » إلا أن غضب ووقف محتجاً على هذه « الشتيمة » وقال قولته الغاضبة التى حفظها الجميع وصارت من « المأثورات » الفكاهية :

« أنتم من الحيوانية أقرب إلى الإنسانية . . ولكن الغرض تحميس الضمير ! »

ألا لا يظن أدباؤنا الشبان الذين يكتبون الآن كلاماً مماثلاً . . أنهم يأتون بجديد !



نقيب الأدباء

كان ذلك فى أوائل الثلاثينات من هذا القرن العشرين ، وذلك هو ما أشرت إليه فى الفصل السابق ، إذ قلت : كنا نتعاطى الحياة بطريقة مرحة ، ونتغلب على ما نقاسى أو ما لا يعجبنا بالفكاهة والسخرية ، وكان ذلك طابع جيل الأدباء الذى تفتحت عليه عيوننا .

كنا ننحت فى الصخر ، لا نجد أى شىء – من خارج نفوسنا – يشجعنا ، فاكتفينا بالكامن فى أعماقنا يستحثنا للسير ، وإن كان السير فى متاهة . . يهيب بنا ويهتف : اسخروا ، اضحكوا . . خذوا المثل والقدوة ممن قبلكم : حافظ إبراهيم الشاعر العظيم الخالد ، كان فى مجلس من أمثاله الأدباء المفلسين ، وأراد أحدهم أن يعرف الوقت ، فتساءل : كم تكون الساعة الآن ؟ قال آخر :

– يا أخى ، هوه فيه أديب معاه ساعة !

وأدخل حافظ إبراهيم أصابعه فى جيب البنطلون الصغير ، وأخرج ساعة جيب كان يقول إنه يحملها لكى تبين له الليل من النهار ولا يهم ما تقدم أو تؤخر . . ودفعها من تحت المنضدة إلى جاره هامساً وهو يلكزه :

– خذ ، خذ هذه الساعة . .

– لا ، لا يا عم . . أتريد أن يقولوا إنى لست أديباً !

ما عدا نفراً قليلاً ، تعلق بحبال الأحزاب السياسية ، مثل العقاد وطه حسين ، طنطنت لهم الأحزاب وصحف الأحزاب ، وطنطنوا هم لأنفسهم بالمقالات الحزبية الفاقعة . .

انتقل طه حسين من معسكر الأحرار الدستوريين إلى معسكر الوفد ، وكان العقاد رابضاً فى هذا المعسكر ، فى يقظة الحارس العتيد العنيد . ولم يكن فى وسع طه حسين إلا أن يؤلف قلبه ، وبماذا ؟ بإمارة الشعر ، يبـايعه بها فى حفل أقيم لتكريمه . وكان ذلك بعد وفاة أمير الشعراء أحمد شوقى . وقيل إن طه حسين يريد بذلك أن يلهى العقاد بإمارة الشعر كى يخلو له عالم الكتابة فيكون أمير النثر . .

ومهما كان الأمر فإن حزب الوفد فرح بالأديبين الكبيرين : أحدهما انضم إليه وأشهر قلمه ضد خصومه ، والآخر – الكاتب الوفدى الأصيل – صار أميراً للشعراء !

كانت مظاهرة سياسية خالصة ، أى أنها بعيدة عن الأدب وتقديره الحقيقى وإن استغـل فيها اسمه . وقد لقى تنصيب العقاد أميراً للشعراء سخرية عامة ، فقد كان الناس – أدباء وغير أدباء – لا يعترفون به شاعراً فضلاً عن أمير . . وأنا بهذا أحكى عن مشاعر الناس وآرائهم وقتذاك . وهذا لا ينفى إعجاب « الحواريين » بالأستاذ الرائد ، ولكن المحقق أنهم كانوا قلة قليلة معدودة .

كان الناس يتقبلون ، بل ينادون بأن العقاد هو الكاتب الجبار – كما أطلق عليه – أما هو – شاعراً – فلا . . وأما هو – أميراً للشعراء –

فكلاً وألف كلا .

أما الشعراء الذين نصب عليهم أميراً فقد رفضوا هذه الإمارة ، وكيف رفضوا ؟

نعود إلى البدء الذى بدأت به هذا الفصل ، وهو أنا كنا نأخذ الأمور أخذاً ساخرًا ، وأن السخرية كانت هى سلاحنا فى الاحتجاج ، وقد أخذنا هذا الأسلوب عن أسلافنا : عن جيلنا السابق ، وأنت تعلم أن ذلك ديدن الشعب المصرى عندما يغلب على أمره . فالأمر إذن ممتد من جذره إلى فرع منه وهو الأدباء كباراً وصغاراً .

أما الصغار فنحن . . نحن الذين حدثتك عن أطراف من أحوالهم فى الفصل الماضى وما قبله . وأما الكبار فهم شعراء البلد . . سواء منهم المحافظون مثل الأسمر والهراوى والزين وكامل كيلانى ، والمجددون مثل ناجى ورامى .

كانت بؤرة التجمع ، تجمع الكبار ، هى دار الكتب المصرية القائمة على جانب من ميدان باب الخلق مثل أم عظيمة خصبة ، يرضع الجميع العلم والمعرفة من أثداء كتبها . وكان كثير من الأدباء والشعراء موظفين بها ، وكان غيرهم من الأدباء يفدون إليهم فى ندوتهم : فى « البوفيه » الملاصق للبوابة من الداخل (انظر – إذا شئت – حديثنا عن هذه الندوة فى كتاب « ذكرياتى الأدبية ») .

ووقع الاختيار على « البرنس » كى يكون أميراً للشعراء ! ! وهو « نساخ » بدار الكتب ، يراه روادها دائماً فى طرف من أطراف قاعة المطالعة عاكفاً على نسخ المخطوطات القديمة ، بيده اليمنى قلم « بسط » يمليه

من دواة أمامه ، وبيده اليسرى أو على الورق منظار مكبر ، يكتب للدار أو لمن يريد بأجر زهيد . . رأس كبير لا يعلم إلا الله ماذا فيه . . وهل يعلق به شيء مما ينسخه صاحبه ؟ فهو إن نطق لا يكاد يبين ، وتحت الرأس جسم بعضه هزيل وبعضه متضخم .

قالوا : هذا أمير الشعراء ، واسمه « برنس » من الأصل . . أو قالوا : إن كان لا بد للشعراء من أمير فهو « البرنس » وإذا كانت الحفلات تقام لإمارة الشعر ، فهذا حفل البرنس أميرنا الهمام المفدى . .

وأقيم الحفل فعلاً ، وأحضر البرنس محفوفاً بمظاهر التكريم والتقدير ، ووضع على منصة . وألقيت القصائد بين يديه . ولكى تدرك مضامين هذه القصائد حسبك هذا البيت من قصيدة كامل كيلانى الموجهة إلى البرنس أمير الشعراء :

إن يركب الجحش شعرور لحاجته فما رأينـــاك إلا راكباً جملا

والشعرور – الذى يركب الجحش لحاجة – هو فى رأى المحتفلين والمعبر عنهم – عباس محمود العقاد .

* * *

فى تلك الأثناء كان أخونا شوقى أمين قد اتصل بكامل كيلانى كصديق ومعاون له فى كتب الأطفال التى وجه إليها أكبر همه وجهده . ومسكين شوقى أمين . . عمل كثيراً لغيره ، ولم يعمل لنفسه إلا القليل . اتصل بعد ذلك بمحمود تيمور ، ولكن معاونته لتيمور تختلف عن معاونته لكيلانى ؛ فهذا كان على مستوى جيد من دراسة اللغة العربية بخلاف الأول ، فكانت المعاونة لكيلانى من حيث حاجة الإنتاج الضخم

إلى هذه المعاونة التى كانت فى الكم لا فى الكيف . وامتدت معاونة شوقى أمين إلى كتب كبار المفتشين فى وزارة المعارف ، سواء فى التأليف أو تحقيق التراث .

وكان كامل كيلانى أولاً يأتى إلى قهوة الحلمية فيقصد مجلس زملائه الكبار مثل الهراوى والأسمر وحسين شفيق المصرى ، ثم – بحكم صلته الجديدة بشوقى – عرج على مجلسنا بنفس القهوة كأستاذ كبير متواضع . وانعقدت صلة الصداقة بينه وبيننا جميعاً

لحظت أنه – كامل كيلانى – يشعر بالمرارة وتعيش فى أعماقه روح المنافسة إزاء رجلين : العقاد وأحمد زكى أبو شادى ، فقد كان صديقاً لكل منهما ، ولكنهما – كما كان يصور – لم يفيا له ولم يرعيا صداقته . وكانت مرارة نفسه أن يراهما يكبران ويعظم شأنهما فى عالم الأدب ، فكان دائم الحط من هذا الشأن فى المجالس ، فلم يكن يدخل معارك قلمية أو حتى يكتب فى النقد ، إذ وجه اهتمامه كله إلى الدراسة ، ومن مآثره على الأدب مختارات ديوان ابن الرومى التى انتزعها ذهباً من أكوام يختلط فيها التبر بالتراب . ثم وجه معظم اهتمامه إلى التأليف للأطفال ، ولا بد أنه رأى هذا العمل أجدى عليه وعلى أسرته وأولاده – وهو رجل مكافح – من غيره . وكان مجلسه كله أحاديث أدبية ، وكان يستأثر بالكلام فى المجلس ، وينطلق بطلاوة ولباقة مع حسن ذوق ودقة فهم للمعانى الأدبية . وكان كثيراً ما يعقد الموازنة بين معانى شكسبير ومعانى أبى العلاء المعرى وابن الرومى ، ويرجح هذه على تلك .

ثم هجر كامل كيلانى قهوة الحلمية ، واكترى شقة صغيرة فى

شارع حسن الأكبر قرب ميدان باب الخلق ، جعلها مكتباً ونادياً يؤمه الأدباء وبعض المتأدبين من ذوى المناصب الكبيرة فى مصر والعالم العربى ، وكان منهم وزراء سابقون مثل محمد على علوبة وجمال الدين أباظة ، وأمراء عرب مثل سلطان لحج « المبعد » وأحمد حلمى رئيس حكومة فلسطين « المبعدة » . وكانت الندوة أشبه بمصطبة يقضى بها وقت الفراغ من قضت عليهم الظروف بالفراغ . . وكان فارسها المجلى صاحب الندوة كامل كيلانى .

وقد استرعى انتباهى شاب صغير لم تساعده الظروف على مجاوزة المرحلة الابتدائية (على النظام القديم) فى التعليم ، فعمل مع كامل كيلانى . . قل إنه سكرتير ، قل إنه كاتب ، قل إنه فراش ، قل إنه ساع فقد كان عمله مركباً من هذه كلها . اسمه « سيد مصطفى » . كان يحدثنى عن أفكار ومشروعات تجول برأسه ، فأدهش ، وأقول له : اسمع يا سيد ، أحد أمرين : إما أنك مجنون ، وإما أنك « مشروع » رجل خطير . . وما هى إلا بضع سنين حتى رأيته يؤلف « رابطة الإصلاح الاجتماعى » ويعين لها رئيساً : محمد حسن العشماوى باشا الذى كان وزيراً للمعارف ! ويكون هو « سيد مصطفى » السكرتير العام للرابطة ، ويصير هو المهيمن عليها وعلى مؤسساتها من مدارس ومعاهد لا تزال قائمة ، وأصدر مجلة باسم الرابطة أظنها كانت نصف شهرية ، كتبت فيها بضع مقالات . وكنت أقول له مازحاً : لا أريد منكم أجراً على المقالات (لم يكن ثمة دفع) فقط . . أريد «بنوار» بمسرح الأوبرا فى الحفلة السنوية التى تحييها أم كلثوم استجابة لدعوة الرابطة وتبرعاً لأعمالها

الخيرية الإصلاحية .

كان ذلك الشاب نادرة فى عصره ، وأعتقد أنه كان نظيفاً : لم يأخذ إلا بمقدار ما أعطى . وكان دمث الخلق لم يغيره نجاحه ، وعمل خيراً كثيراً لا بد أن ينفعه فى الحياة الأخرى التى انتقل إليها منذ عدد من السنين .

توطدت صلتنا بكامل كيلانى فى تلك الفترة ، وقد وقفت من علاقتى به على أشياء كثيرة ، وأدركت كثيراً من خفايا الحياة الأدبية . كنت ألمس ألمه النفسى من تقدم أدباء كبار عليه يرى نفسه ليس أقل منهم إن لم يكن أعظم . بث فى نفسى – لفترة طويلة – استصغاراً لشأن بعض أولئك الأدباء ، مثل أحمد زكى أبو شادى ، وكان يأخذ منه موقف الأديب المتثبت المجدد على أسس أصيلة ، من الأديب المتهور المهرج المدعى للتجديد . كان يضحك ساخراً وهو يروى عنه بعض عبارات جاءت فى شعره أو نثره شطح فيها ، مثل قوله : « ودخل الهواء من النافذة مثل رجل . . » وكنت أفكر فى بعض ما يحكيه عنه – إذا خلوت بعد – فأجده إما غير معقول ، وإما أنه لا مأخذ فيه ، بل قد يكون حسناً يحسب له لا عليه . .

ولكنى أشفق على الصديق الكبير ، فأجاريه على الباطل !

لى صورة : صورة شاب فى ريعان الصبا – منشورة فى كتاب عنوانه « نقيب الأدباء » بصحبة مقال لى عن « منشئ الجيل » : كامل كيلانى . والمقال فى الأصل كان خطبة قصيرة ألقيتها فى حفل تكريم « نقيب الأدباء : كامل كيلانى » أقيم هذا الحفل فى دار جمعية الشبان المسلمين بتدبير

وإنفاق كامل كيلانى . وكان صديقه صادق عنبر – الكاتب الكبير العظيم الشأن فى ذلك الوقت – يبدو كأنه المنظم والمخرج للحفل ، ولكن كامل كيلانى كان فى الحقيقة وراء كل شىء وجمعت الخطب والقصائد والكلمات التى بعث بها بعض الكبراء للمجاملة فى ذلك الكتاب مع مقدمة ضافية لصادق عنبر .

والظريف الذى دهشت له وضحكت منه فى سرى . . أن قال لى كامل كيلانى فى لحظة من اللحظات التى كان يسرى فيها عن نفسه بالسخرية حتى من نفسه – قال ما معناه : إن قبل الأمر ، أمر نقابة الأدباء ، قبولاً جديًا فهذا كسب . وإن قوبل بالهزء فهو هزء مقرون بالهزء من إمارة الشعراء . . وكله كلام فارغ !

كان كامل كيلانى – فى لحظاته الساخرة – يمسك بالجريدة ويقرأ سطوراً أعمدتها أفقيًا : يقرأ السطر من العمود ويتبعه بالسطر الذى بحذائه من العمود الثانى ، لا الذى تحته المرتبط به . . ثم يقول : مثل شعر أبى شادى وجماعة « أبولو » التى يتزعمها أبو شادى . . وكان يستغل لفظ « أبولو » فى التورية بفعل مضارع لمعنى آخر !

ووقع منى أمر جاريت فيه الصديق كامل كيلانى مجاملة له وأنا كاره . . فى أثناء الإعداد لحفل تكريمه لفت نظرى إلى أبيات للشاعر أحمد الزين قالها فى الإشادة بقصص كيلانى المؤلفة للأطفال ، وأنها مناسبة للاستشهاد بها فى موضوعى « منشئ الجيل »

– يا سلام يابـوعبس . . لو تاخدها كلها فى أثناء الكلام !

هكذا قال لى . وكان أحمد الزين قد نأى بجانبه عن تكريم كامل

كيلانى وأبى أن يبايعه بالنقابة . .

وبذلك أشرك (بالبناء للمجهول) الزين فى ذلك التكريم برغمه !

وقد عاتبنى الزين على ذلك بعد ذلك ، عندما توثقت بيننا الصداقة ، عاتبنى عتاباً خفيفاً ، يخففه أننا لم نكن صديقين وقتذاك ، فلم يكن له على حق . ولكنى أنا لم أخل نفسى من عتاب نفسى ، فهو استغلال غير سليم ، وكان يجب أن أرفضه .

ومن جهة أخرى استغل الزين ذلك وغيره فى أن يوقع فى روعى ما يبعدنى عن كامل كيلانى و « شلته » وفيهم صديق العمر محمد شوقى أمين . وبكل ما لدى من سلامة النية ، أو قل من « العبط » ، تأثرت بذلك ، فاتخذت من أمر تافه لا أذكره لأنه تافه . . ذريعة إلى الغضب من الصديق شوقى ومقاطعته زمناً . ومازلت أذكر رسالة كتبها إلىّ شوقى أمين يعاتبنى فيها على المقاطعة ويقول فيها ما معناه : إذا كنت قد تجردت من قلبك فرفقاً بقلبى !

رق قلبى فعلاً ، ولكنى تماديت ، وظللت مجافياً ، حتى تغلبت رقة القلب على التمادى .

تعلمت من ذلك وأشباهه أن آخذ الناس على علاتهم ، وأزن الصديق هكذا : أضع حسناته فى كفة ، وسيئاته أو هفواته فى الكفة الأخرى ، فإذا رجحت الأولى غفرت له ما فى الثانية . وهكذا يفعل الله .

وبقيت صديقاً للزين طوال حياته ، بل حتى الآن . . وكتبت عنه بعد وفاته فى مناسبات كثيرة . وترى شيئاً من ذلك فى كتاب « ذكرياتى الأدبية » . كان يعجبنى ، بل يفتننى منه « طبيعيته » أقصد سلوكه

الطبيعى الخالص : مثلاً ، أكون فى بيته جالساً فى حجرة الاستقبال ، فيأتى إلى من الداخل وفى يده برتقالة ويقول لى : خذ قشر هذه وكلها . كنت وإياه فى حفل شاى وكان فيه برتقال فى أطباق مع سكاكين ، فتناول واحدة وشرع يقشرها بيده ويفصصها ويأكل ، وهو يقول : « لست أدرى لماذا نقطع البرتقال بالسكين ونريق عصيره فى الأطباق وقد جعله الله لنا فصًا فصًا . ينسكب عصيره فى أفواهنا جملة لا ينقص منه شىء » ومن الناحية النفسية كان هذا تبريراً لحالته من حيث إنه ضرير يفضل أخذ البرتقالة والعمل فيها بيده على أن يتحسسها ويتحسس السكين فى الطبق . .

كنا فى حجرة الاستقبال بشقته ، وسمعنا ولده الصغير الوحيد يبكى و « يزن » بطريقة الطفل الذى يطلب شيئاً ويصر على نيله بالبكاء المتصل ، فقام إليه منفعلاً وضربه ، وعاد ، فقلت له :

– لماذا تضربه ؟

وكنت إذ ذاك فى السنة الأولى بدار العلوم ، وكنا ندرس التربية وعلم النفس ، فأردت أن أظهر علمى . . فتابعت :

– إن الطريقة المثلى فى التربية والتأديب هى الإقناع ، أما الضرب فإنه يشعر الطفل بأنه مضطهد

فقال وكأنه ضاق بتعالمى :

– ومن قال لك إنى أؤدبه ؟ أنا ما ضربت ابنى تأديبا . .

– ولم ضربته إذن ؟

– لأنه غاظنى !

ثم ذهب إليه واسترضاه بأنه سيأخذه إلى « الفطاطرى » بميدان السيدة ويشترى له فطيرة حلوة. . . وعادوهو يقول فى صراحة : أنا أعرف أن هذه ليست طريقة سليمة ، ولكنا – يا أستاذ – نندفع بعواطفنا . .

ومن طبيعته التى كنت أستريح إليها أنى كنت أقبل عليه فى مكتبه بدار الكتب وكاتبه يقرأ له بعض النصوص التى يحققها فى كتب التراث ، فأحيي وأجلس ، دون أن يرد على ، لانهماكه فى النص ، وأتشاغل بقراءة أى شىء ، فلما يفرغ يستدير إلى قائلاً : « إزيك يا عباس! » ومرة قال لى : أنا – كما ترانى – أعامل أصدقائى الذين أحبهم بغير أى تكليف ، فإذا رأيتنى أحتفى بأحد وأهتم بتحيته فاعلم أنى أنافقه !

وقد أشعرنى بالخزى فى موقف لا أنساه ، كنت قد تزوجت حديثاً بعد تخرجى . وذهبت أنا وزوجتى لزيارتهم . وانفلتت زوجتى – طبقاً لتوجيهى – إلى الداخل حيث استقبلتها زوجته ، دون أن تسلم عليه ! وكان دافعى لذلك أن زوجته لا تقابلنى ، فقصدت المعاملة بالمثل . .

قال لى بصراحته المعهودة :

– لم هذا ؟

سكت أنا ، فتابع وهو يرد على ما قام بنفسى دون أن أصرح به :

– يا أستاذ ، مراتى فلاحة . بنت عمى ، زوجونى إياها وأنا طالب لتخدمنى .

لم أستطع الرد عليه ، فاكتفيت بالرد على نفسى قائلاً لها : وأنت أيضاً فلاح ! متى تتخلص من هذا « الفلح » ؟

مات الشاعر « الشيخ عبد المطلب » وكان صديقاً للزين ، واعتزم

الشعراء إقامة حفل تأبين للفقيد . وجعل شاعرنا أحمد الزين يؤلف قصيدة الرثاء . وانشغل فكره ، وراح يتمشى فى الشقة سارحاً ، لا يلتفت إلى شيء مما حوله ، ولاحظت زوجته ذلك ، فقالت له :

– مالك ؟

– أنت ، تعلمين أن الشيخ عبد المطلب كان عزيزاً علىّ ، وأنا أعمل قصيدة فى رثائه .

– قصيدة على روحه ؟ !

– نعم ، قصيدة أرثيه بها .

– وماذا يستفيد هو من قصيدتك ؟ اطلع عليه بسبت فاكهة أو فطير . . أحسن من الشعر وتعب القلب !

* * *

كان هؤلاء الأدباء وأمثالهم من محافظين ومجددين يكادون يعيشون فى الظل ، بالنسبة إلى القلة اللامعة لعوامل خارجة عن القيمة الأدبية ذاتها . ومن تلك العوامل الانتماء إلى الأحزاب ، والكتابة فى الصحافة المنتشرة . ويكاد تاريخ الأدب الذى تجرى فيه الآن بعض الدراسات – يكاد يهملهم ، موجهاً أضواء إلى القلة التى لمعت واستفاضت شهرتها .

وكان حظهم من العيش قليلاً ، لا يرتفع نصيب أحدهم عن الكفاف . وكنت أنا بالذات دون ذلك ، أى لا أبلغ حد الكفاف ، بل كان أكبر همى أن أحصل على الضرورى من القوت ، إذا التفت ورائى : هناك فى البلد . . فلا شى يأتى ، وإن نظرت أمامى وجدت الصخر والأشواك فى طريقى . . لا أكاد أحصل على شيء حتى أمنع وأرد إلى لا شيء . .

لا أدين لأحد بفضل أكثر ولا أعظم مما أدين للفول المدمس . . وما يزال ولائى له حتى اليوم . إن عز اللحم أو الدجاج أو السمك ، وحالت دونها طوابير المجمعات الاستهلاكية . . ففى الفول غناء وإليه المآب . والحمد لله على أنه فى متناول اليد ، حقاً هو اليوم غال ، ولكن ثمنه موفور وأكثر ، ولحسن الحظ . . عندما كانت الفلوس شحيحة كان الفول رخيصاً : بخمسة مليمات تقدم لك صينية عليها رغيف وفول بزيت وسلطة . . طحينة إن شئت ، وطماطم إن فضلت . أنا الآن لا أستطيع أن آكل ما أملك ، فقدرتى الشرائية أكبر من قدرتى الهضمية . وكنت فيما خلا من الزمان لا أستطيع أن أحصل على ما أريد من طعام ، والنتيجة أن جسمى لا يحصل على ما يحتاج إليه من الغذاء الجيد فى الحالة الثانية ، ومن الكمية الكافية فى الحالة الأولى . وهذا سر نحافتى كما ترانى إن كنت ترانى .

وكان لنا صاحبان : أحدهما الشيخ رفعت فتح الله ، يدعونا بين الحين والحين إلى أكلة كباب عند الحاتى . والآخر حلمى درويش ابن القاضى الشرعى ، يدعونا هو أيضاً إلى حمام محشو بالفريك . راح حلمى درويش ضحية السياسة الحزبية ، كان ينتمى بحماسة شديدة إلى الأحرار الدستوريين ، ورشح نفسه مراراً لعضوية مجلس النواب ، ولكنه أخفق ، وظل يكافح فى هذا الميدان حتى اصطلحت عليه أمراض مازالت به حتى أسلمته إلى الموت .

مما أذكره لأبى أن كنت مرة فى البلد ، وجاءنى خطاب من صديقى شوقى أمين يقول فيه : « لأسلطن عليك أمة من الأكلة لو مدت خراطيمها

فى مياه النيل لأتت عليها » وكان الأصحاب يظفرون بأكلة من دجاج الفيوم عند عودتى من هناك إلى القاهرة . قرأ أبى ذلك الخطاب فضحك كثيراً ، وراح يجمع الدجاج ويذبح ، ويأمر بالتنظيف . إلخ وهو يستحث القوم قائلاً : هيا ، إن الأكلة ينتظرونه فى مصر . .

وكان كباب الشيخ رفعت ، وحمام حلمى درويش ، ودجاج الفيوم ، مواسم بعيدة الفواصل الزمنية ، ولا دائم إلا الله والفول . .

* * *

نشأت فى نفسى عقدة ، لعلها عقدة الفقر المدقع . كنت أشعر أحياناً بالضآلة فى مجالس الكبار : كبار الأدباء ، وكبار الموظفين ، ومن أشبه . . صوتى لا يكاد يبين ، والسكوت ملاذى ألتفت فى أحيان كثيرة إلى أن بى داء السكوت فى المجالس ، وليتنى أحسن الاستماع ، فإنى أسرح ولا أنتبه لما يقال ، فكنت أعالج هذا الداء بأن أقسر نفسى على الكلام قسرا ولو بدون فائدة ، وأجتهد فى رفع نبرات الصوت وتقويتها . ولم يكن ذلك عن ضعف أو جبن ، وإنما كنت أرى كأنى آت من عالم غير عالمهم ، وخاصة عندما أرى لهم قدرة مالية لا تتوافر لى ، ومع ذلك لم يخطر لى قط أن أسلك سبيلا غير عادى للوصول إلى أى شىء أو أية غاية . وأقصد بالسبيل غير العادى ما لا يتفق مع مثل وقيم نشأت عليها وقد تبين لى فيما بعد أنى أحرص على الوسيلة قبل الغاية ، فإن لم أرض الأولى فلا كانت الثانية . . أقول هذا بلا قصد الفخر ، فأنا فى هذه المرحلة من حياتى لا أشعر بأى دافع إلى فخر ، وأرى المباهاة عبثاً . على أنه ربما كان إحجامى عما يشين يرجع إلى عجز وقلة حيلة . من يدرى ؟ !

لم يكن السرحان عادة متأصلة ، بل طرأ على مع طروء الهموم والاهتمامات الجديدة وقصور الإمكان عن مداها . رب كلمة أو حركة من جليس أثارت فى نفسى خواطر وأفكاراً بعيدة عما يسترسل فيه من حديث . أذكر أن أحدهم كان يحدثنى مرة وأنا فى ذلك السرحان ، فكنت أقول له عند كل مقطع من كلامه : « كويس ! » وأنا أفكر فى تآكل نسيج بنطلونى فوق الركبة ، وأحدس أنه لا بد أن يكون مثله فى الخلف . . وليس عندى آخر أحسن حالاً . وكانت عيناى مثبتتين على بنطلونه ، وكأنى أقول له : « بنطلونك كويس ! » . وفجأة رفع صوته محتجًّا فى شبه غضب :

– كويس إيه يا أستاذ : أقول لك : إنى مرضت مرضاً شديداً ألزمنى الفراش ، فتقول : كويس ؟ !

وتخلصت من الحرج بأن قلت له :

– ألست قد شفيت ؟

– بلى ، شفيت .

– كويس . .

وبهذه المناسبة: مناسبة البنطلونات القديمة – أذكر أن كامل كيلانى حكى لنا أن سبب القطيعة بينه وبين العقاد أنه قال له : بدلاً من أن تهاجم أحمد شوقى اذهب إليه كى يعطيك ما تشترى به بنطلوناً جديداً غير بنطلونك القديم البالى . . فكدت أقول له ، لكامل كيلانى ، لولا الحياء : إن كان ذلك حقًّا فإنك لا تستحق المقاطعة فقط .

* * *

عالجت « السرحان » بقوة إرادة عندما اضطررت إلى ذلك اضطراراً ، وذلك أنى التحقت بدار العلوم ، واشتغلت بالعمل فى تصحيح مجلة الرسالة ، فكان وقتى مقسماً بينهما ، ولا فضاء فيه للاستذكار ، فأخذت نفسى ، بل قسرتها قسراً على أن أكرس سمعى للأساتذة بحيث أسمع وأعى كل ما يقولون ، فيغنينى هذا عن الأستذكار إلا قليلا مما لا بد منه . بسطت الكلام فى هذه النقطة بكتاب « ذكرياتى الأدبية » ونصب عينى ألا أكرر ما قلته هناك .

ولم يكن النظام الصارم فى دار العلوم يسمح لى أن أنام « على الدرج » كما كنت أفعل فى القسم الثانوى بالأزهر وفى كلية اللغة العربية ، فى الفترة التى قضيتها بها ، وخاصة فى حصص المشايخ الأزهريين « الطيبين » الذين كان الواحد منهم يمسك الملزمة و « يدح » فيها دون أن يلتفت إلى من يلتفت أو ينام . أما الأساتذة الآخرون المنتدبون من الخارج فقد كان عندهم جديد يستحق أن أصحو له .

كانت الفترة التى سبقت دخولى دار العلوم أسوأ الفترات . . شعور بالضياع فى الحاضر ، وبالظلام فى المستقبل ، ومحاولات لكسب الرزق لا تأتى إلا بالنزر القليل . وهى الفترة التى حاولت فيها العمل الصحفى فى مجلات قلقة أضفت على أنا أيضاً القلق ، منها مجلة « الكرباج » لصاحبها ورئيس تحريرها محمد عفيفى شاهين زميلنا السابق فى الأزهر ، ثم مجلة « مجلتى » لأحمد الصاوى محمد . وقد تقدم حديث ذلك فى فصل سابق من هذه الخطى التى مشيناها .

لم أجد فى شىء من ذلك غناء ، ولم أفكر فى أن أعود إلى القرية

وأستقر فيها ، فقد كان هذا بمثابة الانتحار فى نظرى ، كان هو البحر الذى هو ورائى ، وقد حطمت – فى خطتى الحازمة – أية سفينة تخوضه . .
أما العدو الذى هو أمامى فهو كل ما يعوقنى عن الوصول إلى الأفق الذى أتنوره من بعيد . . أو كل ما يسد على بابا ألج منه إلى التزود للسفر إلى ذلك الأفق .

لم يكن همى أن « أكمل تعليمى » طبقاً للمفهوم العام ، فهذا فى نظرى هدف اجتماعى اقتصادى ، الغرض منه الحصول على الشهادة التى تجعل لصاحبها اعتباراً فى المجتمع وترفعه درجات فى الوظيفة ، وفى الوقت نفسه تتيح له عيشاً مأموناً مستقراً .

كلا ، ليس هذا ، وإن كنت محتاجاً إلى الشطر الاقتصادى منه عرفت طريقى إلى الهدف ، ولكن أين الزاد ؟

كان طريقى هو أن أقرأ وأقرأ وأقرأ ، وأن أكتب . أقرأ ما أريده أنا ، لا ما تفرضه المناهج الدراسية أو الجامعية وامتحاناتها . وقد فعلت . وبطبيعة الحال البائسة لم يتيسر لى شراء الكتب ، فالتمستها فى المكتبات العامة ، وخاصة دار الكتب المصرية ، التى أبرزت فى « ذكرياتى الأدبية » أثرها فى حياتى الثقافية كأعظم جامعة .

وكتبت . . لا أنسى فترة ضعفت فيها من عدم التغذية اللازمة لحيوية الجسم والذهن ، وليس بالخبز وحده تصح الأبدان والأذهان ، فكنت إذا جلست للكتابة أشعر بوهن الذهن وكلال القريحة . وسوس إلى الموسوس أن أستحث الذهن والقريحة بكوب من القصب « المخمر » والفكرة « هى الخمر » قال لى الوسواس : ألم يكن أبو نواس شاعراً

عظيماً ؟ قلت : أى نعم ، ولكن أين ثمن الخمر ؟ قال : كوب العصير المخمر بخمسة مليمات ! كوب واحد ، ولا تثن . . حتى تظل منتبهاً . وقد كان . .

ولكن . آه مما أعقبه من رد الفعل . .



السياسة وهموم المجتمع

لم أشتغل بالسياسة طبقاً للمفهوم الذى كان سائداً وقت نشأتى وبدءوعيي بالحياة العامة ، بمعنى أن ينتمى المواطن إلى جزب سياسى وينتظم فى لجنة من لجانه ، وبالنسبة للطلبة : يكون الطالب عضواً فى لجنة الحزب بالمدرسة أو المعهد أو الكلية ، أو يتزعم هذه اللجنة ، ويتردد على نادى الحزب ويحاول أن يتعرف إلى باشا من باشواته أو أى زعيم من زعمائه . فإذا كان الحزب فى الحكم فعلى لجان الطلبة أن تعمل على تأييده بالبرقيات ، والمظاهرات المسالمة ، والتهنئة فى مناسبات التهنئة . وطبعاً يكون ذلك برعاية السلطات ، ولا يكون ثمة أصطدام برجال الشرطة ، وتظل مركبات الترام سالمة ويكتفى بركوبها مجاناً .

وإن لم يكن الحزب فى الحكم فهو معارض للحكومة بطبيعة الحال ، وعلى لجان الطلبة التابعة له أن تستوحى خططه فى المناوأة وتدعو إلى الإضراب عندما يوحى الحزب بأن البلاد على وشك خطر « وهمى » داهم . . والخروج فى مظاهرات قد تكون دامية ومحطمة للمرافق وخاصة مركبات الترام وعربات الأوتوبيس .

وسواء كانت المظاهرات مؤيدة مسالمة أو معارضة محطمة فإن

مركبات المواصلات العامة لا بد أن تكون بالمجان للمتظاهرين ولسائر المواطنين . ويستريح محصلو الترام والأوتوبيس من المرور بين الركاب لتحصيل أجرة الركوب وقطع التذاكر والنزاع مع الركاب على « النكلة » التى تبقى من القرش الصاغ ورفض الراكب أن يأخذ بدلها « مشط كبريت » . . إلخ

وكانت البطولة كل البطولة أن يفصل طالب من معهده لانتمائه إلى الحزب المعارض وتنفيذه لخططه وتوجيهاته ، وهذا يرشحه أو يعطيه الحق فى أن يدخل نادى الحزب منفوش الريش كزعيم أو مشروع زعيم . . وعما قريب – كما يقال له – يتقلد الحزب مقاليد الحكم ويعود المفصول – طالباً أو موظفاً – إلى مكانه أو خير من مكانه إن كان موظفاً ، فإن كان طالباً فالوظيفة « المحترمة » فى انتظاره بمجرد التخرج ، وكانت الوظائف الحكومية قبلة آمال الشباب

وكنت أشارك فى ذلك متفرجاً لا عاملاً مندمجاً ، فلم يكن يروقنى ذلك ، وقد لاحظت أن لقا أولئك الشباب بالزعماء الكبار كان ميسوراً وموفوراً عندما يكونون خارج الحكم ، ويتعذر عندما يكونون فى الحكم . .

وكان الزعماء فى الحالة الأولى يشجعون الناس على الشغب والضجيج ، ولكنهم فى حالة الحكم يقولون : دعونا نعمل فى صمت !

ورأيت فى الصحافة عجباً . كان المجال بين إدارة الجريدة ونادى الحزب : هذا شاب قوى العضلات عريض الأكتاف جهير الصوت – رأى الزعيم : زعيم الحزب أو أحد أعضائه الأساطين – قادماً أو خارجاً – فيلوح بذراعه فى الهواء هاتفاً : يحيا فلان باشا ! وينظر حوله صارخاً فيمن حوله :

« وسع يا جدع . . لدولة الباشا ! »

ثم هو مندوب الجريدة ، يذهب إليها بأخبار الزعيم وتحركاته ومقابلاته ، وينشر ذلك تحت عنوان يومى دائم « الرئيس الجليل » إذا كانت الجريدة وفدية ، وإلى هذا يكتب ويعلق ، فيسب المعارضة إن كان الحزب فى الحكومة ، ويشتم « صنائع الاستعمار » الذين يتربعون على كراسى الحكم . .

وهو قد أخفق فى المدرسة ولم يفلح فى تعليم ، ومع ذلك هو محرر مرموق ، يفرض نفسه على القلم والورق والطباعة فرضاً . .

ولا يهم أن يأخذ مرتباً منتظم الأداء من الجريدة ، فالبركة فى « المصروفات السرية » التى تغدق عليه وعلى أمثاله إبان تولى الحكم .

وأحسن الأنواع شاب تخرج فى كلية أو مدرسة عالية ، ويغلب أن تكون « الحقوق » فهذه لها صفة خاصة فى عالم السياسة والحكم ، هذا الشاب قد خدم الحزب – منذ أن كان طالباً – تلك الخدمات التى سبق بيانها ، وعقد الصلات مع أحد الزعماء وصار أثيراً عنده . ثم يجىء وقت « الحصاد » حين يتولى الزعيم الوزارة ، فترى ذلك الشاب على بابه . . لا يهنئ فقط ، بل يستقبل المهنئين ، أو يحثهم على « التوسيع » لدولة أو لمعالى الباشا . . ثم يركب معه إلى الديوان ، ويصبح – ما بين طرفة عين وانتباهتها – مدير مكتب الوزير ، الذى يدير الوزارة « من الباطن »

كان طه حسين وزيراً شاذًّا من بين الوزراء الحزبيين ، من حيث إنه اختار موظفى مكتبه من غير ذلك الصنف ، وكنت أحدهم ، إذ عيننى

سكرتيراً صحفياً . وقد ضايقتنى فى هذه الوظيفة أمور كثيرة لا تتفق مع طبعى ، أولها المنافقون الذين هرعوا إلىّ ، ممن لا أعرف ، وممن أعرفهم وكانوا قبل ذلك لا يحرصون على مودتى كما يخطبونها الآن . . أى عندما أصبحت قريباً من الوزير !

وكانت هناك « كفايات » أخرى ، من المحيطين بالوزراء والجارين فى ركابهم ، تظهر ثمارها فى الشقة « الجرسونيرة » التى يستريح فيها الزعيم من أعباء الزعامة !

لست أعرف عن هذه الشقق إلا ما كنت أسمعه فقط . أما تلك « الهنكرات » فى النوادى والصحف فطالما رأيتها ، وأحياناً حدثتنى نفسى أن أزاولها ، ولكن سرعان ما كنت أردها كان ذلك شأنى فى كثير من الأشياء : تسول لى النفس ، فأطيعها ، ثم أزجرها .

مرة حكى لى بعض زملائى الطلاب « الزعماء » أنهم لما اعتقلوا وأخذوا إلى الحجز فى قسم الشرطة ، ذهب إليهم مندوبون من الحزب ، وحملوا إليهم أصنافا من الطعام والشراب كانوا يسمعون عنها . . فأكلوا وشربوا وضحكوا وهرجوا . . فى القسم! فى القسم نفسه ! وأكثر من هذا شاركهم فى ذلك بعض الضباط « الوطنيين » .

كان يحكى لى ذلك ، وفى نفسه أن يغرينى بالانضمام ، ونفسى تنازعنى ، ولكنى أقول لها : مكانك تحمدى . . وليحى الفول !

نعم ، فى فترة ما شاركت فى الكتابة السياسية الحزبية . كانت جريدة « مصر » اليومية تصدر بدلاً من جريدة « كوكب الشرق » الوفدية المعطلة فى حكم إسماعيل صدقى . وقد جرى الأمر فى ذلك الوقت

على أن الجريدة الكبيرة التى تعطل ، تتخذ اسم صحيفة صغيرة مرخص لها ، وتصدر بهذا الاسم ، وكان ذلك تحايلاً لتفادى الحكم القضائى بالتعطيل ، وكان معروفاً للجميع – من شعب وحكومة – أن التى تصدر بالاسم المستعار هى التى حكم بإغلاقها لمدة معينة .

ولكن جريدة « مصر » القبطية لم تعط نفسها كلها لجريدة كوكب الشرق ، فقد احتفظت برئيس تحرير من قبلها ، وهو « توفيق حنين » . كان رجلاً فاضلاً من رجال القانون والقلم ، وهو « بلدياتنا » من الفيوم ، وقد رشح نفسه لعضوية مجلس النواب عن دائرتنا على مبدأ الوفد ، وساعده أخى بالخطابة له ، وكان أخى ذا مقدرة خطابية . ولكنه لم ينجح فى الانتخاب . وعلى أثر ذلك تولى رياسة تحرير « مصر » .

ذهبت إليه فى مكتبه بالجريدة ، وعرفته بنفسى منتسباً إلى « البلد » والأسرة ، وأعربت عن رغبتى فى العمل الصحفى هاوياً . وكلمة « هاوياً » لا تعبر عن حقيقة رغبتى التى هى أن أرتزق من الصحافة ، ولكنى كنت أتقدم بها كمدخل ، وقد سبقت لى تجربة مماثلة فى كوكب الشرق تحدثت عنها فى « ذكرياتى الأدبية » .

رحب بى الرجل ، وقال لى : اكتب ما تشاء . فشرعت أكتب كلمات سياسية بتوقيع « عين » ولم يكن ممكناً أن أوقع باسمى الصريح ، حتى لا أفصل من الأزهر . كنت أقلد فيها كتاب الوفد ، مثل العقاد وتوفيق دياب ، وأؤيد جانب الوفد ، وأهاجم إسماعيل صدقى . . إلخ

كان ذلك فى الحقيقة لقصدين : الأول محاولة الدخول فى الصحافة ، والثانى التمرين على حرفة الكتابة .

على أن ميلى إلى الوفد كان حقيقة ، ولكنه لم يكن انتماء لتشكيل من تشكيلاته ، ولم يكن بالدرجة التى أنغمس فيها كما ينغمس المنتمون . كنت كأى فرد من الشعب يحب العمل لصالح الوطن ويغضب له .

أسير فى المظاهرات ، نعم . أفرح للانطلاق من أسر الدراسة ، نعم . أقذف الجنود بالحجارة ، نعم . أركب الترام مجاناً ، نعم . أشترك فى تحطيم عرباته ، نعم . أفعل ذلك وغير ذلك بدافع الانسياق الجماعى ، أما أن أكون من زعماء الطلبة المحرضين ، أو عضواً فى لجنة من لجانهم ، أو خطيباً يحمله الطلاب إلى أعلى كى يسمع الجمع المحتشد ، أو . . أو . . فلا .

لم أعتقل يوماً ، ولم أدخل سجناً قط ، إذ لم يصل اهتمامى بالسياسة إلى ما يؤدى إلى سجن أو اعتقال أو نحو ذلك .

وعوداً على بدء أقول إنى لم أنشغل بالسياسة بذلك المفهوم ، ولم أجعلها من اهتماماتى الجادة . وذلك لأسباب يمكن إجمالها فى ثلاثة :

الأول : الصورة الشوهاء – فى نظرى – للممارسة السياسية على النحو الذى بينته . وحقًّا نشأ فى خلال تلك الفترة حزب مصر الفتاة ، ولم يكن بهذه الصورة ، ولكنى لم أتجه إليه ، ربما لأن الصورة الشوهاء غلبت ، وربما لأن مؤسسيه – أحمد حسين وفتحى رضوان ومن معهما – كانوا من لداتنا الناشئين ، ولم تكن لهم هالة الكبر فى السن ، فكأننا نقول فى أنفسنا : هذا لعب عيال ! ويبدو أن الجيل الواحد لا ينصف بعضه بعضاً .

السبب الثانى أنى كنت فقيراً ، وأمثالى الطلبة الفقراء لم يكونوا

غالباً يهتمون بالسياسة ، إذ تشغلهم الحاجة والتطلع إلى حياة أفضل ، عن طريق الجد فى التعلم ثم الحصول على الوظيفة المرموقة ، أو كما قال الشاعر القديم : « دعونى آكل العيش بالجبن ! » وبرغم الفرح بالانطلاق من أسر الدراسة فى حالة الإضراب فإنى كنت آسفاً . وكان ذلك بعد أن التحقت بدار العلوم — على « الغداء » الذى كنا نتناوله فى المدرسة ، فإذا قمنا بالإضراب مبكرين أو كان الإضراب متصلاً لأيام فإنا نحرم منه ، وقد كانت هذه الوجبة هى الأساس الذى أعتمد عليه فى التغذية اليومية : أما إذا طرأ الإضراب بعد الحصة الأولى وبعد « نزول التعيين » فى المطعم ، فإن بعضنا يعود إليه فى موعده ، ولا تكون المائدة المكونة من ستة طلاب كاملة ، فيظفر الحاضرون — مهما قل عددهم — بأنصبة كبيرة من اللحم أو الدجاج أو السمك . . إلخ . وفى هذه الحالة يكون الإضراب عظيماً !

وكانت هناك حالة عظيمة أخرى : فى شهر رمضان ، إذ يؤجل الغداء إلى الإفطار ، ولم يكن يذهب الجميع إليه من منازلهم ، فكانت القلة التى تحضره تظفر بالكثير . .

والسبب الثالث لانشغالى عن سياسة ذاك الزمان . كان فى أعماقى ، ولو سئلت عنه إذ ذاك ما عرفته ، كنت أرى شقاء عامًّا يشملنى فيمن يشمل ، وأعانى منه كما يعانى الآخرون ، وكنت أريد أن أكافح ذرائعه . الإنسان العادى شقى فى الغالب ، لأنه مستغل من القوى الأكبر منه ، وليست هذه القوى مقصورة على الناحية المادية الخارجية ، بل هناك قوى أخرى فى داخل الإنسان نفسه ، تستبد به هى أيضاً ، وهو ضعيف

إزاء هذه وتلك ، لأنه جاهل ، وليس الجهل بالقراءة والكتابة فقط ، بل كذلك – ومع التعليم – الجهل بالحقوق والواجبات .

ولم يذهب ذلك تماماً من حياتنا حتى الآن ، وإن كان قد جد التنبيه إليه ، فهذا الفلاح – مثلاً – الذى لا يزال أمياً ، يعانى من رئيس الجمعية وكاتب الجمعية فى القرية مثل ما كان يعانيه أسلافه من الباشا أو البيه الإقطاعى ، من جور على حقه واستغلال جهله وخنوعه

وتسود فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية عادات وأحوال سيئة لم يكن يلتفت إليها السياسيون ولا يعيرونها أى اهتمام .

على أننى أقول بصراحة : كيفما كان احتجاجى بعدم الاهتمام بالسياسة فإنى فيما يجاوز الحد الآمن وما يخشى منه من سجن أو اعتقال أو فصل أو نحو ذلك . . من الجبناء ! وأفضل أن أعمل العمل النافع فى الحدود الآمنة . وإذا كان هذا الجبن نقيصة فإن له عندى وجهاً آخر يحمد ، وهو حرصى على التزام القانون واحترامه والسير على مقتضاه .

* * *

إذا كانت السياسة ومهازل الأحزاب قد نالت سخريتنا المحتجة بطريقتها . . فإن شيئاً مهماً أدهشنا ونال احترامنا ، ذلك هو حركة « بنك مصر » التى أنشأها وقادها « طلعت حرب » فى مجال الاقتصاد والصناعة . ولبسنا – ونحن نزهو – الأقمشة الوطنية الخشنة التى صنعتها مصانع بنك مصر . .

طلعت حرب ، وما أدراك ما طلعت حرب ! إنه تاريخ وحده فى تاريخنا الحديث ، وأكاد – لولا احتراسى – أقول إنه أعظم رجل فى تاريخنا الحديث

والذى كان فى أعماقى ، ولم أتبينه تماماً فى ذلك الوقت ، هو أن التعبير الأدبى يجب أن يكون فى خدمة ذلك الإنسان ، الذى يتخبط به الجهل والبؤس ، فلا يعرف كيف يعيش العيش اللائق به كإنسان .

لعلى تأثرت فى ذلك بقراءات جديدة فى الآداب الأجنبية المترجمة ، وفيما نادت به أقلام مصرية رائدة ، سواء فى الدعوة المباشرة ، وفى الإبداع المصور ، مثل كتابات أحمد خيرى سعيد وقصص طاهر لاشين والتيمورين محمد ومحمود ، ومن الغريب أن يشترك فى هذا الانبعاث رجلان من الطبقة الغنية ، وخاصة أولهما محمد تيمور والذى صرخ بلغة الفن من أجل ذلك الإنسان !

ولم تقع عينى فى تلك الفترة على قصص الأخوين : عيسى وشحاته عبيد ، كما لا أذكر لها أى صدى فى وقتها . ولعل ذلك لأنها لم تنشر فى صحف أو مجلات ، بل نشرت مجموعة فى كتب . وعندما تصديت فى أوائل الستينات الماضية – لبحث تاريخ القصة القصيرة فى مصر كنت قد عرفت من كتاب يحيي حقى « فجر القصة المصرية » شيئاً عن ذلك الأخوين ، ورحت أستقصى أمرهما ، وأبحث عن إنتاجهما ، ووجدت نسخة من مجموعة « درس مؤلم » لشحاته عبيد مطبوعة فى أوائل العشرينات – وجدتها فى مكتبة الوفد ، وقال لى صاحب المكتبة إن هذا الكتاب عنده منذ أكثر من أربعين سنة ، وأضاف بلهجته : « أصلهم كانوا تلامذة واحنا كنا بنشجعهم ونطبع لهم » يقصد شحاته وأخاه عيسى . أين الآن مثل هذا الناشر ؟ لقد تحول الناشر فى القطاع الخاص إلى « منشار » وفى القطاع العام إلى صاحب هوى .

ذكرتنى قصص الأخوين – التى لم أقرأها فى حينها – والأفكار التى عبروا عنها فى المقدمات بما كان يعتمل فى نفسى إذ ذاك ، إذ وجدت فيها النبض الذى هو فى أعماقى – كان وما يزال – إزاء الإنسان المصرى : المعدن النفيس المختلط بالأتربة ، والذى يجب أن يتجه الأدب إلى كشف الأتربة عنه وتخليصه منها .

رأيت من بعض الزوايا – أن السياسة بمفهومها القديم تزيد تراكم الأتربة على المعدن الكريم . . على أن فضلها لا يجحد فى قرع الأجراس وإلهاب الحماس .

ومهما يكن من شىء فإن الإنسان القوى المتقدم الواعى لا يستطيع مستعمر أو مستغل أن يطمع فيه . وهذه هى القضية كما تراءت لى : كون الإنسان ودع الباقى له . وإن لم يتكون هذا الإنسان فإنه حتى الثائر من أجله من قومه سيستغله !

* * *

فى الفترة التى بدأت فيها الكتابة بجريدة « مصر » – حينما كانت تصدر يومية كبيرة بدلا من كوكب الشرق المحتجبة – كان هناك شاب أسمر أو قل أسود ، هو « معاوية نور » الكاتب الأديب السودانى الذى طوف هنا وهناك واستقر أخيراً بالقاهرة محرراً فى كوكب الشرق ثم فى مصر . استرعى انتباهى هذا الكاتب بكتابته المتوثبة ، ووجدت فيها شيئاً جديداً غير ما نعهده ، وجدت فيها ثورة على الجمود والتخلف فى الأدب والثقافة ، ودعوة – بصفة خاصة – إلى النهوض بفن القصة المتعثر فى بلاد العرب .

كان يلبس قبعة ، على خلاف ما نلبس من طرابيش ، لم يشجعنى منظره على الاقتراب منه والتعارف به ، إذ كان يبدو عليه التعالى المصطنع الذى يقول بلسان الشكل والتصرفات : هأنذا أسود ، ولكنى أحسن منكم . . سمعته مرة يصيح رافضاً أن يجلس معه أحد فى غرفته ، ويطالب بتغيير مكتبه الذى لا يليق . . وقد عذرته لأن الذى كان يراد أن يشاركه فى الغرفة هو فلان الفلانى المحرر المخلص بالنادى السعدى (نادى الوفد) وبيت الأمة ، واللصيق بالنحاس باشا ، وبهذه الصفة يفرض مقالاته على الجريدة ، وهو ومقالاته ومن يزوره فى مكتبه من « الهتافة » – مما لا يطاق !

وبرغم ذلك أقبلت على كتابته ألتهمها التهاماً . وكانت مشحونة بكثير من الثقافة الغربية فى غير غربلة وتمحيص بما يلائم بيئاتنا وطبائعنا العربية ، إذ كان ضحلا فى الثقافة الغربية ، والملاحظ أن مثل ذلك كان كالفقاقيع والزبد الذى لا يمكث فى الأرض العربية ، لم يمكث فيها إلا ما نقل من الغرب على هدى الأصالة العربية وبصيرتها . فكنت آخذ من كتابات معاوية نور ما آخذ ، وأدع ما أدع .

أقبل شهر رمضان ، فتركت الكتابة فى السياسة ، وكتبت « سوانح رمضان » عموداً يومياً فى جريدة مصر ، لم يكن همى فى هذه السوانح أن أكرر ما قيل وكثر قوله من فوائد الصيام وما إليها ، بل اتخذتها وعاء لنقدات اجتماعية وتأملات فى حياتنا ، وكنت أوقعها باسم « عباس حسان » ثم رأيت هذا الاسم لصاحب مخبز فى شبرا ، فعدلت عنه وجعلت اختصار الاسم الثلاثى « عباس حسان خضر » الذى بدأت الكتابة به – جعلته

« عباس خضر » واستمر كذلك إلى الآن ، وقد لحظت أخيراً محل « ميكانيكى سيارات » خلف مؤسسة روز اليوسف مكتوباً عليه « عباس خضر » لهذا لزم التنويه !

وعلى العيد – عيد الفطر – صرفت لى الجريدة « القبطية » مبلغاً كمكافأة على سوانح رمضان . واستمررت فى الكتابة بجريدة مصر ، فى موضوعات مختلفة ، تجاوزت فيها السياسة التى لم تكن من طبعى ولا من همى . وكانت الجريدة تصرف لى بعض المبالغ بغير انتظام . وكان ذلك – النشر والمكافأة – بفضل الرجل الفاضل توفيق حنين . يعجبنى ويسرنى دائماً التحاب والتواد بين المسلم والقبطى فى مصر ، وأعتقد أن هذا من نعم الله على بلادنا .

فلما عادت « كوكب الشرق » إلى الظهور سافرة عادت « مصر » جريدة طائفية صغيرة كما كانت ، وعدت أنا أتساءل فى نفسى : إلى أين ومَاذ ومتى . . . ؟

كان همى همين : أن أكتب وينشر لى ، وأن آكل لأعيش وأكتب وينشر لى . .

ذكرت رجلا فاضلا آخر ، عرفته من قبل فى جريدة كوكب الشرق ، هو « محمد بيومى الجنيد » الذى تمرنت على يديه لأول مرة فى الصحافة – وأنا طالب بالثانوى – بجريدة كوكب الشرق التى طردت منها لأنى طالبت بأجر !

كان بيومى الجنيد قد انتقل إلى جريدة « البلاغ » سكرتيرًا لتحريرها ، فذهبت إليه وبيدى مقالة أدبية لتنشر فى صفحة الأدب اليومية ، وكان

يكتب فى هذه الصفحة إبراهيم عبد القادر المازنى وزكى مبارك ولطفى جمعة ومصطفى صادق الرافعى وعبد الله عفيفى ، وكان الأولان : المازنى وزكى مبارك محررين بها ، أما الباقون فكانوا يكتبون « هاوين » وما أظن أن أحداً منهم كان يأخذ أجراً على كتابته . وكنت أنا – الناشئ » – من باب أولى : لا آخذ .

مما أذكره من تلك الكتابات أن الرافعى أنكر على مصر أن تنجب شاعراً عظيماً مثل المتنبى والمعرى وأبى تمام ، فرد عليه عبد الله عفيفى وذكر له شعراء مصريين أفاض فى الإشادة بهم وبشعرهم ، وقال إن أبا تمام نفسه أقام فى مصر وتأثر بها . وذلك فى مقالات متتابعة تحت عنوان « مصر الشاعرة » .

واصلت الكتابة فى البلاغ ، ونشرت فيها أول قصة قصيرة كتبتها بعنوان « بنت صاحبة البيت » بصرف النظر عن محاولة قصصية صغيرة نشرت قبل ذلك فى كوكب الشرق بعنوان « زهرة الورد » .

لم أجد صعوبة كبيرة فى النشر فى مرحلة البدء ، ولعلى وجدت هذه الصعوبة فيما بعد ذلك بكثير ، أى بعد ما كبرت وشاب رأسى . وذلك فى فترات انعدم فيها « الفضلاء » واستولت على النشر عصابات و« شلل » عششت وباضت وأفرخت .. إذ احتكر أفرادها ومن ينتفعون منهم كل شىء ، ولم يتركوا فضلا لذى فضل ! واستشرى ذلك فى أواخر الستينات السود.

أما أن آكل وألبس وأسكن . . . إلخ . فهذه هى المشكلة . . ولعلك تذكر ما حدثتك به قبلا من شعورى بالضعف الذى لم يقف

عند الجسم ، بل شمل الذهن والقريحة ، وأنى حاولت أن أشحذ هذين بشرب عصير القصب المخمر الكحولى ، لرخصه ، إذ كان الكوب منه بخمسة مليمات . .

كان ذلك فى هذه الفترة . على أنى لم أعبأ بشىء ، واستغرقت برغم ذلك فى متع روحية ومادية . كانت الأولى فى القراءة والكتابة ، والثانية فى مغامرات عاطفية خاطفة ، تقودها الغريزة أحياناً ، ويشعشعها التسامى عند الشعور بالتردى ، ويقظة الإحساس الإنسانى . لم أنس غيظ صاحب لى أتى إلىّ فى مسكنى ومعه امرأة . . قلت له :

– من هذه ؟

قال وهو يضحك ماجناً :

– أصل الحكاية . . . أنا قلت . . . لا يصح أن أدخل عليك بيدى فاضية !

– كده ! طيب . . شكراً !

ويتركنا قائلا إنه سيشترى « حاجة من تحت » ولحظت أن المرأة مرتبكة وتلوح عليها سمات هم وحزن ، مما يحمل على الظن أنها فى هذا الموقف لأول مرة . جاذبتها الحديث برقة وعطف ، فأفضت بشىء مما تمتلئ به نفسها ، وسقطت دموعها على خديها الشاحبين ، وأنا أسرى عنها ، وهى تقول لى : « ربنا يخليك لشبابك »

ودخل صاحبى ، فوجد « الجو » على غير مايروم . دموع ، وكلام مهذب ، ونظرات ساهمة . فجلس وهو يقول لى فى شبه تأنيب :

« انت قلبتها منفلوطى ! »

يعنى أنى حولت الحالة إلى ما يشاكل مذهب المنفلوطى فى الدعوة إلى الرحمة والفضيلة .

ولم يجد منها استجابة لما أراد . . فخرج غاضباً وهو يقول لى فى مزيج من الغضب والسخرية والعتاب :

« طيب يا . . . يا منفلوطى ! »

ولم تكن الناحيتان الروحية والمادية – اللتان أغرقت همومى فيهما ، منفصلتين ، كانت العلاقات نفسها مختلطة كما قلت . وكذلك القراءة ، وخاصة فى كتب الأدب العربى الحافلة بألوان من المجون ، مثل كتاب « الأغانى » وقد وقع فى يدى كتاب « مهذب الأغانى » من عمل الشيخ محمد الخضرى ، وهو مجرد من الفحش والمجون ، ومن العنعنات والمصطلحات الموسيقية القديمة . وجدت فيه راحة من الأخيرة ، ولكنى كنت أريد الأولى ، فلم أستغن عن الأصل . . وسمعت من بعض الأدباء تحريفاً للاسم الذى وضعه الشيخ الخضرى ، إذ قال « مهزأ الأغانى ! » يقصد أنه مجرد من المزايا الأصلية !

ومن تأثير كتاب الأغانى العملى فى نفسى ، أنى تعلقت بفتاة من « العوالم » كانت تغنى غناء جميلا محاكاة للمطربين والمطربات ، وكانت جميلة ورشيقة . لمست فيها الطبع الفنى كمادة « خام » لا تجد من يصنعها . انغمست معها فى علاقة عميقة وأنا أتصورها جارية من الجوارى الحسان الرائعات الغناء ، اللاتى يملأن كتاب الأغانى ! كادت تدلهنى بحبها ، ولكنها اصطنعت الدلال وأفرطت فيه لكى تلهب نار الحب . . فاكتويت بنار الهجر مدة ، ثم لم ألبث أن تركتها ورجعت إلى الأصل . . عالم الخيال

فى كتاب الأغانى . . وأنت تعلم أن هذا الكتاب حافل بألوان ممتعة من الجد والهزل .

ووقع فى يدى كذلك كتاب ممنوع من التداول اسمه « رجوع الشيخ إلى صباه فى علم الباه » وهو كتاب مثير وصريح جداً . وكنت إذ ذاك طالباً فى القسم الثانوى بالأزهر ، وكان من شيوخنا « الشيخ هيكل » وقد عرفناه بالتحرر الفكرى والمعاصرة ، وكان صريحاً معنا فى الحديث عن المسائل الجنسية بطريقة تشبه ما يذهب إليه علماء التربية الحديثة ، الذين يرون ضرورة وقوف الأولاد على هذه المسائل . وقال أحد الطلبة للشيخ إن عندى – أنا – كتاب رجوع الشيخ . . فطلب منى الشيخ إعارته إياه ليطلع عليه من « باب العلم بالشىء » . وأعاده إلىّ فى اليوم التالى ، وكان لابساً « طقماً » من الملابس نظيفاً مكوياً ، فأشار إليه طالب جرىء متسائلا عن العلاقة بين الكتاب وبين هذه الأناقة . . فقال الشيخ وعيناه تضحكان : ياخبثاء يا ملاعين !

وحدث بعد ذلك أن قرأت فى إحدى المجلات أن بعض المفكرين فى أوربا يدعو إلى تجنب عادة التقبيل بجميع أنواعه ، لأنه عمل غير لائق وغير صحى ، فسألت الشيخ رأيه فى هذا ، فأنكر علىّ هذا السؤال ، لا لشىء إلا لأنه – كما قال – لا ينبغى أن يسأله من يقتنى كتاب رجوع الشيخ !

ورأيت فى فهارس دار الكتب اسم كتاب مترجم « مذكرات مومس » فطلبته فى قاعة المطالعة وقرأته . لم أجده – كما تصورت – كتاباً ماجناً ، بل رأيته على العكس تصويراً إنسانياً لحياة بائسة . أقبلت على قراءته بمتعة

متسامية هى الوجه الآخر أو الضد الذى اجتمع فى نفسى مع ضده !

واستغرقت فى قراءات مترجمة مختلفة ، واستهوانى القصص الإنجليزى بصفة خاصة ، إذ وجدته يتميز . بميزة توافق هواى ، من حيث استهدافه المقاصد الاجتماعية والارتباط بالقيم الإنسانية ، ويحس القارئ إزاء ذلك أن هذا الكلام ليس خاصًّا بالإنجليز وحدهم ، وإنما هو يهم كل إنسان ، وإن كان ينصب على ناس إنجليز ويصور بيئات إنجليزية ، وأعجبت ، واحترت - أعجبت بالخلق الإنجليزى وبنبض الضمير فى ذلك المجتمع ، واحترت فى المفارقة بين ذلك وبين سلوك الإنجليز أنفسهم فى بلادنا كمستعمرين ، وهو سلوك شائن ، ولو غلفوا الأيدى الملوثة بالقفازات الحريرية .

وظهر كتاب « الإنجليز فى بلادهم » للدكتور حافظ عفيفى الذى كان سفيراً لمصر فى إنجلترا ، وثار جدل طويل حول هذا الكتاب ، هاجمه بعض الكتاب لأنه يشيد بأعدائنا المستعمرين لبلادنا ، ودافع عنه كتاب آخرون ذاهبين إلى أن الوطنية لا ينبغى أن تعمينا عن الحقائق الموضوعية . قرأت ما وقع لى من تلك المناقشات التى صادفت حيرتى فى أمر الإنجليز . وانتظرت حتى تيسر لى الحصول على الكتاب ، وأغلب الظن أنى استعرته من دار الكتب ، فلم يكن من الميسور لى شراؤه ، ولا سيما أنه غالى الثمن ، وقرأته ، ووجدته فعلا كتاباً موضوعيًّا مفيداً ، بصرف النظر عن الحماسة الوطنية . ومن الأسس الثابتة فى طبعى أنى لا أحب التشيخ فى أى شىء ، ومثلا : المتشيخ الوطنى ليس أخلص لوطنه من المتزن المفكر ، بل إن هذا أنفع للوطن من ذاك . والحقيقة التى استخلصتها

أن الإنجليز مثاليون فى بلادهم بين أنفسهم ، وليسوا كذلك فى المستعمرات .

ومن حسن حظنا – نحن الذين لم نتعلم لغات أجنبية فى الصغر – أن صادفت نشأتنا حركة ترجمة عظيمة بلغت القمة فى الكم والكيف ، ولم يكن لها نظير من قبل ولا من بعد . بل كان ذلك من حفظ من تعلموا اللغات الأجنبية فى المدارس وتكاسلوا عن القراءة بهـا ، فقد عرفت أدباء كثير ين من هؤلاء انحصرت قراءاتهم للآداب الأجنبية فى المترجمات إلى العربية ، ولم يجشموا أنفسهم قراءة فى اللغة الأجنبية التى تعلموها . . . وذلك برغم كثرة ترديد أسماء الأعلام الأجانب وأقوالهم فيما يكتبون . . ور بما ادعوا أنهم اطلعوا عليها فى الأصل !

نعم ، كان من حظنا أن تزدهر الترجمة إلى العربية على أيدى أدباء عظام ، مثل المازنى ومحمد السباعى وعباس حافظ وأحمد حافظ عوض وغيرهم من الذين توافر لهم إجادة اللغتين مع حاسة التذوق الأدبى . وعندما قرأت تلك المترجمات بدأت أخرج من أسر المنفلوطى وأشعر أنى أتنسم هواء جديداً من الشمال .

وكان حشد كبير من أولئك الأدباء المترجمين يعمل لدار صحفية تصدر مجلة اسمها « مسامرات الشعب » وتنشر كتباً مترجمة كثيرة ، يشارك فيها وفى تحرير المجلة صاحب هذه الدار « خليل صادق » . وقد تجددت فكرة هذه الدار ومراميها ، بعد توقفها بزمن ، فى دار أخرى أنشأها « عمر عبد العزيز » وسماها « مسامرات الجيب » وقد نشأ فى أحضانها أخونا يوسف السباعى ، ولعل والده محمد السباعى نشأ فى أحضان مسامرات الشعب ، مصيبة أننا نجهل كثيراً عن روادنا ، وأننا

كذلك وعندنا كليات جامعية متخصصة فى تاريخ الأدب ، ويقتصر الأمر عندنا على التهافت كالفراش حول شخصيات معدودة قدمتها للشهرة ظروف بعضها خارج عن الأدب .

« خليل صادق » صاحب « مسامرات الشعب » لا يكاد يذكر الآن ، مع ما كان له من فضل عظيم وأثر بالغ فى الصحافة المصرية ونقل الآداب الأجنبية إلى اللغة العربية . رأيته واتصلت به فى أواخر حياته ، فاقد البصر إلا « خشاشا » ، لا يزال يصدر جريدة « مسامرات الشعب » صغيرة هزيلة غير منتشرة ، تعتمد على إعانات من تمدحهم من الحكام ، تعاملت معه تعاملا طريفاً ، كان يقول لى مثلا : اكتب عن مصطفى النحاس (رئيس الوزراء) وقل كيت وكيت ، ثم أنفرد وأكتب افتتاحية العدد فى مدح « الرئيس الجليل » ثم أقرأها عليه ، فيكافئنى بشيئين : قوله لى : « انت ييجى منك ! » والشىء الثانى « شلن » خمسة قروش . . كان يتجمع أجر أربع مقالات فى « ريال » : عشرين قرشاً . آخذها منه كأنى آخذ « مصروفى » من أبى . . آخذها وأنا مقدر له هذا « البذل » فى المحنة التى يعيش فيها آخر حياته وشيخوخته المريضة ، وكان هذا جزاءه على ما أعطى ، كما كان جزاؤه النسيان بعد حين . . لأنه لم ينتم إلى حزب ولم يشتغل بالسياسة ، والسياسة ترفع المهرجين إلى كراسى الحكم وتعلى صيتهم . أما العاملون بعيداً عنها فيما يجدى أكثر منها أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام .



فى دار العلوم

أعتقد أنى خلقت ناقداً ، بمعنى أنى أنفعل بما أراه وما يدور حولى ، وأحاول تفهمه ، ولا أسكت عن إبداء ما يعن لى فيه . لا يعنى هذا أنى كنت دائماً صادقاً ، فلم أصطنع النفاق والرياء . . بل فعلت . . بحكم أنى من البشر ، والبشر كتب عليهم أن ينافقوا ويراءوا على تفاوت بينهم ، فى النفاق والرياء ، وإن كنت أعتقد أن حظى منهما قليل جداً بالنسبة إلى كثير جداً من المواطنين على سطح الكرة الأرضية . .

ونحن – أنا وأنت وبقية الناس جميعاً – معذورون فى ذلك ، بل مفطورون عليه . . ولا أدرى كيف يعيش إنسان بين الناس صادقاً مائة فى المائة . . ؟ ولنا عبرة فيما جرى لبطل رواية « أرض النفاق » لأخينا يوسف السباعى ، من جراء جرعة الصدق التى تناولها – حسب خيال الكاتب – فراح يصطدم بالناس اصطداماً عنيفاً كاد يحطمه !

وقد سلكت مسلكين فيما كتبته من البداية إلى النهاية ، أقصد النهاية التى لم تنته بعد . . أو فى معظمه باحتياط فى التعبير. المسلك الأول نقد الحياة العامة ، بالقص ، وبالكتابة المباشرة . الثانى نقد الأدب : منهجى فى هذا – إن صح أن لى منهجاً – أن أسائل الكاتب أو الشاعر عما يقوله وكيف يقوله ، أى عن المضمون والشكل . وأرى أنه لا بد أن يقول

شيئاً مهماً فى فنية ممتعة ، فإن لم يفدنا بشيء – والمتعة من الفائدة – فلا أدرى لماذا يتعب نفسه بالكتابة ويتعبنا بالقراءة . . ؟

فى محاولاتى الكتابية الأولى كنت أكتب وعينى على القصة القصيرة ، ولكنى لم أفرغ لها إلا قليلاً ، ولم أنتج منها شيئاً ذا بال . شغلنى عنها ما يشغل كل شاب أو بعض الشباب فى مجال التطلع الأدبى من محاولة إثبات وجوده فى الحياة الأدبية وتأكيد ذاته . ولم يكن لفن القصة على وجه عام شأن يذكر فى المجتمع الأدبى المصرى إذ ذاك ، وكان عاشقوه فى آخر الصف . . وليس ما نكتبه الآن فى تنظيم الجهود القصصية التى بذلت فى ذلك الحين إلا ترتيباً على ما جد وتأصل عندنا من الإقرار والاعتراف بهذا الفن الأدبى .

وانتهت تلك المحاولات الكتابية بمقالات أربع نشرت متتالية فى مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦ تحت عنوان « شعراء الموسم فى الميزان » – انظر ذكرياتى الأدبية – كان لها وقع فى وقتها ، ولكنى لم أرض عنها بعد ذلك ، لتغير مفهوماتى الأدبية .

* * *

ضاقت بى مسالك العيش ، وسدت فى وجهى سبل الرزق . لا الأدب يجدى : فنشره بالمجان ، ولا الصحافة نافعة ، حتى إذا وصلت إلى عمل فيها أجد صاحبه يتسم بالاستغلال ولا يعطى العاملين إلا الفتات ، وهو إلى ذلك عمل قلق حين تتعرض الجريدة أو المجلة لمنع الصدور أو للإفلاس .

قلت لنفسى وإن كان قولا مبهماً : الخبز قبل كل شىء ، هذا الرغيف المستدير كالقمر . . هو الذى تدور حوله الحياة . أما القلم

فلا يأتى منه إلا السواد الذى يحبره . . وماذا أفعل للوصـــول إلى القمر .

حاولت أن أحصل على وظيفة مناسبة لشهادتى (الثانوية الأزهرية) فلم أجد . وفتح باب دار العلوم لحاملى هذه الشهادة على أن يقبلوا بعد اختبار شفوى وكشف هيئة . . وكان دخولها من قبل مقصوراً على خريجى « تجهيزية دار العلوم » التى كانت تسير على منهج المدارس الثانوية مع عناية أكبر باللغة العربية ، وأقل باللغة الأجنبية ، وكانت التجهيزية تستقى من خريجى مدارس المعلمين الأولية : الممتازين منهم الراغبين فى مواصلة التعليم . ثم ألغيت التجهيزية على أن تستقى « دار العلوم العليا » من الأزهر ، مع اختبار شفوى وكشف هيئة . ويرمى هذا الكشف إلى أن يكون الطالب – الذى سيكون مدرساً – خالياً من العيوب الجسمية التى تزرى به أمام التلاميذ . وكان فى يدى عيب يزرى بى . . وشم يتكون من ثلاث نقط كبيرة لابد أن يظهر عندما أمسك الطباشير وأكتب على السبورة . . قال لى عضو اللجنة : إننا سنقبلك على شرط أن تمحو هذا الوشم ، وكان رجلا طيباً إذ وصف لى مكان رجل يمحوه بالكهرباء . ونفذت ذلك .

أذكر أن أمى عاقبتنى بهذا الوشم جزاء على عصيانى لها فى أمر من الأمور . تصادف فى أثناء غضبها أن مرت أمام الدار امرأة تنادى : « أدج (أى تدق الوشم) وأشوف الودع وأطاهر » والعملية الأخيرة خاصة بختان البنات . فنادتها ، ودقت لى . لم أستطع الفكاك إذ أمسك بى من استعانت بهم أمى . ولست أدرى لماذا فعلوا . لعل ذلك لأن الوشم عندهم

حلية . . وإن كان قد اتخذ معى صفة العقاب .

وأرى على لسانك سؤالا : كيف تدخل دار العلوم وأنت على ما وصفت من الحاجة ، ومن أين تعيش ؟ قيل لى : إن العشرة الأوائل يتقاضى كل منهم جنيهاً فى الشهر ، وكان الجنيه إذ ذاك جنيهاً بحق . . وجميع الطلبة يتناولون وجبة غداء جيدة يومياً ، وتصرف لهم الكتب والكراسات وباقى الأدوات بالمجان ، والمتخرج يعين مدرساً فى الدرجة السادسة ويتقاضى مرتباً قدره اثنا عشر جنيهاً فى الشهر . قلت : « عال ! » ما دمنا فى هذا البلد الذى يقيس الأقدار بالشهادات ، ولا شىء غير الشهادات . فالمرمى هو الرزق المرجو ، ولم يكن رغبة فى تعلم شىء أو تحصيل علم يتعذر من غير هذا الطريق ، فقد عرفت طريقى إلى ما أريد فى عالم الثقافة والأدب ، وكانت دار الكتب هى « الجامعة » الحقيقية التى تخرجت فيها ، كما قلت فى غير هذا الموضع ، كانت هى الجامعة التى لا تفرض على تحصيل شىء لا أراه يجدى ، ولا تقيدنى بمقررات ومناهج ، ولا ترهقنى بامتحانات سخيفة . . ثم هى لا تكلفنى مالا ، ولا مال لى . . عيبها الوحيد أنها لا تؤدى إلى وظيفة ، ولم يكن لمثلى إذ ذاك – لكى يعيش – إلا الوظيفة .

ومما يذكر أن صرف الكتب فى دار العلوم لم يكن مقصوراً على كتب الدراسة المقررة ، فقد شمل كتباً أدبية ولغوية أخرى ، قديمة وحديثة ، مثل الأمالى والعقد الفريد والكامل للمبرد والقاموس المحيط وفقه اللغة للثعالبى وسيرة محمد وفى منزل الوحى لمحمد حسين هيكل ، وكان وزيراً للمعارف ، ولو كان طه حسين وزيراً إذ ذاك لأخذنا بعض كتبه .

وكانت الكتب التى صرفت لى حمل عربة « حنطور » كلفتنى أجرة قدرها عشرة قروش . وكانت أول مكتبة حقيقية ذات قيمة تدخل فى ملكى الدائم ، أى ليست مستعارة . .

وإذا كنت قد استفدت من مواد دراسية جديدة فى دار العلوم مثل التربية وعلم النفس واللغة الإنجليزية ، فقد ضقت كل الضيق باللغة العبرية ، وكانت نتيجة تجشم تعلمها أنى لم أع منها شيئاً بعد أداء الامتحان بالقدر الذى يتيح النجاح . وكان طه حسين فى هجومه على دار العلوم عاب عليها أنها لا تدرس اللغات المشتركة الخصائص مع اللغة العربية كهذه اللغة . فأدخلوها تلافياً للعيب المزعوم . . ودرسنا الخصائص المشتركة ولم نخرج منها بشىء . .

ومهما كان أى شىء فقد قصدت بدخول دار العلوم أن أحصل على « بطاقة تموين » بعد التخرج ، وعولت على أن أتزود للسفر إليها بوجبة الغداء اليومية ، وبالجد وسهر الليالى لنيل الجنيه الشهرى . . ولكن هذا الجنيه المأمول لن يأتى إلا فى السنة الثانية بعد النقل إليها بنجاح متفوق يضع صاحبه فى « العشرة الطيبة » .

فما العمل ؟ أى كيف أعيش فى السنة الأولى ؟

كانت مقالات « موسم الشعر فى الميزان » قد نشرت بالرسالة فى ذلك الإبان . يسرت لى طريقين : الأول فى لجنة الاختبار العلمى للقبول بدار العلوم ، إذ قال لى الممتحن « أحمد نجاتى » وقد عرف من اسمى أنى كاتب تلك المقالات — قال لى : كيف نمتحن من يكتب هذه المقالات لكى يدخل دار العلوم ؟ قم يابنى فأنت ناجح . وكانت هناك لجنة خاصة

بالاختبار فى حفظ القرآن ، وكان أحد العضوين« عبد المغنى المنشاوى » قد عرفنى طالباً بكلية اللغة العربية الأزهرية ، وكان منتدباً فيها لتدريس « الإنشاء » إذ كان كثير من خريجى دار العلوم ينتدبون لذلك فى المعاهد الأزهرية فى نظامها الحديث – عرفنى ذلك الأستاذ بالميل إلى كتابة القصة ، وطلب منى غير مرة أن أقرأ على الطلبة فى « الفصل » بعض قصص كتبتها ، مشجعاً لى على هذا الاتجاه . فلما جئنا فى لجنة الاختبار فى حفظ القرآن هش لى وطلب منى أن أقرأ سورة يوسف ، ولم يمهلنى حتى « ألبخ » فى التسميع . . إذ قال لى : ما رأيك فى قصة سيدنا يوسف ؟ وقال لزميله العضو الثانى : إن هذا الطالب يكتب قصصاً قصيرة . وأجبت بأن قصة سيدنا يوسف عظيمة .

والواقع أنى قابلته قبل انعقاد اللجنة ، وأبديت خوفى من الرسوب فى حفظ القرآن ، فقال لى : لا تخف ، توكل على الله . ثم أنقذنى بتلك اللباقة أو « الكلفتة » من رسوب كان محققاً لولا ذلك . والغريب أن دار العلوم كانت تدقق وتشدد فى حفظِ القرآن أكثر من الأزهر ، رامية بذلك إلى أن يستفيد الطلاب من بلاغته العربية العالية ، وهذه حقيقة لا شك فيها . ومما يلاحظ أن صاحب الموهبة الأدبية يغذى موهبته بالقرآن ، أما غير الموهوبين فيتشدقون فى غلظة و « فقهنة » .

رأيت فى دار العلوم نوعاً من « المشايخ » مختلفاً جدًّا عن مشايخ الأزهر . بعضهم « تطربش » والبعض الآخر لا يزال معمماً . وأظهر ما يميز مشايخ دار العلوم الحرص على النظام والحزم والشدة فى عقاب من يخالفه . كنا فى الأزهر نغش فى الامتحان ، والمشايخ يتغافلون عنا ،

وبعضهم يعاوننا . . من باب الشفقة . وأذكر أنى فى السنة الأولى بدار العلوم حاولت أن أغش . . فنظر إلى الأستاذ نظرة استنكار هائلة كادت تصعق إحساسى ! ولم يزد على أن قال : ما كنت أظنك تفعل ! وكانت هى المرة الأخيرة ، وبعدها صرت أذكر هذه النظرة وتلك القولة ، طالباً ومدرساً .

المنبع الذى يستقى منه الفريقان : فريق الأزهر وفريق دار العلوم - واحد ، وهو الخلق الإسلامى الكريم ، ولكن فرعاً يتجه إلى فهم خاص للشفقة والرحمة ، وفرعاً آخر يقسو على من يرحم لإصلاحه . كنا مع هذه القسوة نشعر بعطف الأبوة .

وهذا كلام « تاريخى » أعتقد أنه لا ينطبق على الواقع الحاضر فى الأزهر .

الطريق الثانى الذى يسرته لى مقالات الرسالة هو الذى حل عقدة « العيش » ذلك أنى اتصلت بالزيات ، وخلت عنده وظيفة مصحح للرسالة . وشغلت هذه الوظيفة بمرتب شهرى : مائة وخمسين قرشاً ، زيد بعد أشهر إلى جنيهين . وهذا العمل - وإن كان قد كفل لى رزقاً منتظماً - أرهقنى إلى واجباتى فى دار العلوم ، إذ كنت أصحح « الرسالة » وأختها « الرواية » الأولى أسبوعية والثانية نصف شهرية . وتجشمت الإرهاق إلى حد أنى كنت أصحح وذهنى كليل لا يعى ما يصحح ، وكان معى مساعد لا يعى شيئاً دائماً . . وكل عمله أن يمسك بالأصل للمقابلة بينه وبين التجربة المطبعية « البروقة » . كان هذا المساعد زميلاً للزيات فى طلب العلم بالأزهر مع طه حسين ومحمود الزناتى ، وعلى قدر ما أفلح

« الثالوث » : الزيات وطه حسين والزناتى – كان « مساعدى » هو الطرف الثانى للنقيض . . لم ينل شهادة العالمية بطبيعة حاله ، كما لم ينلها أحد من الثالوث لثورته على الجمود الأزهرى . على أنك إن رأيت « مساعدى » رأيت سمت العلماء الأجلاء وزيهم . والحق أنه كان رضى الخلق ودوداً لطيفاً . وهو من بلد الزيات « كفر دميرة » ورفيق صباه . ومن حسنات الزيات رعايته لهذا الرفيق ، إذ جعله مصححاً دون أن يقوم بتصحيح . . وأجرى عليه الرزق أو بعض الرزق ، إذ كان البعض الآخر من « أوقاف خيرية » يتوسط له فيها عند ذوى الشأن فى وزارة الأوقاف .

وذلك العمل حولنى إلى طالب يزمع الجد ويرمى إلى التقدم فى الدراسة ، لكى يحصل على جنيه فى الشهر ، ولكى يصل إلى هدف آخر بعيد : أن يسافر إلى إنجلترا فى بعثة علمية ، إذ كان المتبع كل عام أن ترسل الحكومة (وزارة المعارف) الثلاثة الأوائل من دار العلوم إلى إنجلترا ، وكنت أطمح أن أكون أحدهم سنة ١٩٤٠ التى أتخرج فيها – حولنى إلى طالب أقصى مناه وهمه أن يجتاز الامتحان إلى السنة التالية : « حمار سبخ » ليس إلا . . يتنقل بين دار الرسالة ودار العلوم ودار أقام فى غرفة فوق سطحها . وترك الصحاب فى الندوات والجولات ، وجرد أفراس التطلع الأدبى من رواحلها . . وكنت أتعزى بحلم يقظة هكذا :

أنا آخذ من الرسالة أربعة وعشرين جنيهاً فى السنة ، إذا ضربتها فى سنتين – كانت قد مضت سنتان من الدراسة وقت ذاك – كان حاصل الضرب ثمانية وأربعين جنيهاً ، من لى بها كى أستريح من هذا العذاب وأرى نفسى بعد . . مبعوثاً إلى إنجلترا !

وفى بعض الغفوات أرتكب إثماً . . إذ يذهب بى حلم اليقظة إلى تخيل أن والدى توفى وورثت عنه أرضاً ثمنها أضعاف هذا المبلغ !

ولكن أراحنى من ذلك الحلم ، وجنبنى ذلك الإثم الحالم . . قيام الحرب العالمية الثانية سنة ١٩٣٩ وما ترتب عليه من إلغاء البعثات . واستوى الأمر فى ذلك بينى وبين زميلى طاهر أبو زيد فاشا الذى جاء الثالث فى الامتحان النهائى ولم يسافر إلى إنجلترا . . وإن كان قد تميز هو والأوائل بالتعيين فى المدارس الأميرية (الحكومية) على حين رحنا نتسكع على أبواب المدارس الحرة . . ومما يذكر أن ترتيبى كان الثانى والعشرين والناجحون نحو مائة وثلاثين ، أكثر الله خير الدنيا . . فقد كان كل همى أن أنجح .

ومع تحملى المشاق والإرهاق فى عملى بتصحيح الرسالة والرواية مع الدراسة فى دار العلوم ، ومع القلق النفسى والأسى لمقاطعة الأهل بالقرية ، ومع « الكبت الأدبى » الذى فرضه علىّ التطلع الكامن فى أعماقى بحكم ظروف العيش — مع هذا كله شعرت بالاستقرار المادى والاطمئنان على الرزق . لأول مرة أطمئن إلى مرتب شهرى مضمون فى موعده أول كل شهر وإلى وجبة غداء كامل يومية . لا أنتظر الأيام والأسابيع ذوات العدد حتى يبيع أبى « الغلة » ويرسل إلى ثمنها . كما كان يحدث أيام كان الحبل متصلاً ، ولا أواجه مماطلة أصحاب الجرائد والمجلات التى عملت بها حيناً ، فالزيات رجل محترم يدفع ما ارتبط به ولو أنه قليل . هو حريص شحيح ، ولكنه لا يأكل الحق . ومن حسن الحظ — على كثرة ما كان سيئاً — أن بيئة طلاب دار العلوم لم تكنَ فى المتوسط ترتفع إلى أكثر

مما يتاح لى : جنيهان فى الشهر لا يزيد عليهما ما يتاح لأى طالب متوسط الحال فى هذه البيئة التى معظم أفرادها من أبناء الفلاحين أمثالى . وعلى ذلك لم يكن هناك ما يؤلم نفسى من رؤية زملاء يلبسون أحسن مما ألبس مثلاً . أذكر أن نتيجة امتحاننا فى سنة من السنوات نشرت فى جريدة يومية مع نتيجة كلية الحقوق ، ونشرت أسماء الناجحين فى كلا الامتحانين . قالت لى بنت الجيران التى هنأتنى بالنجاح ، وهى تشرب « الشربات » : لماذا تختلف أسماء طلبة دار العلوم عن أسماء طلبة الحقوق ؟ ولما استوضحتها ما تقصد فهمت أنها تعنى أن أسماء طلبة دار العلوم يكثر فيها مثل عبد اللاه وبسطويسى وعبد ربه والضوى ، وأن أسمــاء طلبة الحقوق فيها رأفت وممدوح وطلعت وحمدى . . إلخ ولم أقل لها إن أولئك فلاحون وهؤلاء حضريون ، حتى لا تلتفت إلى أنى فلاح . . وإنما حمحمت بمثل هذه الكلمات : لا ، أصل ، مسألة صدفة . . وغيرت مجرى الحديث لأدارى خجلى . ومن مفارقات الزمن وتطوراته أنى أخجل الآن أو ينبغى أن أخجل من ذلك الخجل ! ولو أنى كتبت تلك الوقائع فى وقتها كما تكتب المذكرات اليومية لتقمصت روحاً أخرى مجانية لهذا الصدق . . لا بد أنى كنت أقول فى نفسى لماذا أصارح الناس بهذا الذى يزرى بى وأنا أريد أن آخذ بينهم مكانة كبيرة ؟ أما الآن أو أما بعد فقد كان ما كان ، وما أشعر بشىء من ذلك يزرى بى . . إن هى إلا خطًى مشيناها . .

* * *

فرحت كل الفرح بنجاحى فى « دبلوم دار العلوم » كما كنا نسمى

شهادة التخرج شفويًّا . أما اسمها الرسمى المكتوب فيها فهو « إجازة التدريس من دار العلوم » لأنها – أى دار العلوم العليا – كانت بمثابة معهد تربية عال لتخريج مدرسى اللغة العربية . كان باعث الفرح العميق أن هذا النجاح علامة على الطريق الطويل تنتهى عندها مرحلة وتبدأ مرحلة أخرى . رحت أزف الخبر إلى « خطيبتى » التى تعلقت بها وأنا فى السنة النهائية ، والتى شاركتنى الحياة والأولاد وما تزال .

لا تظن أنى خطبت تلك البنت التى تقدم حديثها ، فقد انتقلت من المنزل الذى كانت بنت الجيران فيه . . إلى منزل آخر وبنت جيران أخرى هى التى خطبتها .

كانت علاقتى بالأولى من نزوات الصبا التى لا تصدر عن حب فى الأعماق . وكانت هى إنما تبغى « عريساً » فقد انقطعت عن المدرسة ، فجعلت تلبس و « تتشيك » وتمشى تتأود ، تشنف أذنيها بكلمات الغزل وتبدى التيه والدلال . استغفلتنى مرة فجعلتنى أكتب لها خطاباً غرامياًّ لحبيبها (واحد غيرى طبعاً) على أنه خطاب لصديقة لها . . كانت قد سافرت إلى الإسكندرية وعادت . قالت لى إنها تريد أن تكتب خطاباً لصديقتها التى كانت معها فى الصيف وإنها تحبها جداًّ . شرعت أكتب وهى بجوارى .

– احكى لى عن أشياء بينكما وعما كنتما تفعلان حتى أضمن الخطاب شيئاً من ذلك على أنه من الذكريات التى لا تنسى .

قالت : قل لها إننى لا أزال أتذكر جلساتنا على الشاطئ وتمددنا على الرمل وأنت تمسحين بيدك على شعرى . .

لم أدرك – لغفلتى – وقتذاك أن هذا إنما يحدث بين فتى وفتاة . .
وزاد من غفلتى أو قواها أنها كانت « ترشونى » ببعض المداعبات وتقول لى بعد أن تسمع ما أكتب : « ياه ! دانت لو كتبت لحبيبتك جواب كانت تتجنن ! » قلت لها متعزلاً منافقاً : طيب ، سافرى وأنا أكتب لك . .

لم يكن يخطر ببالى أن أتزوج مثل هذه . ولما قالت لى يوماً وقد نجحت فى امتحان النقل من السنة الثانية إلى الثالثة بدار العلوم : « فاضل سنتين مش كتير ، أستناك ! » فزعت وانتبهت إلى نفسى . . والجريمة التى نرتكبها فى ضلال الصبا هى أننا نعلق البنات بالتأميل فى الزواج ونحن كاذبون . .

بعد نحو عشرين سنة من ذلك العهد كنت ماشياً فى الشارع فسمعت صوتاً نسائيًّا رقيقاً ينادينى من خلف : عباس أفندى ! التفت وتأملت صاحبة الصوت . . إنها هى . . « اعتدال » : أهلا يا اعتدال ، أهذه ابنتك ؟ حلوة مثلك . .

لا أستطيع أن أعبر عن مشاعرى فى هذا اللقاء العابر الذى أعاد إلى نفسى عبير الصبا . . كم هى حلوة عذبة كلمة « أفندى » وهى تنطقها كما كانت تفعل فى الأيام الخوالى . . إننى لا أرضى بهذا اللقب « أفندى » بديلاً من مثل « أستاذ » أو « بك » أو حتى « باشا » على أن أسمعه ممن كان يخاطبنى به فى ذلك الزمان !

والغريب أنى شعرت فى هذا اللقاء العابر الذى لم يتكرر بما لم أشعر به فى عهدى الأول معها فى صدق الشعور أو قل نبله ، كأن الزيف والخداع ينقلبان فى الذكرى إلى صدق ونبل !

فى المنزل الجديد الذى انتقلت إليه ، وأنا فى السنة الثالثة بدار العلوم ، رأيتها . . بنت الجيران الجديدة . إنها زوجتى الآن ، وأنا رجل « شرقى » اسمح لى أن أكون متحفظاً فى الحديث عنها . . ولا سيما أنها أم الأولاد وهم الآن كبار ، وأخشى أن ينال أمهم سوء من هذا القلم ، كما أنه ليس من الوفاء بالنسبة لهذا القلم أن يمس من أحسن إليه بسوء ، أحسن إليه بتهيئة الجو للإنتاج ، وبكثير من الإيحاءات .

لن أفيض إذن فى الحديث عنها ، يكفى أن أقول إنى كنت أسمع والدتها . دون قصد إلى استراق السمع – تؤنبها على بعض الإهمال فى شئون المنزل ، بصوت حازم فيه ميل إلى لهجة ريفية ، يشبه صورة خالة لى أحبها . وأنا امرؤ لا تزال بى الصفة التى يسمونها « فلح » لم ولن تبرحنى مهما تعلمت ورحت وجئت . . وحننت إلى هذا « الفلح » ممثلاً فى هذه الأسرة التى تأقلمت فى القاهرة منذ زمن وإن كان جذرها فى الريف .

ويكفى أن أقول كذلك إن البنت كانت قد انقطعت عن التعليم بعد أن قضت فيه سنوات ، قعدت أو أقعدوها فى البيت ، شأن معظم بنات الطبقة المتوسطة بالقاهرة فى ذلك الوقت ، والهدف بعد ذلك هو « العريس » و « بيت العدل » وإنجاب من زاد بهم عدد سكان القاهرة حتى صار إلى هذه الحال الحاضرة . وقد اشتركت فى هذه الجناية . . ومن الله المغفرة . .

* * *

وماذا بعد ؟ دائماً أسير فى خطين : خط الأدب وخط الرزق ، وهما – كما تعرف – لا يلتقيان فى بلادنا .. فالأدب « لا يوكل عيش » ها نحن

الآن مثلاً : الواحد منا يعكف على تأليف كتاب ويعصر نفسه على الورق ، ثم يبحث عن الناشر ، فإن كان سعيد الحظ ووجده ، وكانت سعادته أكثر بالحصول على أجر ، فإن أجر التأليف – والكتابة على وجه عام – ينزل معاكساً ارتفاع ثمن كل شيء . . يقول لك الناشر : الورق غال ، والطباعة غالية ، والعمال أجرهم ارتفع . . إلخ ؛ وهذه الأشياء تكلفنى كثيراً . يقول هذا باللسان الصريح ، ويقول لك بلسان الحال الصامت : أما أنت أيها المؤلف فأنت رخيص لا تكلفنى شيئاً ، إنى سآكلك ! وإن كان الناشر فى القطاع العام لم يقل لك شيئاً ، إنما يقول لك الثمن البخس الذى يسمونه « مكافأة » كأنه تفضل بقول كل شيء . . ومن بعد ذلك الضرائب ، وما أدراك ما الضرائب ! إنها تقول لك : تعال هنا ، أتظن أنك ستنجو بالقروش التى أخذتها . . من قال لك : ألف أيها المنحوس ! تصور أن أديباً ألمعياً مثل وديع فلسطين يضرب عن الكتابة والتأليف سداً للباب الذى يأتى منه الريح . الضرائب !

وذلك كله إن كنت سعيد الحظ ووجدت ناشراً فما بالك إذا لم تجد ؟

واعلم – وقاك الله السوء – أن هذا « السوء » الحالى أحسن مما كان فى ذلك الوقت الذى أحدثك عما كان يجرى فيه .

أما الخط الثانى – خط الرزق – فقد أخذت أسير فيه متعثراً . . ها هى ذى « بطاقة التموين » – شهادة دار العلوم – فى يدى ، ولكن علىّ أن أقف فى « طابور » أسوأ من « طابور المجمع الاستهلاكى » لأن هـذا يتحرك ويتناقص ، أما ذلك فثابت . . المدارس « الأميرية »

مغلقة على من فيها لا تريد مزيداً . فليس ثمة إذن إلا السوق السوداء : المدارس الحرة . وتشبيه المدارس الحرة بالسوق السوداء تشبيه عكسى . . بمعنى أن البضاعة فى هذه السوق يرتفع ثمنها ، أما البضاعة التى هى المدرسون فينخفض ثمنها . . ومن هنا كان « تراب الميرى » تبراً . . والسعيد من يتمرغ فى التبر .

وخضت المعمعة من جديد ، زوجاً ثم أباً ، يشغله عبء العائلة ، حتى عن أقرب الأشياء إليه : الأدب ، بل هو لم يعد أقرب الأشياء إلىّ . . زهدت فيه ، بل سخطت عليه ، بل حاولت أن أقتله فى نفسى . . وقديماً قتل الشاعر « ديك الجن » حبيبته .

بعد التخرج بشهور اشتغلت مدرساً بمدرسة مكارم الأخلاق الابتدائية – نظام قديم – للبنات بشبرا . وهى مدرسة تابعة لجمعية مكارم الأخلاق الإسلامية . والتقيت فى الطريق بمحمد سعيد العريان ، وكنا قد تعارفنا فى الرسالة ، قال لى إنه مدرس بمدرسة شبرا الابتدائية للبنات (أميرية) فقلت له متظرفاً : كلانا مدرس حريمى . . فلم يضحك ولم يبتسم ولو مجاملة للنكتة البائخة . . بل على العكس . . كان مكتئباً حزيناً بائس الملامح على غير عادته ، وفى عنقه رباط أسود . . وأفضى إلىّ بسر حزنه : توفيت زوجته عقب أول ولادة لها ، وتركت له المولودة . وقد عرفت أنه كان يحب تلك الزوجة مما كتبه عن هذه المحنة فى مقالات متتابعة بمجلة « الثقافة » الأسبوعية التى كانت تصدرها لجنة التأليف والترجمة والنشر ، وكانت هى والرسالة تتنافسان . وقرأت معظم تلك المقالات وإن كنت قد بعدت عن القراءة الأدبية فى تلك

الفترة غارقاً فى تحضير الدروس وتصحيح الكراسات ، ومعاناة « دلع البنات » الذى ذكرنى به ما رأيته أخيراً فى عملية انتخاب بين أدباء ، إذ كان بين الناجحين ناجحتان ، احتجت إحداهما لأنها فازت بأصوات أقل مما نالته الأخرى ! وقالت : « ليه يعنى . . هى أحسن منى ! »

كانت تلميذاتى تحتج البنت منهن لأنى أعطيتها ثمانى درجات وأعطيت أخرى تسعاً . . وتعقب : « اشمعنا هيه يا فندى ! » .

استوحيت بعض قصصى من تعليم البنات ، ومن حياتى فى التدريس على وجه عام .

مقالات سعيد العريان فى تصوير محنته وحالته مع ابنته الصغيرة التى صار لها أمًّا وأبًا معاً – كانت تعذب القراء ، ومع هذا يستعذبونها . . لأنها – وإن كانت ذاتية – تعبير صادق . والغريب أنها كانت تنشر فى باب « الثقافة فى أسبوع » الذى بدأ فى كتابته قبل المحنة ، يتابع فيه مجرى الحياة الثقافية ، فلما وقع حادث زوجته حوله إلى مناحة معذبة (بكسر الذال المشددة) عذبة صادقة !

قضيت فى مدرسة مكارم الأخلاق سنتين ، تعبت فى السنة الأولى إذ أرهقت نفسى بمحاولة تطبيق المبادئ والنظريات التربوية ، وكأننى – وقد كبت النزعة الأدبية – أردت أن أكون مدرساً مثاليًّا ، وكأنه يلزمنى أن أكون مبرزاً فى أى شيء . ثم عدلت عن ذلك على أثر ما شاهدته من استخفاف الزملاء بما أبذل ، وقال لى أحدهم فى لهجة إشفاق وصداقة : لقد كنا مثلك أولاً ثم رأينا أن لا فائدة « إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ثم يا أخى – هو يقول – كيف نطبق المثالية التربوية

والواحد منا يأخذ جدولاً فوق عشرين حصة فى الأسبوع والفصول مزدحمة بأعداد كبيرة من التلميذات ؟ أضف إلى ذلك مرتباتنا الضئيلة التى تحملنا على إعطاء الدروس الخصوصية ، وخاصة فى هذا الوقت الذى ارتفعت فيه الأسعار بسبب هذه الحرب الدائرة .

رأيت ذلك معقولاً من ناحية الواقع المؤسف ، فتراخيت مع المتراخين . وكان ذلك فى أوائل الأربعينات والحرب العالمية الثانية طاحنة .

فى أول الحياة الزوجية ، وأول العمل بالتدريس ، بدأت سفينة حياتنا تسير فى رخاء لا بأس به . وحقًّا كان مرتبى ثمانية جنيهات فى الشهر : خمسة من الوزارة « إعانة مدرسين » وثلاثة من المدرسة . كانت بعض المدارس لا تدفع هذه الجنيهات الثلاثة ويوقع المدرس على أنه تسلمها . . ولكن مدرستنا كانت تابعة لجمعية محترمة . .

ولكن الأسعار كانت لا تزال منخفضة ، ولم يؤثر فيها نشوب الحرب إلا قليلاً . أجرت شقة من أربع حجرات وصالة فى عمارة جيدة بشبرا بمائة وثمانين قرشاً فى الشهر تضاف إليها عشرة قروش للبواب الذى أغنانا بعض الشيء عن خادم .

وبعد ذلك زادت الأسعار ، فتقررت إعانة غلاء عشرة فى المائة لأول مرة فى مصر . ثم أخذ الغلاء يستشرى حتى ضيق علينا وأخذ بخناقنا . وفى خلال ذلك تؤرقنا وتفزعنا الغارات الجوية ، فلا نكاد ننام أو نكون فى عز النوم ، حتى نسمع صفارات الإنذار ، فنهرع إلى أسفل العمارة نحتمى « ببير السلم » كنت آخذ حافظة النقود معى وألبس البدلة كاملة ، حتى إذ انهار المبنى وصرنا فى الشارع كنت على حال

مستورة ومعى نقودى . . وكنت أنصت إلى من معى فى « بير السلم » الخائفين على أعمارهم ، فأسمع كلاماً طريفاً وإن كان مصدره الهلع ، وكان النقاش أحياناً يجرى بين السخط على الإنجليز لأنهم هم الذين جلبوا علينا هذا البلاء ، والتأييد للألمان تشفياً فى الإنجليز ، وبين السخط على الجميع لأنهم كلهم مستعمرون .

ومن الحديث الطريف أن كان معنا من الجيران رجل لا يكف لسانه عن الثرثرة . وكان النساء يجتمعن فى شقة بالدور الأرضى مع سكانها ، وكانت ثرثرتهن تعلو بأصوات مختلفة مختلطة ، ونحن بجوارهن فى بير السلم . قال الرجل الثرثار : أعوذ بالله ، صنف الحريم هكذا . . لا يسكتن أبداً . . وهو نفسه لا يسكت !

واشتدت الأمور ، من غلاء وغارات ، ووصول الأنباء بهجوم « روميل » من الصحراء الغربية ، ورحيل العقاد إلى السودان خوفاً من « هتلر » الذى ألف عنه كتاب « هتلر فى الميزان » .

ورحلنا إلى السودان ، فراراً من سوء الحال ، والتماساً لرزق عيال هلت طليعتهم فى شخص الوليدة الأولى . .

وإلى اللقاء فى السودان .



فى السودان

فى صيف سنة ١٩٤٢ لقيت صدفة فى أحد شوارع القاهرة زميلاً من خريجى دار العلوم ـ هو عبد السلام الجوهرى الموجه العام للغة العربية الآن بوزارة التربية والتعليم ، ودار بيننا الحديث ، فقال لى إنه ذهب إلى السودان للتدريس بالكلية القبطية بالخرطوم ، وقضى هناك العام الدراسى الماضى ، ثم عاد فى الإجازة الصيفية :

– تعال معنا ، إنهم هناك محتاجون إلى مدرسين .

كانت هذه الكلمة حبل النجاة من الواقع السيئ فى مصر . على أنه ما كان شىء يهمنا إلا الخروج من ضنك المعيشة الذى تفاقم بالغلاء ، وأصبح المرتب الهزيل عاجزاً عن مواجهته ، أما بقية الأمور فلم تكن تدعو إلى رحيل .

وتعاقدت مع ناظر الكلية القبطية بالخرطوم ، الذى كان بالقاهرة ، و « باركنا » قسيس الكنيسة القبطية بالخرطوم التى تتبعها الكلية . ولم تكن كلية جامعية كما يفهم من لفظها . بل كانت عدة مدارس : ثانوية للبنين . وابتدائية للبنين وابتدائية للبنات ملحقة بها روضة أطفال ، ومدرسة تجارية ثانوية . ولعل لفظ « كلية » كان مشاكلة لتسمية « كلية غردون » السودانية التى أنشأها الإنجليز ، وكانت فى مستوى التعليم الثانوى .

وكان تلاميذ الكلية القبطية خليطاً من سودانيين ، وأولاد المصريين العاملين فى السودان ، وأولاد الأقباط المتوطنين فى السودان ، وكان هؤلاء كثيرين ، منهم التجار ، ومنهم الموظفون فى الحكومة السودانية والشركات الأجنبية . والأقباط يعيشون فى السودان كما يعيش إخوانهم فى مصر : على وفاق واتحاد وتواد مع المسلمين هناك كما هم هنا . ولكنا كنا نحس ونرى أن الإنجليز الحاكمين يؤثرون الأقباط ويعاملونهم معاملة أحسن من معاملتهم للمصريين المسلمين . وقد أكثروا منهم فى الوظائف الحكومية ، وسهلوا لهم الإقامة . وربما حاولوا — أى الإنجليز — أن يوقعوا بين الطائفتين ، ولكن الطائفتين كانتا أعقل من أن تستجيب لهذه المحاولة ، فلم تحدث فتنة طائفية هناك . لم يكن يفت فى عضد الوحدة الوطنية فى السودان إلا العلاقة بين الشمال والجنوب ، إذ كان الشماليون يتعالون على الجنوبيين ، ويسمونهم عبيداً . وقد استغل الإنجليز ذلك أسوأ استغلال مما هو معروف . لم نكن نرى الجنوبيين فى الخرطوم وأم درمان إلا خدماً فى المنازل ، ينادى سيد البيت الواحد منهم بقوله : « يا ولد ! بكل كبرياء السيد . . والقليل منهم يعمل فى مجال التجارة ، وكانوا يعرضون أنفسهم فى سوق الخرطوم ، يقولون لمن يتوسمون فيه « السيادة » ما معناه : أتريد خادماً يا افندى ؟ وكان الخادم منهم لا يرى فى لفظ « خادم » أى معنى يمس إحساسه ، فهو يرى الخدمة كأى عمل آخر ، وهو يخاطب « السيد » بلقب « أفندى » ولو كان معمماً . وهم يدمنون شرب « المريسة » والملاحظ أن « الشرب » منتشر فى السودان على وجه عام . الموسرون يشربون الأنواع المختلفة من الخمور المقطرة ، والفقراء

يشربون المريسة ، وقد رأيت هناك بعض الأساتذة المثقفين يحطمهم الإدمان ! كان معنا زميل سودانى يدرس اللغة العربية والدين الإسلامى وهو معمم على الطريقة الأزهرية ، ولعله تعلم فى الأزهر أو فى المعهد الدينى بأم درمان ، رأيته فى مكان ما بالخرطوم ثملاً يترنح . قلت له : ما كنت أظنك من أهل ذلك . قال : أنا ذلك نفسه !

وفى فترة لاحقة كنت أنزل فى فندق بالخرطوم . وصعدت مرة إلى سطحه الذى يقام فيه « كازينو » وجلست بالقرب من مائدة تحلق حولها نفر يشربون . . سمعت أحدهم يشكو مر الشكوى يقول وهو يضع الكأس بعد أن أتى على الثمالة : إن العراقيل توضع فى طريقه إلى العمرة !

وممن حطمهم الإدمان الشاعر محمد محمد على ، توفى سنة ١٩٦٩ . كان فى القاهرة وكنت وكيلاً لإدارة التأليف بوزارة الثقافة ، وقدم لنا ديوانه لكى تشترى منه الوزارة كمية لمكتبات النوادى والجمعيات . ولما وافق الوزير على ذلك بحثت عنه فلم أجده ، وقابلت الدكتور محيى الدين صابر صدفة فى قطار حلوان ، فسألته عنه ، فقال لى : لن تجده إلا فى إحدى حانات القاهرة . . الدكتور محيى الدين صابر سودانى متمصر ، وأنا — معاكسا له — مصرى متسودن . .

والجنوبى حياته فى « المريسة » ، لها الأولوية عنده على الطعام . قال خادمنا الجنوبى إنه لا يحب الرغيف . . وإنه يريد أن يأكل « كسرة » وهى خبز من الذرة كثير الخميرة والحموضة ، يصنع دقيقاً مثل « الرقاق » ويؤكل طريًا ، وهو سهل الهضم ، من يتعود عليه يستسيغه ، وقد يفضله مثلى . . وقد لا يرضى به بديلاً مثل صاحبنا . قلنا له : خذ

قرشين كل يوم واشتر بها كسرة . ولكننا لاحظنا بعد أنه يأكل الرغيف . . قلت له : أين الكسرة ؟ فقال بكل بساطة : إنه يشرب بالقرشين مريسة ؟

أحببت ذلك الخبز السودانى : الكسرة ، وكنت أطلبه دائماً كلما كنت هناك . وفى الفترة الأخيرة دعانى إلى الغداء صديقى الدكتور عبده بدوى ، وكان إذ ذاك مدرساً بجامعة أم درمان ، ولمحت على المائدة كسرة وبامية « ويكة » فقلت له : من أين لكم هذا ؟ قال إنه من عند الجيران . . قلت : قربه إلىّ . فقال وهو يبدى إعراض نفسه : أتحبه ؟ قلت : فقط قربه واحذر أن تمسه . . وبما أن الممنوع منه مرغوب فقد غافلنى وأخذ منه ، ولما استحسنه قال كأنه يدافع عن حق له مهضوم : نضعه بيننا ! ونافسنا الصغير « طارق » الذى لا يحب الطبيخ ، ولكنه خاض معركة « الويكة » المحتدمة بينى وبين أبيه . .

* * *

نعود إلى الأيام الخوالى حين كنا فى الكلية القبطية بالخرطوم ، كانت هذه الكلية بمثابة مدرسة حرة مثل المدارس المصرية الحرة التى تعينها وزارة المعارف المصرية وتقع تحت إشرافها . وقد تعاقدت معهما كغيرى من زملائى المماثلين لى فى المؤهل ، على مرتب قدره ستة عشر جنيها فى الشهر . والواقع أنه كان مرتباً مجزياً فى ذلك الوقت ، لأن الأشياء هنـاك كانت بتراب الفلوس . . ولم يكن يستقطع من المرتب أى استقطاع من ضرائب أو دمغة أو أى شىء ؛ مثل ما كان متبعاً فى المرتبات السودانية . وقد تبين لنا بعد أمرٌ كانت تخفيه عنا الكلية . . تبين لنا أن وزارة المعارف المصرية تمنح الكلية إعانة مدرسين : خمسة جنيهات شهرياً للمدرس

ذى المؤهل العالى ، وثلاثة لذوى الخبرة ، مثل ما تفعل فى مصر . وبعثنا بشكوانا إلى القاهرة ، وسافر محقق ، وارتفع المرتب إلى عشرين جنيهاً من بدء العمل ، واستحققت متجمداً . وقال لى الجار الظريف ، وهو تاجر مصرى متوطن فى السودان :

– مبروك يا عم . . نريد أكلة حمام . . حمام فقط !

واشترينا من السوق نحو عشرين زوجاً من الحمام « الزغلول » فقد شملت « العزومة » أهل بيته وأولاده ، وكانوا أصدقاء أعزاء لز وجتى ولى . أتدرى كم كان ثمن هذا الحمام ؟ جنيهاً واحداً ! كان النقد المصرى هو المستعمل هناك مع إضافة الشلن والبريزة الإنجليزيين مقدرين بخمسة قروش وعشرة .

* * *

عندما دخلنا إلى السودان كان أول القصيدة إيماناً . . إيماناً بهذا البلد الطيب وأهله الكرام . كان ذلك فى شهر أكتوبر سنة ١٩٤٢ وكنت أنا وزوجتى والطفلة الوليدة . نزلنا بمنزل أعد لنا فى أم درمان الملاصقة للخرطوم مثل الجيزة والقاهرة ، وصلنا ظهراً بعد أن قطعنا الرحلة فى أربعة أيام ، بالقطار إلى الشلال (السد العالى) ، ثم بالباخرة النيلية إلى وادى حلفا ، ثم بالقطار إلى الخرطوم . كانت رحلة ممتعة ، تبين لى من خلالها أنى تزوجت « رحالة » فقد كانت زوجتى مسرورة بهذا السفر ، وقد رحبت بالفكرة من أولها ، وحملت الوليدة بعد شهر من الولادة ، وبلاد الله لخلق الله . .

لم يكن المواطنون المصريون يقبلون فى ذلك الوقت على مثل ما أقبلنا

عليه إلا قليلاً منهم ، حتى فى داخل القطر المصرى . فى قطار الصعيد رأيت شابًّا فى مثل سنى يبكى ويمسح دموعه ، فقلت له مواسياً :

– مالك يا أخى ؟

قال بعد أن كفكف دمعه بصوت حزين ؟

– الغربة !

– أية غربة ؟ وإلى أين أنت ذاهب ؟

– إلى أسيوط . . نقلونى إلى أسيوط ، منهم لله !

– أتحزن لأنك ذاهب إلى أسيوط ؟ أفتدرى إلى أين نحن ذاهبون ؟ إنك ستنزل بعد حوالى ساعة ، أما نحن فلن نصل إلى ما نحن ذاهبون إليه إلا بعد أربعة أيام . .

وتعزى بنا ، وسرى عنه . .

والآن تبدلت الحال . وصار اغتراب المصرى مطلباً عزيزاً ، بل أمنية ، بعد أن كان يعد فاجعة ، حتى الفلاح المصرى الذى عرف بشدة لصوقه بالأرض صار الآن يطوف غرباً إلى ليبيا وشرقاً إلى العراق ، وسبحان مغير الطباع ...

ونعود إلى المنزل الذى نزلنا به فى أم درمان . ما مضت ساعة من نزولنا حتى طرق الباب . . ودخل غلامان يحمل أحدهما صينية الغداء والآخر بطيخة .

قيل لنا من قبل : احذروا أن ترفضوا الكرم ، فإن ذلك يعد إهانة . تغدينا ، وعملاً بما قيل لنا لم تقع منا إهانة !

وحدث مثل ذلك فى العشاء ، إذ جاء به نفس الغلامين .

وفى صباح اليوم التالى جاء غلام آخر من بيت آخر من بيوت الجيران ، وقال : « الأفندى يقول لكم ما تطبخوا الليلة » و « الليلة » باللهجة السودانية معناها بالمصرية « النهارده »

ومكثنا سبعة أيام لا نطبخ .

« أم درمان » هى أحد أضلاع المثلث الذى يكون « العاصمة المثلثة » مثل القاهرة الكبرى ، والضلعان الآخران هما « الخرطوم » و « الخرطوم بحرى » . ولكن أم درمان بالذات تحتفظ بالملامح السودانية الأصيلة ، والكرم السودانى متأصل فيها كما رأيت فى صنيع جيراننا الذين استضافونا سبعة أيام . لم يكن بها إذ ذاك فندق . عندما أراد أحدهم بعد ذلك أن ينشئ بها فندقاً احتج أهلها ، لأن الفندق معناه أن يباع الطعام والإيواء فى بلدهم للوافدين عليه . واعتبروا ذلك ثلباً لهم واتهاماً بالتقصير فى إكرام الضيف . ولكن أوضاع المدنية الحديثة تغلبت وزحفت ، ولا تزال تزحف حتى صار الآن فى أم درمان عدد كبير من الفنادق ، ومع ذلك لا يزال الكرم المتأصل مقيماً هناك .

فى سنة ١٩٥٤ ذهبت – فى فترة ثانية – إلى السودان مدرساً بمدرسة المؤتمر الثانوية بأم درمان . سافرت وحدى وتركت « القبيلة » التى تعددت فروعها حتى صارت خمسة : اثنتين وثلاثة ، ونزلت بفندق فى الخرطوم ، على ظن أن أم درمان ليس بها فنادق . وجرى حديث بينى وبين سائق « التاكسى » فقال لى :

– لماذا يا أخى تقيم فى الخرطوم ؟ الخرطوم أكثر من فيها أجانب ، وكل شىء فيها غال .

– وأين أقيم إن لم يكن فى الخرطوم ؟
– فى أم درمان يا أخى .
– وهل فى أم درمان فنادق ؟
– نعم فيها ، وكذلك مطاعم ، وهذه وتلك أسعارها رخيصة .

ووصف لى فندقاً . لعله كان الوحيد فى أم درمان ، وجدته بيتاً كسائر البيوت السودانية : دور واحد من عدة حجرات ، وفى مقدمته فناء واسع ، يقع فى ركن منه المرحاض والحمام ، والمراحيض فى أم درمان ذات خزانات مثل ما فى ريف مصر وفى بعض ضواحى القاهرة . أما فى الخرطوم فنظام مراحيضها كان – ولا تزال آثاره – عجيباً . . يوضع « جردل » كبير تحت فتحة المرحاض ، وفى منتصف الليل تأتى عربة كبيرة يجرها جملان . فيسحب العامل الجردل من فتحة فى سور المنزل لها باب وقفل ، يأخذ الملآن ويضع مكانه آخر فارغاً . وفى الفترة التى تجرى فيها هذه « العملية » تنتشر رائحة كريهة :جزاءاً وفاقاً للساهرين العائدين من مشارب المريسة وأشباهها . . أما الناس الطيبون فكلهم نائمون مبكرين وكان ذلك نظاماً إنجليزيًّا ، وقد أطلق على العربة الكبيرة اسم ساخر هو « أسطول الحاكم العام » وكان إنجليزيًّا . وبعد ذلك بسنين ، وبعد خروج الإنجليز ، عملت الحكومة الوطنية مجارى عمت أكثر البيوت ، وما تزال الجرادل فى قليل منها حتى الآن .

وجدت راحة وهدوءاً تامين فى ذلك الفندق ، فهو يقع فى طرف من أطراف البلد ، وهو فى معظم الأيام خال إلا منى ومن « مارتينو » الخادم الجنوبى الوحيد ، وقد بادلته إنجليزية بعربية . . أخذت عنه توسعاً فى

اللغة الإنجليزية التى تعلمتها فى الكبر وتعلمها هو أو تلقنها فى الصغر ووسعت أفقه فى اللغة العربية الدارجة ، وكان لى « مارتينو » نعم المعين ونعم الصديق . . كان يأتى لى بما أحتاج إليه من السوق البعيد ، ويطهو لى أحيـاناً ، وأحياناً أطهو أنا ، كما تعودت على ذلك منذ الصبا البعيد . وكان يصر على أن يكوى ملابسى كلها بعد غسلها وجفافها ، حتى الملابس الداخلية برغم تنبيهى له بأن هذا غير لازم . وتلك عادة أخذها — كسائر مواطنيه — عن الإنجليز . وقد تعود أيضاً أن يكوى الجوارب ، وكان ضمن ملابسى جورب « نايلـون — أدل سايز » وكان هذا النوع حديث الظهور ، وقد اشتريته غالياً ، فما إن وضع عليه المكواة حتى ساح . .

— فداك يا مارتينو . بس ابقى خلى بالك .

— سمح .

و « سمح » معناها فى المصرية « طيب — حاضر » .

فى بعض الأحيان كنت أذهب إلى مطعم فى السوق على سبيل التغيير . وأول مرة أكلت فى المطعم طلبت ملعقة ، فضحك خادم المطعم من هذا الطلب الغريب ! ذلك أنهم هناك يأكلون بأيديهم كل شىء . يضع الآكل أصابعه الخمس فى الطبق ويجمع كمية من الطعام بينها ويرفعها إلى فمه ، ولا ينسى أن يعلق مكانها فى يده . رأيت مثل ذلك فى الكويت . وهذه الطريقة وإن كان لا غبار عليها إذا كانت اليد نظيفة ، إلا أنها تكون منظراً لا يسر عند من لم يألفها . وقد حدثنى صديق سودانى أديب ظريف بأنه يشعر أن يده تتذوق الطعام كما يتذوقه الفم . . والمسألة على أى حال لا تخرج عن كونها عادة يألفها قوم ويستهجنها قوم

آخرون . نحن - المصريين مثلاً نمسك بالرغيف ونقطعه لقمة لقمة ، ونغمس اللقمة فى الطبيخ ونضم إليها بعض القطع بالأصابع إن كان الطبيخ بطاطس مثلاً ، أو نقعر اللقمة الطرية كى تحمل أكبر قدر من الملوخية ، أو نجمع حول اللقمة كمية من الفول إن كان الطعام مدمساً . . إلخ . ولا شك أن الأوربيين أو الأمريكيين لا يستسيغون ذلك . ولا شك أيضاً أن منظرنا ونحن نمسك قطعة اللحم أو ورك الدجاجة باليد ، وقد نمسكها باليدين حتى لا تفلت ، وننهشها نهشاً . . أو ونحن نرفع « القلة » إلى الفم مباشرة ونجرع منها بصوت عال ، ونتجشأ بصوت أجش . لا شك أن هذا المنظر أو ذاك منظر فريد لديهم .

وفى يوم من الأيام عدت من المدرسة فوجدت الفندق الهادئ مائجاً . وصدمت سمعى - قبل الدخول - أصوات مصرية غير مستحبة مع الأسف . . فرقة من « العوالم » جاءت لتقدم « عروضها » فى السودان . امرأة فى نحو الأربعين ، وفتاة فى نحو العشرين ، وجماعة من الرجال بين زمار وطبال . . صوت المرأة يجلجل فى مد وغن . . وتندمنها ألفاظ تدل على كوامن فى النفس ، فهى تقول مثلاً للفتاة : « وحياة أمك اللى ماجد عرف يضحك عليها ! » ونفهم من هذا أن الفتاة ابنتها . وكانت الفتاة على عكس الأم خافضة الصوت رقيقة الكلام ، وفيها شىء من ملاحة وجاذبية . ويدرك الإنسان أن الفرقة تعتمد فى رواجها على جاذبية الفتاة ، قد تكون حسنة الغناء ، أما الرقص فحسبها أن تحرك قدها الممشوق ، ولا بد أن يكون تأودها مثيراً للمتفرجين كيفما كان . . وقد عرفت من حديثهم أن اسمها « نعيمة »

سألونى – وقد أنسوا إلى بعض الشىء لمصريتى – عن السوق ، لكى يشتروا منه طعاماً ، فأجبتهم وضمنت إجابتى ما ينفرهم من هذا المكان من حيث انعزاله وبعده عن المطالب الحيوية ، وقلت لهم ما معناه : ما الذى أتى بكم إلى هذا المكان المقفر ؟

وذهب اثنان منهم إلى السوق ، ولم يعودا إلا بعد مدة طويلة ، جاء يسبان ويلعنان . . وحملهم ذلك كله على الرحيل فى صباح اليوم التالى ، وقال لى أحدهم وهم راحلون – قال بحذاقة قاهرية مثل ما قلت لهم : ما الذى أتى بك إلى هذا المكان المقفر . . ؟

وبعد أيام كنت فى الخرطوم ، ومررت بسرادق عليه أنوار مختلفة الألوان ، وسمعت صوتاً من مكبر الصوت يصك الأسماع ويذيع فى الأرجاء :

« قرب يا جدع . . قرب وشوف الفنانة نعيمة المصرية » .

* * *

أخذنا الكلام ، وتقدم بنا إلى الأمام فى الزمان ، فلنعد إلى حديثنا فى أول العهد بالسودان . لم نجد راحتنا فى المنزل الأول ، لأنه كان حديث البناء ولما يدخله الماء ولا نور الكهرباء . قال لى « محمد أفندى » مدرس التربية البدنية أو ضابط المدرسة كما كان يسمى ، وكان قبل أن يعمل بالمدارس جنديًّا بالجيش فى مصر ، كما كان أكثر المدربين أو كلهم فى المدارس المصرية قبل أن ينشأ معهد التربية البدنية ، قال : إننا نسكن فى منزل كبير أكبر مما نحتاج إليه ، فتعالوا معنا على أن نخلى لكم حجرتين لا حاجة بنا إليهما . وقضينا مع هذا الزميل وأسرته

شهراً ، كان ممتعاً من ناحية المعيشة ومعاشرة الناس البسطاء الطيبين :
كان محمد أفندى يذهب يوم الأحد (العطلة الأسبوعية) إلى حلقة سمك على شاطئ النيل ويعود بقفة مملوءة سمكاً من مختلف الأنواع والأحجام .

– بكم كل هذا يا محمد أفندى ؟

– بخمسة قروش . وهذا باقى الشلن الذى أعطيتنى إياه ، فالثمن مناصفة !

– لا يا رجل ، باقى إيه ؟

– كيف ؟ لا يصح .

– لا والله العظيم . هذه حسبة بسيطة .

وفى آخر الشهر أعطيت محمد أفندى جنيهاً أجرة السكن ، كانت الأجرة تدفع مؤخرة ، فقال :

– ليس معى فكة !

– لماذا الفكة ؟

– أجرة المنزل كله جنيه ، يبقى لك نصف جنيه .

– لا يا أخى والله العظيم . هذه حسبة بسيطة .

كان محمد أفندى صاحب عيال كتار ، ومرتبه قليل : خمسة جنيهات !

وعندما وجدنا مسكناً فى الخرطوم أسف كل منا على فراق الآخر .

الأمر الشديد القوى هو الذى دعانا إلى السكنى بالخرطوم ، فقد كانت السكنى بأم درمان ، إلى جانب المتعة المعيشية والفائدة الاقتصادية ، ذات وجه آخر متعب كل التعب . كنا نركب الترام الذى يقطع المسافة

بين الخرطوم وأم درمان فيما لا يقل عن ساعة ، وهى مسافة تقطعها السيارة فى نحو ربع ساعة . ولم يكن هناك إذ ذاك وسيلة أخرى عامة للمواصلات . كان الترام يسير على قضيب مفرد ، أى لا يوازيه قضيب يسير عليه القطار الآتى من الناحية الأخرى ، وفى بعض المحطات يزدوج الخط ، وينتظر القطار حتى يأتى القطار المعاكس ، فيمر كل منهما من ناحية . ومرة كنا مروحين فى الساعة الثانية بعد الظهر فى جو حار ، وحدث أن التقى القطاران فى غير محطة ، ووقفا وجهاً لوجه أو سائقاً لسائق . وأبى كل منهما أن يرجع ، وامتدت المناقشة فحلف كل منهما بالطلاق ألا يرجع . . وبدت المشكلة معقدة ، ومكثنا نحو ساعة ننتظر الفرج . . ثم خطرت لبعض الركاب فكرة كان فيها حل الموقف . انعقد من أعيان الركاب مجلس تحكيم أخذ مكانه فى ظل شجرة ، واستدعى السائقان أمام المجلس الذى أصلح بينهما وأفتى لهما فيما يختص بالطلاق . . .

ومرة كنت راكباً ذلك الترام وهو يسير على جسر فوق النيل الأبيض الذى يفصل بين الخرطوم وأم درمان ويلتقى هناك بالنيل الأزرق ، ويعرف مكان الالتقاء باسم « المجرن » وأصل الكلمة بالفصحى « المقرن » أى مكان اقتران النيلين . وكان الجسر ضيقاً طويلاً ، يمتد شريط الترام على جانب منه . والجانب الآخر طريق لا يتسع عرضاً إلا لمرور سيارة . كنت مستسلماً لبطء الترام على أنه قدر مقدر لافكاك منه ، ولكنى لحظت منظراً جعلنى أحمد الله على قدرى ، وأدرك حقيقة ما يقولون : قدر أخف من قدر !

ذلك المنظر : حمار وضع عليه بالعرض عصا غليظة طويلة علق

بها على جانبي الحمار عدد من (قفف) الخضر ، فى كل منها صنف البامية والملوخية والباذنجان ، ويركب على ظهر الحمار صاحبه ، حمل ثقيل ينوء به الحمار فيسير بطيئاً كأنه طليعة ركب يتكون من السيارات الزاحفة خلفه فى صف طويل يسد عليها الحمار الطريق بما حمل . .

أعيد بناء ذلك الجسر بعد ذلك أو أجرى توسيع ، فما تزال قضبان الترام مفروشة فيه برغم إلغائه واستبدال السيارات العامة به . ومما يجدر ذكره أن هذه السيارات درجة واحدة ، وكذلك جميع السيارات العامة فى السودان .

والمنظر على ذلك الجسر جميل ، حيث يلتقى النيلان فترى الماء الأبيض يقترن بالماء الأزرق فى « حفل قران » دائم . . ونرى حديقة « المجرن » بأشجارها العالية وأزهارها الدائمة التى لا يعدو عليها خريف ولا يقتلها شتاء . وبرغم ذلك ترى الجسر خالياً من المارة ، من مثل المتنزهين على « كوبرى قصر النيل » مثلاً . ولعل ذلك لأن الحكام الإنجليز أنشأوه لمرور عرباتهم ضيقاً على قدها ، وكأن الشعب قال لهم : « اشبعوا به أيها الأكلة الغاصبون . . » واستمر ذلك طبقاً لقانون القصور الذاتى . ولا تزال فى السودان أشياء من آثار الإنجليز طبقاً لذلك القانون .

ومما كنا نستمتع به فى أم درمان ليالى القمر ، إذ كنا نخرج فيها إلى مشارف صحراء كررى ، حيث الجو كله أبيض ، إذ تفترش الأشعة البيضاء الرمل الأبيض ، كنت أقرأ فى ضوء القمر . . فهو هناك ساطع ، لا تراه كذلك فى مكان آخر ، لأن الجو جاف والسماء صافية . القمر

هناك يسخر من كل علماء الفضاء ومركباتهم وما يقولون عنه . إن لحظة تقر فيها النفس وترق المشاعر وهى تسبح فى أمواج ضوئه لأعظم من كل ما وصل إليه علم الفضاء . . .

والجو فى السودان جاف ، مما جعل الحر محتملاً على عكس البلاد الرطبة الحارة ، ورق الجرائد هناك لا يصلح للف الأشياء ، لأنه ينكسر . وأذكر أنى مرة أخذت من القاهرة قبعة خوص ، ولما شرعت ألبسها هناك للوقاية من الشمس الحامية وجدتها تتحلل وتتناثر حتى ذهبت فى الهباء .

ولما سكنا الخرطوم اشتركت فى « دار الثقافة » لا للثقافة ، فلم تكن هناك منها إلا محاضرات نادرة الوقوع ، ولعل الإنجليز أنشأوا ذلك النادى لكى يلتقوا فيه هم ومن يلوذ بهم . ودار الثقافة يشغلها الآن المجلس القومى للفنون والآداب ، إنما اشتركت فى دار الثقافة بغية الانتفاع بحمام السباحة المعمول فيها . وكنت أزاول العوم صغيراً فى ترعة القرية مع ديدان البلهارسيا ، ثم فى حمام السباحة التابع لوزارة المعارف بعد أن كبرت ، وعولجت من البلهارسيا وصرت طالباً فى دار العلوم ، ولم أكن حتى تلك الفترة الأولى فى السودان قد رأيت بحراً مالحاً ، ولم أذهب إلى الإسكندرية أو أى مصيف آخر إلا فيما بعد ، لأن الزوجة العزيزة غلبتنى بالعيال وأنا أجاهد كى أغلبها بالمال . وهكذا قدر علىّ . . أن أكون ابناً مضيعا ، ثم أباً راعياً . .

كل متعة نلتها فى تلك الحياة كانت لذيذة . . لأنى انتزعتها

من بين براثن الأسد . . حتى « عباس » قاومته فصرت إلى ضده « بسام »
أو قل إن حياتى صراع بين الاثنين : عباس وبسام !

* * *

فى الخرطوم رأيت حضارة أوربية ممتزجة بالبيئة السودانية . كان فيها كثير من الأوربيين : الإنجليز الحاكمين والذين يحتلون أهم الوظائف فى الإدارة والتعليم ، واليونانيين الذين كنت تجدهم فى كل مكان بمصر والسودان يزاولون أعمالاً وصناعات مختلفة ، وأجناس أخرى أقل أهمية . قل ما شئت ، وأنا معك ، فى الوطنية والحرية ، والعن ما شئت وأنا معك المعتدين على البلاد وسالبى حريتها وناهبى ثرواتها ، ولكنى لا أستطيع أن أحبس كلمة حق ، ولو لم تكن معى . . تلك هى أن النظام كان سائداً والمرافق تؤدى عملها على خير وجه ، والنظافة فى الشوارع والأسواق ملحوظة ، وكل موظف أو عامل فى المكاتب ومقار الأعمال يؤدى عمله بنظام ودقة . رأيت ذلك كله بالخرطوم فى الأربعينات أيام حكم الإنجليز . مثلاً – إذا كانت لك مسألة أو شكوى فلا داعى لأن تذهب للسؤال عنها فضلاً عن أن توسط ذا نفوذ أو تدفع لصاحب نفوذ . . وإنما ستقضى الحاجة وأنت فى مكانك أو ترد إليك رسالة تحمل الرد المقنع الذى قد يصل إلى حد الاعتذار الرقيق ، هذا مثل لحسن الإدارة ، وهاك مثلاً للنظافة : كانت سوق السمك واللحم فى الخرطوم مايأتى عليها الظهر إلا وهى مغسولة . . أكاد أقول بالليف والصابون . . ولكنك الآن ومن قبل الآن بسنوات لا تستطيع أن تمشى فى تلك السوق إلا غائصاً فى

مخلفات الأسماك والذبائح المختلطة بأوساخ الأرض ، إلى الروائح الكريهة التى تنبعث من هنا ومن هناك . وفى فصل الخريف (من يونيه إلى سبتمبر) . وهو فصل المطر – تتكون البرك والمستنقعات فى الشوارع والطرقات ، وفى القاهرة مثل ذلك ، بى مثل ما بك يا جارة !

رأيت اهتماماً لا بأس به فى الخرطوم سنة ١٩٧٢ بالنظافة ، ورأيت صورة رئيس الجمهورية منشورة فى الصحف وبيده مقشة ، وشاهدت صورة وزير الشئون الدينية يكنس الجامع . ثم رأيت مثل ذلك وبعد ذلك فى القاهرة ، رأيت صورة توفيق الحكيم بجريدة الأهرام يحمل مقشة . بعض هذه الصور مفتعل ، ولا بأس بهذا الافتعال ، فهو قدوة طيبة على أى حال . ولكن البأس كل البأس أنه زبد يكون فى موسم أو ما يسمى « أسبوعاً » ثم يذهب جفاء !

والسؤال الحائر : لماذا لم نستفد من الأوربيين الذين عاشرناهم فى بلادنا أو فى بلادهم ونحن فى بعثات ؟ أعتقد أن تربيتنا منذ الطفولة – فى البيت وفى المدرسة – ناقصة ، إننا نستعمل الحضارة الغربية من الظاهر ، وندعى التدين بالإسلام لا نعمل به ، وقد لا نفهمه على حقيقته . وأعتقد أن معظم السلوك فى الغرب ينطبق على آداب الإسلام وفضائله التى يخلو منها سلوكنا . .

يبدو أننى انسقت فيما يشبه الوعظ ، فلندع هذا ولنعد إلى الخرطوم فى أوائل الأربعينات حينما كنت هناك . كان العنصر الأجنبى الغالب – بعد الإنجليز – هو اليونانى ، وكلمة « غالب » فى وصف اليونانيين غيرها

فى وصف الإنجليز . فالمقصود أن العنصر اليونانى كان متغلغلاً فى الحياة الاقتصادية والحضرية ، مثل المحلات التجارية والشركات والفنادق والقهوات والحانات وما إليها .. والحديث عن مدينة الخرطوم فى ذلك الوقت لا يمكن أن يغفل هذه العناصر الأجنبية ، فقد كانت نصف أوربية أو نصف سودانية . واليونانيون لهم قدرة فائقة على التأقلم والتداخل مع أهل البلاد . وكثير من أبنائهم وأحفادهم يعيشون الآن فى السودان سودانيين . كنت أعرف فندقاً يديره صاحبه اليونانى وزوجته ، ثم قصدته بعد تغير الحال مع الزمن الطويل ، فشعرت أنى أقف على أطلال ، ورثيت لما آل إليه من سوء الحال .

كانت جلستنا المفضلة فى قهوة « أنطونيادس » أو فى قهوة الحلوانى ، وكلتاهما ليونانيين . نهرب – أنا وبعض الزملاء – إلى « أنطونيادس » من قعدة النادى المصرى التى نرى فيها الوجوه المعهودة فى مصر ونحن نريد أن نرى وجوها أخرى ، حقاً كنت آنس بالمواطنين المصريين فى النادى ؛ ولكنى كنت أمل من حديث العلاوات والمرتبات وما يشترى من الأسواق لا نخرج من هذه الأحاديث إلا إلى لعب النرد وتشديد الدعوة إلى « الطلبات » والقسم بالله العظيم على « دفع الحساب » . ومما يلحظ أن المصريين العاملين فى السودان تصيبهم عدوى الكرم من السودانيين ، مع فرق أن الكرم السودانى ينساب طبيعياً ، أما كرم المتسودنين فيصحبه رفع الأصوات والأيمان المغلظة والإكراه على أن تشرب من الشاى والقهوة ما يؤرقك طول الليل . . كان لى زميل مدرس مصرى هو الشاعر أحمد

أبو المجد عيسى ، ظل يلاحقنى بهذا الكرم إلى حد أن زارنى فى الفندق وأصر على أن يطلب لى شايًا . . حتى حفزنى إلى أن أكتب مقالاً فى جريدة « العلم » بعنوان « هذا الكرم شر . . فاحذروه » ومع ذلك لم يكف الصديق « الكريم » عن ملاحقتى بكرمه . . أنا لا أحب الإكرام الذى يجاوز الحد المعقول بالإلحاح على أن يأكل الإنسان ويشرب ما يضره . وهذا هو معنى الشر الذى قصدته . ومما ألاحظه فى حياتنا الحديثة أن نزعة الكرم أخذت صورة التظاهر والتفاخر من جهة ، وشكل « الشباك » التى تصطاد بها المنافع من جهة أخرى . وقد أحسن أخونا ثروت أباظة بإبطال الدعوات إلى « العدس الأباظى » التى كانت متبعة بسماحة فى الجيل الماضى .

كبت أدبى

بقيت بقية من الحديث عن مدينة الخرطوم الذى خضنا فيه فى الفصل السابق .

كنت أتردد على النادى المصرى هناك ، وأجلس فى شرفة تطل على الشارع الكبير الذى يمتد من محطة السكك الحديدية إلى قصر الحاكم العام – اسمه الآن قصر الشعب – وأنظر ناحية اليسار حيث يقع « نادى الخريجين » السودانى القائم بجوار النادى المصرى ، يفصل بينهما شارع صغير متفرع من الشارع الكبير . أنظر وأتعجب . . أليس هذا الشارع الفاصل يشبه السور الفاصل بين برلين الشرقية وبرلين الغربية ؟ ولكنا نسمع عن أفراد من برلين الغربية يقفزون إلى الشرقية ، والعكس . . أما هنا فلا أحد يتخطى الحدود . . وبتشبيه آخر : كان أعضاء الناديين كسكان شقتين متجاورتين فى عمارة حديثة بالقاهرة ، لا يعرف سكان إحداهما سكان الأخرى .

كان هناك حاجز وهمى من صنع الإنجليز ومن وحى الإنجليز . كان أعضاء « نادى الخريجين » يأخذون موقفاً شبه معاد لمصر . . الخريجون – وهم أغلب أعضاء النادى – من خريجى كلية غردون التى يسير فيها التعليم وكل شىء على غرار إنجليزى ، وهم شبان ورجال وطنيون ، اختلطت

عندهم – حسب تصوري – العاطفة الوطنية بالإيهام الإنجليزي نحو مصر ، فأخذوا موقفاً معادياً للحكم الثنائي ، أي حكم الإنجليز ومصر للسودان . وكانت هذه مغالطة تاريخية ، إذ كان الأمر كله للإنجليز ، ومصر مظلومة حتى فى بلادها .

وهكذا ظلمنا الأشقاء وصدقوا الإنجليز . . وكنت ألحظ هذا الموقف لا فى مجال الوطنية فحسب ، بل كذلك فى مجال الثقافة ، إذ كان أكثر السودانيين الذين يتخرجون فى كلية غردون يميلون إلى الثقافة الإنجليزية كل الميل ، وينظرون شزراً إلى الثقافة العربية . .

وهنا ثلاث مفارقات : الأولى كراهية الإنجليز وحب ثقافتهم ، والثانية أن السودانيين الشماليين عرب فى طباعهم وأخلاقهم ، ولغتهم الدارجة أقرب العاميات إلى العربية الفصحى ، ومع هذا لا يتجهون أو لم يكونوا يتجهون إلى القومية العربية ، ولم يكن يدخل اتجاه الوحدة العربية فى معجمهم الوطنى . المفارقة الثالثة أنهم برغم الموقف الانفصالى كانوا يهشون ويرحبون بكبار الأدباء المصريين الذى يفدون إلى السودان ، مثل العقاد ولم أكن هناك وقت وجوده ، ولكنى سمعت عن حسن استقباله وتكريمه ، وشهدت حفاوة بالغة بأساتذة كبار منهم السباعى بيومى الأستاذ بدار العلوم ، إذ لقيت محاضراته فى الأدب والتاريخ الإسلامى بنادى الخريجين فى الخرطوم ونادى الخريجين بأم درمان وفى دار الثقافة – لقيت مثل ما لقيته أم كلثوم أو قريباً منه عند ما زارت السودان سنة ١٩٦٨ ، وحسب الأديب تقديراً من الجماهير أن يكون كمطربة !

ومن الأشياء الصغيرة التى لا تنسى ما حدث فيما بعد (سنة ١٩٥٤) بالنادى المصرى . دخلت النادى فلمحت مجلساً من علية المصريين يتصدره محمد فريد أبوحديد ، وكان مستشاراً بوزارة التربية المصرية فى رتبة وكيل وزارة ، أردت الميل عن طريق المجلس ، ولكنى رأيت الأديب الكبير فى نظرى ، ومستشار الوزارة فى نظر القوم ، يقف ويهتف لى هاشاً فاتحاً ذراعيه . . . ونهض كبار القوم يسلمون علىّ ، وصاروا بعد – وفيهم رئيس بعثة التعليم – يحترموننى جداً . . لما رأوا من مستشار الوزارة ! وهم يجلونه للصفة الرسمية ، وأغلب الظن أنهم لا يعرفون قدرة الأدبى ، وبالتالى لا يعرفون لى قدراً غير أنه سلم على ذلك السلام ! كان فريد أبو حديد عظيماً فى أدب الدرس وأدب النفس ، لست أدرى لماذا لا نذكره فى أدب النفس ، فكان يعف عن صغائر الدعاية لنفسه ؟

* * *

برغم موقف السودانيين « المتجلنزين » من الثقافة المصرية – كانت هذه الثقافة ذات تأثير كبير فى الفكر السودانى ، وكان أكثر المتحمسين أو المتشربين لها – أوثر كلمة « المتشربين » – من الذين تعلموا فى المعهد الدينى بأم درمان ومن الذين تعلموا فى مصر بالأزهر أو غيره . وكانت الحركة الأدبية العامة فى السودان تعد انعكاساً لمثيلتها فى مصر ، إلى حد أن المعارك الأدبية التى كانت تقوم فى مجلة الرسالة أو غيرها من الصحف والمجلات المصرية تنعكس صورها هناك ، فترى أنصاراً لهذا وأنصاراً لذاك من المتعاركين فى مصر .

ونعود إلى الناديين المتجاورين المتباعدين . . لنرى أن الابتعاد ليس من الجانب السودانى فحسب ، فهو كذلك من الجانب المصرى ، وإن كان الباعث مختلفاً بين الجانبين ، إذ هو فى الأول « وطنى مغلوط » وفى الثانى مبادلة الموقف بمثله ، وفيه مع هذا تهيب . . فالمدرسون « الغلابة » والموظفون الآخرون بالرى المصرى . وبفرقة الجيش المصرية الموجودة فى السودان – كانوا يؤثرون السلامة بالابتعاد عن الحركة الوطنية الحريفة التى كان مركزها وبؤرتها نادى الخريجين . والإنجليز ليسوا غافلين ، ومن سياستهم التفرقة طبقاً للقول المشهور « فرق تسد » .

على أننى لم أر أحداً يجرؤ على شىء ويمسه شىء . . .

فى هذا الجو المشحون بالمتناقضات والموحى بالرهبة ، وكان ذلك فى خلال الحرب العالمية الثانية ، عشت مثل العائشين هناك فى حالى . . وجدت الحركة الأدبية فى غير حركة . . كانت مثلى . . فى حالة كبت . لعلك تذكر أنى بدأت « الكبت الأدبى » منذ سنين . حقاً قابلنى هناك بعض الناس وقالوا لى : أنت فلان . . صاحب مقالات موسم الشعر فى الميزان فى الرسالة ؟ أهلاً وسهلاً . .

آه . . يكاد المكبوت يتحرك . . وذو الشوق القديم وإن تعزى مشوق . ولكن . . لا ، دعنى . لست أديباً ، الأديب الذى كان لم يعد كائناً ، أنا مدرس جاء يمشى فى مناكبها ويأكل من رزق الله .

لم أعرف هناك – فى ذلك الوقت – أحداً من الأدباء ، حتى كاد يستقر عندى أن ليس فى السودان أدباء ولا أدب ، ما عدا نصوصاً

من شعر « حمزة الملك طنبل » مختارة مع نصوص للجارم وشوقى وحافظ أدرسها للتلاميذ .

طبعاً عرفت بعد ذلك أدباء وأدباء وصرت وإياهم أصدقاء . وأخيراً رأيت تلاميذى يخوضون المعامع الأدبية . لا تحسبن أن بى ميلاً إلى التفاخر إذ أقول « تلاميذى » فما أرى الفخر إلا نزوة بشرية تافهة ، إنما أشعر بالغبطة التى يشعر بها الفلاح عندما يرى غرسه قد آتى أكله .

وماذا تركت فى مصر ؟ هل فيها أدب ؟ كان الحال « من بعضه » وبى مثل ما بك يا جارة . .

شاعت فى مصر أيام الحرب العالمية الثانية كتابات جنسية يتسلى بها الناس ، وخاصة فى الليل وراء الزجاج المصبوغ بالصباغ الأزرق الذى يمنع النور أن يرشد إلى الطائرات المغيرة . سأسمى هذا وأمثاله « أدب حرب » مشاكلة لعبارة « غنى حرب » التى أطلقت على الذين أثروا من المعاملات مع الجيش البريطانى فى ذلك الحين . وذلك فى كتاباتى التى انفجر بها الكبت الأدبى بعد حين .

ومجلة « الرسالة » فى أثناء الكبت . . قالوا إنها تصدر « والسلام ! » ومن عجب أن ينعكس عن الحرب السلام ! فقد قالوا أيضاً إن المجلة — كباقى الصحف والمجلات — يصرف لها « حصة ورق تموين » بالتسعيرة . وقالوا كذلك إن الزيات هو أيضا فى حالة كبت أدبى . . إذ هو منصرف بكل اهتمامه إلى الضيعة التى صار يملكها ، وقالوا : إن المجلة لا تستنفد كل الحصة من ورق التموين ، لأنها تطبع عدداً قليلا وتبيع الباقى فى

السوق السوداء . . ويذهب ثمنه إلى توسيع رقعة الضيعة .

والصحف المصرية تصل إلينا فى السودان خالية من أية ثقافة ، والعناوين البارزة فيها تنتصر للحلفاء . . وبعض الصفحات أبيض دلالة على مكان المحذوف من الرقابة . كنا نقرأ الصحف المصرية بالجملة على دفعتين ، إذ تصل مرتين فى الأسبوع مع البريد الآتى من مصر عن طريق البر والبحر ، ولم يكن بالطائرات بريد عادى .

لست إذن وحدك فى حالة الكبت الأدبى ، وإن كنت وحدك المسكين . . لست من أنصار الحلفاء ، ولست كاتباً جنسياً ، ولا تأخذ حصة من ورق التموين . .

انهمكت فى العمل المدرسى ، وأخلصت له فعلا ، كأنى أقول للأدب : لا ، ابتعد أيها المنحوس ، ابتعدى أيتها المسماة « حرفة الأدب » لا تدركينى . . ودعينى فى حالى ، أريد أن أعيش وأكسب رزقى ، وتذكرت الشاعر المصرى « أبا الحسين الجزار » الذى عاد إلى الجزارة ، بعد أن تركها واشتغل بالشعر ، فرأى أنه لم يفعل إلا أن صار يقول الشعر فى « الكلاب » ويمدحهم ويرجو صلاتهم ، وأنه انحدر إلى هذه الحال بعد أن كان جزاراً « قد الدنيا » تقف على بابه الكلاب وترجو عطاءه من العظام . .

ومع ذلك كان ينغصنى أحيانا أنى مضطر إلى تدريس أشياء يشتمل عليها « المقرر » لا أقتنع بها ولا أرى لها جدوى للتلاميذ . وقد لازمنى هذا التنغيص فى كل الأحيان التى اشتغلت فيها بالتدريس . أذكر مرة أن كنت أدرس « الإعلال » لطلاب المرحلة الثانوية ، وقد نال منى الجهد

فى شرح الواو التى انقلبت ياء والعكس . . فقام طالب وقال :

– يا أستاذ ، ما فائدة أن أعرف أن كلمة « سيد » أصلها « سيود » ؟

قلت له وكأنى أنتقم لنفسى من الإعلال الذى علنى :

– لا شىء . .

– ولماذا نتعب أنفسنا فى تعلم ذلك ؟

– تمتلئون به لكى تفرغوه فى الامتحان . .

وأردفت فى نفسى : لكى تنجح يا مسكين فى الامتحان ولا تنجح فى تحصيل ما يفيدك حقًّا ! ذلك أنى خرجت من تجربتى فى التدريس ، ومن قبل فى التعلم ، بأن المقررات المدرسية محشوة بكثير مما لا يجدى الطالب فى حياته العملية ، لا فى اللغة العربية فقط ، بل كذلك فى سائر المواد ، حتى فى مادة متداولة فى الحياة اليومية كالحساب ، رأيت كتابا فى يد حفيدى يشتمل على تمرينات حسابية تشبه « الكلمات المتقاطعة » .

وأنا الآن أتأمل فى كثير مما فرضت على دراسته ، كما فرضت على غيرى ، فلا أجد له أية فائدة ، ذهب ولم يبق له أثر . وأقول فى نفسى : لو تعلمت كذا بدل كذا لكان كذا أجدى من كذا . .

ولعل هذا مما بغضنى وصرفنى عن دراسات « الماجستير » و« الدكتوراه » فما صدقت أن نجحت فى الحصول على الشهادة العالية حتى قلت كما قال الشاعر القديم يستحث بغلته بعد أن انطلق من أسر « عباد » :

عدس ، ما لعباد عليك إمارة   نجوت وهذا تحملين طليق

ومن هنا ، أى من ازدحام المواد الدراسية بما يفيد ولا يفيد ، أرى أن من أسباب الضعف فى اللغة العربية صرف الجهد فيما لا فائدة عملية منه ، أو قد تكون له فائدة كمالية عند بعض الطلاب . وهذا يؤدى إلى أمرين وخيمين : الأول التنفير من اللغة العربية وغرس فكرة أنها صعبة ، والثانى توزيع الطاقة على ما يفيد وما لا يفيد . ولو حصرت الطاقة فى الأول لكان استيعابه أكمل ولكان المحصول أبقى . وقديما قال ابن المقفع : اعلم أن عقلك لا يتسع لكل شىء ففرغه للأهم .

* * *

فى ذلك الجو المشحون بسبب الصراع « الهادئ » بين الاحتلال والوطنيين ، وهو هادئ فى السطح ومضطرب فى الأعماق – انحصرت حياتنا فى نطاق العمل ونطاق العلاقات الشخصية بيننا نحن المصريين ، وبيننا وبين « القاعدة الشعبية » السودانية ، وما أظن بلداً آخر مثل السودان تتوطد فيه الأواصر بين أهله وبين المصريين النازلين به ، سواء أكانوا متوطنين أو جاءوا لعمل . والمتوطنون أكثرهم من أعلى الصعيد ، وقد امتزجوا بالسودانيين الأصليين امتزاجاً تاماً ، حتى لا تفرق بين أحد من هؤلاء وأحد من هؤلاء . وإنك تسمع أن عائلة فلان جزء منها فى أسوان والجزء الآخر فى الخرطوم وأم درمان .

وصار لى أصدقاء أعزاء من السودانيين ، وصار لزوجتى صديقات كذلك ، لم تنقطع صلتها بهن حتى اليوم ، فقد أخذت العلاقات شكل الصداقة العائلية ، كنت أضيق أول الأمر بما جرت عليه هذه العلاقات

هناك من عادة لم نتعودها : عادة « التقييل » – بالياءين – واللفظ مأخوذ من « القيلولة » وتجرى هذه العادة على أن تقضى الأسرة الضيفة عند الأسرة المضيفة يوماً من الصباح إلى المساء ، تتناول فيه الفطور والغداء ، وأحيانا العشاء . وتكون قاعدة « التقييل » النساء والأطفال ، أما الرجال فإنهم يذهبون إلى أعمالهم إذا لم يكن اليوم عطلة ، ثم يعودون إلى القاعدة ، والعطلات كثيرة فى السودان ، حتى إن بعض المحال التجارية تغلق يومى الجمعة والأحد ، وكذلك المدارس المسيحية . وهناك عطلات فردية مثل « البكا » أى الحداد على الميت ، والعادة الأصيلة فى « البكا » تقضى بالامتناع عن العمل أربعين يوماً ، وهى تتقلص عند المتعلمين وتقصر حتى تصل إلى أسبوع ، الوزير مثلاً لا يذهب إلى العمل فى الوزارة لأنه « فى البكا »

وفى « التقييل » تظل النساء طوال اليوم يأكلن ويشربن ، والغالب فى كل الوجبات اللحوم ، وكانت الكبد هى الطعام الرئيسى فى الفطور . وهناك طبق منها مفضل يضاف إلى الكبد النيئة أشياء أخرى مثل البصل والشطة وعصير المرارة . وكنا نحن عادة نفطر بالكبد معمولة على طريقتنا المصرية ، ولم يكن يزيد ثمن ما نأكله فى الفطور على قرشين ، وكنا أحياناً نشتهى الفول المدمس ، ولم يكن ذاع استعماله فى السودان كما هو الآن هناك مثل ما فى مصر ، وكان الفول أغلى من الكبد ، فكنا إذا أردنا « البشرقة » أفطرنا فولا . . كما كنا نمل من أكل اللحم يوميًّا ، فإذا أحببنا التغيير بشىء أخف كالجبن كلفنا ثمناً أكثر . ويوما ترامى

إلى الجيران أننا تعدينا جبناً وشماماً ، فأعظموا أمرنا ، وقال قائلهم : « ياه ! جبن وشمام . . مرة واحدة ! » .

والفول المدمس يسمى فى السودان « الفول المصرى » أما « المدمس » فهو الذى نسميه فى مصر « الفول السودانى » ولهم طريقة خاصة فى إنضاجه بأن يدفن ويدمس فى زماد حار . وهذا يشبه ما كان وما يزال يتبع فى مصر من دفن قدور الفول فيما يسمى « المستوقد » .

مرة طلبنا من الخادم أن يذهب فيشترى فولا مدمسا وأعطيناه طبقا ، فذهب ثم عاد يحمل الطبق وفيه فول سودانى . .

والفول المدمس المصرى يعد للأكل فى السودان بطريقة مشهية مغذية وإن كان فيه كثير من الشطة . كنت فى فترة ما هناك – وما أكثر فتراتى هناك – أعمل بمجلة الإذاعة والتليفزيون بوزارة الثقافة ، وكنت أرى المنظر الآتى يومياً وأنا أمر بالفناء الخلفى للوزارة . رجل من العاملين فى المطعم يجلس القرفصاء وأمامه صحن صاج كبير مملوء بالفول وقطع الطماطم والبصل والشطة طبعاً ، وبيده زجاجة « بيبسى » فارغة من الحجم الكبير مثل الذى كان فى مصر أيام كان يعلن عنها بأنها « كبيرة ولذيذة » يدعك بقعرها ذلك الخليط ويمزجه مزجاً .

والموظفون لا يتناولون الإفطار عادة فى المنازل قبل مغادرتها إلى أماكن العمل ، بل يكتفون بتناول كوب من الشاى واللبن . فإذا جاءت الساعة العاشرة تركوا أعمالهم حتى الحادية عشرة ، لأنها « ساعة الفطور » وأحياناً تستغل هذه الساعة فى « الزوغان » وقد تسأل عن موظف لعمل

لك عنده ، فيقال لك إنه « فى الفطور » ولوكانت الساعة الثانية عشرة !

وجماعات الموظفين تتحلق كل منها حول « صحن الفول » السابق الذكر ، ويأكلون معاً فى سماحة وتعاطف وأحياناً تتحلق جماعة حول سمكة كبيرة مقلية ، وكثيراً ما يؤكل السمك هناك فى الصباح لملاءمة جوه . وكل من يقدم على جماعة تأكل لابد أن يشاركها الطعام . لا أنسى مرة دخل فيها رجل علينا فى حجرة التحرير عابساً متجهماً لأن مقاله لم ينشر ، وحضر « الفطور » ودعى الرجل إلى المشاركة ، وكنت أظنه سيرفض لأنه جاء للخصام لا للطعام ، ولكنى رأيت أساريره تنفرج ويقبل على الطعام كأنه نسى مسألة نشر مقاله . . وما إن فرغ من الأكل حتى اشتبك مع « قرشى حسن قرشى » رئيس التحرير فى معركة كلامية حامية . . المشاركة فى الطعام شىء وعدم نشر المقال شىء آخر .

والأخ قرشى رجل كريم ، دعانى إلى مأدبة غداء فى منزله الذى يقع فى طرف من أطراف أم درمان ، حيث السكون التام والبساطة النظيفة ، والهواء هناك جاف ذو مذاق منعش ، طلب إلىّ – حين وجه الدعوة – أن أعين ما أحب من أصناف الطعام كأنه خشى أن يقدم لى أصنافاً من الطعام السودانى لا آلفها ، ولكنى – على العكس – طلبت « ملاح الورق » والكسرة » وكلمة « ملاح » تقابل فى المصرية « الطبيخ » والورق هو ورق اللوبية ، ويطهى هناك بطريقة خاصة مع لحم البقر الصغير ، و« الكسرة » هى الخبز السودانى الرقيق الطرى الشديد الاختمار السريع الهضم. وهذه الأكلة تشبه أكلة الملوخية الخضراء مع الأرغفة المصرية

الطرية ، ولكن الأكلة السودانية أشهى وأخف على المعدة . وشربت عند الأخ قرشى « الجبنة » القهوة السودانية اللذيذة ، ويتم صنعها فوراً بجميع مراحله من تحميص البن ودقه ووضعه فى إناء فخارى خاص له فتحة ضيقة توضع فيها قطعة من ليف ينزل السائل من خلالها صافياً عندما يصب فى فنجان من النوع الذى يسمى فى مصر « فنجان بيشه » بعد أن يوضع فيه السكر ، ويشرب الشارب دون أن يحرك السكر بملعقة ، فهو كثير يذوب منه ما يذوب ويترسب الباقى ليصب عليه فنجان ثان وثالث حسب المزاج . والمزاج السودانى يميل إلى تحلية المشروبات والحلوى بسكر زائد ، لو أنك – مثلا – طلبت قهوة « سكر زيادة » جاءت إليك عسلا . . ولا بد لكى تشربها كما تحب أن تطلبها « سكر جلي . . ل » بمد اللام المكسورة ، أى قليل جداً . .

شعرت فى تلك اللحظة ، أى الوقت الذى قصر كأنه لحظة ، فى منزل الأخ قرشى بصفاء عجيب . . هل مصدره ذلك السكون الصحراوى والجو الطبيعى الجاف . . أم هو الجو الإنسانى الذى أحسست فيه بنبل الإنسان حين يكرم الراحل الذى قد لا يراه . . وهذه عادة من الخلق السودانى الذى أحببته ، فالقوم يكرمون الأجنبى الذى يعمل فى بلادهم عند آخر مغادرة ، وربما لا يقتصر الأمر على الولائم ، بل كذلك يقدمون إليه الهدايا المختلفة ، وهذا مما لا يجعلنى أشعر أنى غريب عندما أكون فى السودان .

أذكر أننا فى إحدى الفترات التى تكررت لوجودنا فى السودان

عزمنا على المغادرة الأخيرة . وجاء صاحب المنزل الذى نسكنه وسألنى آسفاً : لماذا تتركون السودان ؟ وأبدى استعداده لأن يعمل فى المنزل ما نشاء من تحسينات مهما كانت النفقات ، على أن نمكث ولا نرحل ، فشكرته وقلت له : إن صديقاً جزائرياً يريد أن يحل محلنا فى المنزل ، وكان هذا الصديق مندوب الثورة الجزائرية التى كانت قائمة ضد الاحتلال الفرنسى إذ ذاك ، ومعه زوجته الفرنسية تشاركه كفاحه من أجل استقلال الجزائر . . ولما كنا نسكن بأجرة أقل من المستوى الذى ارتفعت إليه القيمة الإيجارية قلت لصاحب المنزل : بكم ؟ قال: أنت صاحب المنزل وأجره كما تشاء اكتب العقد وضع فيه أية أجرة ! وتم ذلك .

ويوم السفر أرسل إلينا سيارته لتقلنا إلى المحطة . وكان السفر بالقطار ، ولما وصلنا المحطة نزل السائق وأخرج من حقيبة السيارة الخلفية أصنافاً من الطعام : دجاجاً محمراً وفاكهة وخبزاً ومعلبات مختلفة وغيرها . ما هذا كله ؟ قال السائق : « زوادة » للسفر أرسلها الأفندى . .

ولم نر « أبو السعود أفندى » بعد ذلك . وعندما ذهبت إلى السودان فى مرة تالية سألت عنه فقيل لى : البقية فى حياتك . وزرت أخاه « الطيب مجذوب الشاعر » الذى سكن المنزل نفسه بعده ، وقال لى :

– كان أخى رحمه الله يذكركم بخير .

– ونحن نذكره بألف خير ، فله ألف رحمة .

لعلك سمعت عن « العشرة (بكسر العين) السودانية » ، ذلك شىء منها .

قضينا بالسودان فى المرة الأولى العام الدراسى ١٩٤٢ – ٤٣ ، ثم لوينا الزمام فى العام التالى إلى قنا حيث تعاقدت على التدريس بمدرسة الأقباط الثانوية هناك ، ذهبنا إلى قنا بقلب حديد . . فلم يكن الجو الحار جديداً علينا ، ولا الغربة . .

سألنى ناظر المدرسة يوماً :

– ما رأيك فى التلاميذ هنا ؟

– لا بأس بهم .

– أيهما أذكى : الأولاد بالسودان أم الأولاد بقنا ؟

– الأولون أذكى .

نظر إلى نظرة استغراب فقلت موضحاً :

– الناس هنا جائعون . . أقصد أنهم لا يتغذون ، كثيرًا ما رأيت الواحد منهم يقصد إلى دكان « الملوحة » وبيده طبق ، ثم ينصرف وليس بالطبق إلا « ماء الملوحة » وكنت أظن أنه يأخذه لإثارة الشهية ، ولكنى عرفت أنه الإدام الوحيد . . هو بمليم أو مليمين ، والواحدة من سمك الملوحة بقرش أو قرشين ، وأنى له :

وجرثومة « الملاريا » التى تفتك هنا فتكاً لا يقتصر على الأجسام ، بل يعدو كذلك على الأذهان والأفهام . ويؤثر الفقر أيضاً فى السلوك ، فتكثر الجرائم ويقتل الناس بعضهم بعضاً ، وتنشب المعارك الضارية بين « الحميدات » و « الأشراف » لأوهى الأسباب ، أما فى السودان فالحال هناك – يا حضرة الناظر – على عكس ذلك .

– ولكن الذكاء المصرى معروف .

– نعم ، ولكنه مضيع .

والذى أثار انتباهى هناك أن القوم محتفظون بالعزة والشموخ برغم الفقر والجوع . . كنت مرة جالساً على « رصيف قهوة الجبلاوى » فرأيت غلاماً لا يستر جسمه إلا أسمال بالية ، كان يستجدى ، فقلت له :

– هل تجىء معى فتعمل فى منزلنا ؟

– خدام ؟ !

– كله أكل عيش ، أليس أحسن من الشحاذة ؟

فرفع صوته قائلا فى لهجته الصعيدية :

– اللى نخدمو . . نعدمو . .

و « الجبلاوى » صاحب تلك القهوة مواطن مصرى بذ « الخواجات » كان فندقه ومطعمه وقهوته مقدمة على فندق ومطعم وقهوة يملكها ويديرها هناك « واحد خواجة » . وفى ذلك الوقت – ١٩٤٤ – أتم الجبلاوى بناء دار السينما ، وكان افتتاحها حدثاً كبيراً فى قنا التى لم تعرف هذا الفن من قبل . دخلتها عدة مرات ، وكل مرة كنت أنظر فى مختلف الأنحاء : فى الصالة والألواج والبناوير ، فأجد جميع الموجودين رجالا وأولادًا ذكوراً . . لم أر هناك أنثى واحدة ، ما عدا بنتاً صغيرة رأيتها مع إخوتها الذكور فى « بنوار » المدير المخصص لمدير المديرية دائماً ، وقالوا : هؤلاء أولاد سعادة المدير .

لم أر امرأة قناوية فى أى مكان بالمدينة ، اللهم إلا ذلك الجرم الأسود أو الأزرق الذى يمشى فى السكة على رجلين لا يبدو منهما شىء ، والذى

يقال – والتبعة على القائل – إنه « مرة » أى امرأة . . .

لفظ « مرة » المعيب فى القاهرة يستعمل عادياً فى الصعيد وفى قريتنا بالفيوم ، وكذلك فى السودان . كانت زوجتى فى أم درمان تقف على ناصية طريق فى انتظار سيارة أجرة ، وتقدم رجل بأريحية سودانية يساعدها فى إيقاف سيارة ، فأشار للسائق وقال له : « ها . . . يا زول (يا رجل) سوج وصل المرة دى للخرطوم ! » .

تألمت وكادت تبكى وهى تحكى لى ذلك : كيف يسوقنى ؟ وهل أنا مره ؟ !

فى ذلك الوقت اشتد الغلاء فى جميع البلاد المصرية ، وعانينا بعض الشدة من اختفاء بعض المواد التموينية والبحث عنها فى السوق السوداء ، ولعلها نشأت أول نشأتها فى حياتنا المصرية إذ ذاك . لم نستطع الحصول على اللحم إلا بوساطة تلميذ أبوه جزار . . وترحمنا على أيام السودان !

على أنه حدث أن اضطرت زوجتى للعودة إلى القاهرة للوضع تحت عناية والدتها . ودعانى زميل إلى السكنى معه فى شقة يسكنها هو والطبيب البيطرى لمدينة قنا ، ولبيت الدعوة . وبذلك انحلت أزمة اللحم . . فقد جعلنا نأكل أطيبه بثمن رخيص ، وشمرنا عن السواعد فى الطبخ والأكل .

وكان صاحبنا الطبيب البيطرى شاباً خجولا ، كان يستدعى فى بعض الأحيان لعلاج الحيوانات ، ومرة كنا نائمين بعد غداء دسم ، وصحوت على أصوات فى أسفل المنزل يتبين منها صوت « معزاة » ونودى الدكتور ،

فـأسرع بجمع أدواته لإسعاف المريضة « المعزاة » لحظت – وأنا أبدو له نائماً – أنه يسير سيراً هيناً ويجتهد ألا يحدث صوتاً ، حتى لا أستيقظ . . وأخذ « الحقنة الشرجية » الخاصة بالبهائم وهبط ، فقد أكلت المعزاة كثيراً من حبوب الذرة حتى « اتلكمت » وفى مثل هذه الحال يسرع الفلاحون فى القرية إلى ذبح « الملكومة » أما فى البندر فهنا الطبيب المداوى .

همس لى زميلى المدرس بأن الدكتور يخجل منى ، فقلت له : ولماذا – يخجل ؟ هذا عمله ، وهو عمل محترم ، فأجاب : هو هكذا !

وبرغم ما قلته من أن الأمر لا يستدعى الخجل فإنى استعللت ذلك وجعلت أداعب صاحبنا وأقول له بعد أن فرغ من مهمته وصعد إلى الشقة.

– كيف حال مريضتك يا دكتور !

و « كركرنا » ضحكاً . . نحن الثلاثة كأى شبان بالهم خال . .

والواقع أننا – كمجتمع – كنا نعيش فترة نأنف فيها من أشياء لا غبار عليها ، بل هى تعد الآن مما يطلب ويسعى إليه ، وكانت هذه « العقد » خاصة فى الطبقة المتوسطة، ولم يذهب ذلك كله ، فما تزال بواق منه باقية.

عدنا إلى السودان فى العام الدراسى التالى (١٩٤٤ – ٤٥) بالكلية القبطية فى الخرطوم بمرتب أكبر . وقضيت هذا العام على الوتيرة السابقة فى العام الأول بالسودان .

الكبت الأدبى لا يزال ، والحرب لا تزال قائمة ، والكبت الأدبى العام ما زال ملحوظا فى مصر وفى السودان ، وإن كان قد نشط بمصر « أدب الحرب » متمثلا فى الكتابات الجنسية ، وفى كتابات تاريخية

ورومانسية يلجأ إليها كبار الأدباء هرباً من الواقع .

ذلك مع اختلاف يسير ، إذ كنت أنتهز فرصة الفراغ من العمل المدرسى وأشتغل بالقراءة ، والمدرس بعد مضى مدة فى التدريس يصبح عمله آلياً لا يأخذ منه جهداً كبيراً ، فما عليه إلا أن يدير « الأسطوانة » التى سجلت فى العام الأول وأديرت فى الأعوام التالية . . .

وجدت فى مكتبة النادى المصرى بالخرطوم ذخيرة طيبة من الكتب المختلفة ، مما أعادنى إلى ما يشبه عهد طلب العلم فى دار الكتب المصرية .

وفى أثناء ذلك شعرت بقلق أسبابه غامضة ، وإن كنت أتبين وأكاد أسمع من أعماقى صوتاً يقول لى : إنك تضيع حياتك ، إنك تعيش كالحيوان غير الناطق ، يجب أن ننطق . . عد إلى القاهرة لتعمل شيئاً . . وينبهم علىَّ الأمر .

– ماذا أعمل فى القاهرة أيها الصوت و« بها ضاق الرجاء وبى » كما قال حافظ إبراهيم ؟

– عد إلى القاهرة أيها الضائع ، إن لم تجد « الشىء » الغامض فتسكع فى شوارعها عساك تلقاه فى درب من دروبها . . .

واشوقاه إلى القاهرة . .

شىء من حسن الحظ أنى تزوجت اثنتين : القاهرة والخرطوم ، إن ضقت بإحداهما أو مللتها غادرتها إلى الأخرى . .

وإلى اللقاء فى القاهرة : الزوجة القديمة التى تحلو وإن كانت . . .



الولادة الثانية

هذه هى مصر ، لا تعرفها تماماً ولا تعرف الشوق إليها إلا إذا بعدت عنها . ها نحن أولاء فى قطار الصعيد الذى يقلنا من الشلال فى طريقنا من الخرطوم إلى القاهرة ، وقد قضينا فى القطار الليلة الماضية ، نمنا على المقاعد الجلدية فى الدرجة الثانية ، حسب درجة الوظيفة إذ ذاك (سنة ١٩٤٥) ومن باب الاقتصاد لم نأخذ « صالونات نوم » إبقاء على جنيهات بقيت بعد شراء الهدايا للأهل والأحباب وبعد أن تزودنا بالملابس والأقمشة الأجنبية الرخيصة فى السودان وقتذاك والتى نفعتنا فى سنى الغلاء التالية بمصر .

رأيت مصر أول ما رأيت فى الترعة الكبيرة الممتدة مع مسير القطار ، وما على جانبيها من حقول خضراء ونخل باسق ، ورأيتها فى حمير يركبها الفلاحون من رجال ونساء وأطفال ، أو يسوقونها محملة بأشياء ، أو يسقونها من الترعة ، مما ذكرنى بقريتى أو بى فى قريتى ، إذ كنت مثل هؤلاء الأولاد أسقى بهائمنا من الترعة التى يسميها أهل قريتنا بحراً ، أصفر للحمار كى يشرب أو ليهنأ بالشراب ! ثم أركبه بعد أن يرتوى وأعود لم أعرف فضل هذا الحمار إلا فى سنينا الأخيرة الممتدة حتى الآن بالقاهرة والتى نعانى فيها ما نعانى من ركوب السيارات العامة أو استيقاف

سيارات الأجرة . أحياناً أقف فى محطة الأتوبيس بالزمالك قرب مقر اتحاد الكتاب ، فأرى رجلا يركب حماراً وهو فى منتهى الدعة والراحة . . فأوازن بينه وبين ركاب الأتوبيس « رقم ١٠٤ » مثلا وقد « نطوا » من الباب كأنه يتقيأهم بعد أن أتخم بهم . . فأقول : ما أسعد ذلك الرجل راكب الحمار !

ما كان أكرم ذلك الحمار ! يواتيك ويقف لك ذلولا ميسوراً ، لا يزوغ كما تزوغ سيارة الأجرة ، لا يزاحمك على ظهره أحد ولا يسابقك إليه مسابق إلى مقعد فى السيارة العامة ، وحتى بالنسبة للسيارة الخاصة — وهو أكرم . . فهو لا يحتاج إلى صيانة كما تحتاج ولا يتوقف فى الطريق كما تتوقف . . فلا يحتاج إلى « زق من يحب النبى » ولا يرزأك فيه « ميكانيكى » ثم هو لا يخرج « عادماً » يؤذى الأنفاس والصدور . كل ما فى الأمر البطء ، وهل يأتينا القلق ونلقى المصارع إلا من السرعة ؟ وهل فقدنا الطمأنينة واستقرار النفس إلا يوم ثرنا على القول المأثور : « هى الدنيا طارت ؟ »

وإذا كانت الزراعة هى أصل الحضارة فإن الحمار هو العمود الذى قامت عليه الحضارة . . فقد كان وما يزال عون الفلاح وعماده فى كل شئون الفلاحة . .

وبعد سلامة الوصول . . هذه هى القاهرة ، لا تعرفها تماماً ولا تعرف الشوق إليها إلا إذا بعدت عنها . . جميلة هى برغم ما على وجهها من بثور تتمثل فى جنود الإنجليز والحلفاء المحشودين فيها برغم انتهاء الحرب العالمية الثانية .

سكنا بضاحية المعادى . كانت أزمة المساكن قد اشتدت فى نظرنا وقتذاك ، ولكنها كانت خفيفة أو فى أوائلها بالنظر إلى ما صارت إليه بعد حتى الآن . كل ما كان من صعوبة هو أننا لم نجد فى القاهرة مسكناً ملائماً من حيث الأجرة المعتدلة والخلو من « الخلو » ولم يكن هذا قد تعاظم بعد حتى صار إلى ما نعلم اليوم . لم نجد إذن إلا شقة بأربعة جنيهات فى الشهر فى طرف من أطراف المعادى ، والمعادى من أطراف القاهرة ، وقديما قيل « الأطراف سكنى الأشراف » ومعنى الأشراف هنا – ولا بد – الأغنياء الذين يركبون الخيل والبغال التى كانت بمثابة السيارات الخاصة الآن – يركبونها إلى مساكنهم فى الأطراف . ولسنا منهم ، إنما نحن من محدودى الدخل ، وقصارانا أن نعمل اشتراكاً فى قطار حلوان ، وبهذه الوسيلة صارت الأطراف سكنى من هب ودب من أمثالنا . . .

عينت مدرساً بمدرسة حلوان الابتدائية الأميرية (نظام قديم طبعاً) بمرتب شهرى قدره اثنا عشر جنيها ، وهو أول مربوط الدرجة السادسة التى كانت عزيزة وذلت ولم يرحم شاغليها أحد . . . ووضعت زوجتى توأمين ذكرين ، فصار الأولاد أربعة ، وصرنا سبعة أفواه ، سابعنا الشغالة التى كان لابد منها لتحمل أحد التوأمين بالتبادل مع الأم ، والتى أخذت من المرتب نصف جنيه ، كما أخذ النصف الآخر « اشتراك القطار » وصار لزاماً على السبعة الأفواه أن تأكل بخمسة جنيهات فى الشهر على الأكثر ، وتدع اثنين على الأقل للكساء والدواء وما يلزم من مصروف غير منظور . .

سعيت حتى نقلت إلى مدرسة المعادى الابتدائية ، وقال لى زميلى

وصديقى الشيخ أحمد الشرباصى الذى كان قد عين معى فى مدرسة حلوان الابتدائية : أهكذا تخوننى وتتركنى وحدى ! كان أحمد الشرباصى قد نشرت له كتابات فى « الرسالة » كما نشر لى فيها ، فلما التقينا فى المدرسة سررنا وتصادقنا . كأننا أخوان فى الرضاعة . . ألم نرضع معًا من ثدى الرسالة ؟ الشيخ الشرباصى هو فى وجدانى وذكرياتى شىء أحسن من « الدكتور » الذى هو الآن ، وأقصد لفظ « الدكتور » الذى اتخذ بديلا من « الشيخ » وما هو خير من المبدل منه . اللقب الأصيل مثل شيخ وأستاذ أحسن وأليق بصاحبه من اللقب الدخيل على البيئة الدينية . على أننا لم نعرف فى المسلمين الأوائل – وهم القدوة المثلى – تفاخراً بالألقاب ولا سعياً إليها .

* * *

لم تكن أزمتى مادية بقدر ما هى شىء آخر . . فحالتنا المعيشية – وإن كانت شظفا – مستقرة مستعان عليها بالتدبير والقبول النفسى القانع ، وهل أنا إلا فلاح تعلم وأخذ الشهادة وأصبح موظفاً فى الحكومة ؟ نعمة كبيرة والحمد لله .

وزوجتى تشاركنى ذلك فى رضا وعكوف على تربية الأولاد برغم ما ثقل عليها من أمر التوأمين ، وكان هذا الهدف المشترك مما نتفق فيه ونكد من أجله ، وكان أهم حماية لحياتنا الزوجية ، فلم نكن متفقين فى الطباع ، لا تكاد ميولنا تتحد فى شىء حتى أصناف الطعام ، أما من الناحية الثقافية فقد سارت معى شوطاً طويلا كانت فيه شبه تلميذة ، وكانت تعيننى بالقراءة لى فى أوقات تصعب على القراءة فيها كحالة رمد . وكانت تقرأ

ما أكتب لما بدأت أنشط فى الكتابة وتناقشنى وتبدى رأيها فيما أكتب بحرية تلقائية . وكان يسرنى ذلك كله ويسعدنى . ولكن التلميذة انشغلت بالأولاد وأعطت جهدها كله أوجله لما ينفعهم ويعدهم للمستقبل . ولم أضق بذلك باعتباره هدفاً مشتركاً . وكبر الأولاد ، وشاء الله لهم أن يسلكوا فى حياتهم وفى أفكارهم مسالك ليس من بينها الأدب ، وصارت تلميذة الزوج تلميذة للأبناء . . وصار الجميع فى واد ، ووقفت ومازلت أقف فى الوادى الآخر ، لا يكادون يعلمون ماذا أكتب ، ولن يقرأوا هذا الكلام إلا إذا نبهوا إليه . .

وليس مزاجى الأدبى فقط هو الشاذ فى حياتنا البيتية ، بل كذلك مزاجى فى الطعام . مثلا : أدخل المطبخ وأمكث فيه برهة ، ثم أخرج بطبق لا يدرى أحد كيف صنعته ، فليس هو مما ألف الناس أن يصنعوا ، وقد يكون مما اعتادوا أن يطلقوا عليه لفظ « لعك » . أحب دائماً أن أصنع شيئاً على غير مثال .

* * *

وإذا عدنا إلى ما كنا فيه ، ولا بد أن نعود فسنجد السؤال القائم : ما هو الشق المهم فى أزمة الحياة إلى جانب الناحية المادية ؟ ثمة شىء يؤرقنى ، لم يدعنى قط منذ كنت فى كتاب القرية لا أرى نفسى أتعلم وأريد أن أتعلم ، ثم فى الأزهر أقبل على علومه بنهم ، ثم أزور عنها وآخذ فى اتجاه آخر . . إلخ ، حتى فى خلال ما حدثتك به فى الفصل الماضى وما سميته بالكبت الأدبى – حتى فى خلال فترة الكبت كان المكبوت يعمل فى أعماقى ، برغم ما أقنعت نفسى به فى الظاهر من عدم الجدوى .

ويبدو أن الكبت قواه ، طبقاً للملحوظة النفسية التى تقول : إننا نتعلم العوم فى الشتاء ، بمعنى أن الإنسان يبدأ فى الصيف فى تعلم العوم ، ثم يجىء الشتاء وينسى فى الظاهر محاولته السباحة ، على حين تعمل فى أعماقه ، فعندما يجىء الصيف التالى يكون قد استفاد مما كان يعتمل فى أعماقه شتاء .

فى فترة الكبت حاولت أن أروض نفسى على الرضا بالحياة العادية : أعمل للحصول على الرزق ، وأنجب الأولاد ، وآكل لأعيش أو أعيش لآكل . واستمر ذلك زمناً ، ثم . . ها هو ذا المكبوت يتحرك مثل الجنين فى بطن الأم . . وكان قد استكن حتى خلت أن ليس ثمة حمل . . وساعد على تجاهله - إلى حين - أن عاودنى وسواس الارتفاع فى ضغط الدم منذ أواخر الأيام فى السودان ، إذ كنت مكلفاً بالعمل فى امتحان الشهادة الثانوية المصرية هناك ، وهذا يقضى بأن أمكث نحو شهر بعد انتهاء الدراسة فى جو شديد الحرارة . وقيل لى : لن ينقذك من هذا إلا الطبيب بأن يقول إن حالتك الصحية تستدعى الإعفاء من هذا العمل . والطبيب الرسمى المصرى هناك هو طبيب الجيش المصرى الموجود فى السودان ، رسم لى الخطة زميل مجرب ، فقصدت الطبيب فى عيادته الخاصة وهى منزله فى الخرطوم طلباً للعلاج ، على أن أحدثه فى خلال ذلك برغبتى فى الإعفاء من العمل فى الامتحان بسبب المرض . . ولكن مم أعالج وأى مرض وأية أعراض ؟ تذكرت تجربة لى مع ضغط الدم ، فقلت : هذا هو . . وقاس لى الطبيب الضغط ، فقال إنه مرتفع . وعلمت أن محمد عبد الهادى ناظر مدرسة فاروق الثانوية بالخرطوم ، والمشرف على

التعليم المصرى فى السودان ، قال للطبيب :

– وهل يموت إذا عمل فى الامتحان ؟

– من يدرى ؟ وعلى كل حال يشتد مرضه .

أعفيت من الامتحان ، ولكننى لم أعف من انشغال الفكر بضغط الدم ، وظل الوسواس ملازماً لى بعد عودتى إلى مصر ، وكان من أسباب تعاستى فى تلك الفترة ، ومن عوامل استمرار الكبت الأدبى ، إذ قال لى ذلك الوسواس : احذر أن تفكر تفكيراً عميقاً فى قراءة أو كتابة .

ولكن التدريس ، أليس هو أيضاً من عوامل الضغط ؟ نعم ، وإن كان العمل فى مدرسة المعادى أخف منه فى مدرسة حلوان ، لقلة التلاميذ فى فصول المعادى وكثرتهم فى حلوان . المدرسة الابتدائية بالمعادى لها تاريخ : لم يكن بالضاحية الأرستقراطية أو الاستعمارية – إذ كان سكانها من الأثرياء ومن الإنجليز – لم يكن بها غير « الروضات » الأجنبية ، وقد تعلم أو تربى فى إحداها ابن نجيب الهلالى باشا ، فلما كان على عتبة المرحلة الابتدائية كان والده وزيراً للمعارف ، فأنشأ الأب مدرسة ابتدائية هناك لكى يلحق بها الابن . وزامل الابن فيها أبناء علية القوم . كنا – نحن المدرسين – نخرج من المدرسة بعد انتهاء الدراسة فنمشى فى الشارع على أرجلنا ، والأولاد : أولاد الناس الذوات تنتظرهم السيارات الخاصة ، يقول الواحد منهم للواحد منا : اتفضل يا بيه . ثم يمرق بسيارته . . .

ولكن ناظر المدرسة كان من عوامل الضغط ، كانت عنده عقدة المؤهل ، إذ كان جميع المدرسين من ذوى المؤهلات العالية ، ما عدا

مدرس الألعاب وحضرة الناظر . . فكان يحب أن يظهر سلطته ، وحتى عندما يميل إلى التعاطف لا يخفى ما بنفسه ، قال لى ونحن فى اجتماع أراد فيه أن يتبسط ويتظرف :

– إلا قل لى يا عباس افندى . . ما معنى « العرعور » فى اللغة ؟

قلت له :

– الناظر !

دهش الجميع . . كتم المدرسون الضحك ، أما هو فقد وجم ، وأضفت :

– نعم ، فالعرعور هو الرئيس ، والناظر عرعور المدرسة . .

بعد ذلك بأيام مرضت وطلبت إجازة مرضية ، فأوحى « العرعور » إلى الطبيب أن يرفض إجازتى ، وقال هذا : إنى متمارض !

لم أكن على وفاق دائما مع رؤسائى فى الوظائف ، ولم أنل درجة أو ترقية إلا بعد أن يستوفى من هم أمامى فى الطابور . وإن كنت فى معظم الأحيان فى مركز القوى الذى لا يمس ، لأنى أكتب فى الصحف . . كان أكبر رئيس لى طه حسين حين كان وزيراً للمعارف ، وكنت سكرتيراً صحفياً « لمعاليه » وكنت فى الوقت نفسه محرراً فى الأهرام . قلما كنت أذهب إلى مكتبى فى الوزارة ، وكان « طربوشى » بالمكتب ، حتى إذا اقتضى الأمر دخولى عليه لبسته . . وكان سكرتيره الخاص العين التى تبصر له . وكنت إلى ذلك أكتب فى « الرسالة » وأنقده أحيانا فيما يتعلق بأعمال الوزارة . وترامى إلىّ أنه قال فى مجلس معرباً عن سعة صدره : عندى فى مكتبى من ينقدنى علانية . .

وانفض المولد ، وخرجت منه بلا حمص . فلم آخذ « درجة استثنائية » مع من أخذوا .

* * *

نعود إلى موضوعنا للمرة الثانية وإلى فترة « المخاض » . . تحرك الجنين برغم كل الضغوط ، ثم خرج إلى الحياة ثائراً . . ثائراً على الضغوط نفسها وفى جملتها « ضغط الدم » . كتبت مقالا بعنوان « أنا وضغط الدم » وذهبت به إلى الزيـات فى مجلته « الرسالة » وكنت قد زرته عدة مرات بعد العودة من السودان . وكان بيننا ود تحدثت عنه فى « ذكرياتى الأدبية » . وكان سرورى عظيماً عندما رأيت المقال منشوراً بالرسالة . أحسست أنى تخلصت من « ثلث » ضغط الدم عقب الفراغ من كتابة المقال ، وأحسست أنى تخلصت من الثلث الثانى عندما رأيته منشوراً ، أما الثلث الثالث فقد قضى عليه أن رأيت فى صدر المجلة بنفس العدد مقالاً افتتاحياً للزيات بعنوان « أجل يا صديقى ضغط الدم »

هكذا . . الزيات يقول إنى صديقه . . أنا صديق الزيات الكاتب الكبير صاحب الرسالة ! فليأت ذلك « العرعور » ويقرأ . . ولكن مثله لا يقرأ الأدب ولا يعرف « الرسالة » من « البعكوكة » سواء فى ذلك عرعور المعادى وعرعور فاروق الثانوية بالخرطوم !

كان ذلك المقال تعبيراً عن موقفى من ذلك « المرض » وثورتى على توهمه فى نفسى ومحاولة الأطباء أن يلصقوه بى . . فأنا لا أشعر بشىء مما يصفون من أعراض برغم ما يدل عليه مقياسهم من ارتفاع فى الضغط . إحساسى أصدق من ذلك المقياس . كنت أشعر أنهم يلفون على ذراعى

ثعباناً ويداخلنى إحساس المعتدى عليه . . ولعل هذا هو الذى يرفع الضغط ! وأعلنت أنى لن أعبأ بذلك وسآكل وأشرب كما أريد لا كما يقول الأطباء ، وسأكتب وأفكر ، بل أكثر من ذلك سأتداوى بالتفكير والكتابة . وتحقق ذلك فعلاً ، فأنا دائماً أشعر بالراحة والنشوة عقب الكتابة

وكان مقال الزيات تعبيراً عن تجربة له مماثلة مع ضغط الدم وتجاوبا بين حالته وحالتى . أذكر مطلع مقاله وهو « أنا وصديقى عباس كحمامتين كسيرتين تتشاكيان على غصنين متجاورين . . إلخ »

عظيم ! عظيم جداً ! هذا الرجل ما أحبه إلى نفسى ، ولكنى – وا أسفاه – لم أكن دائماً وفيًا له . وهو أيضاً – غفر الله له – كانت له سقطات . . ألسنا بشراً ؟ باختصار : كان أبًا يقسو أحياناً وتهتز صورته أحيانًا . ولكن أبوته غالبة ، وأنا أحبه وإن كنت أحياناً ولداً عاقاً .

العظيم فى الموضوع أن الجنين برز إلى الحياة ، واستهل صارخاً . . .

كان كل شيء فى حياتى مثبطاً ، أحاطت بى عوامل الإحباط من كل جانب ، ولا تزال . . وبرغمها كنت على غير ما أرادت . . لا تقل لى : كيف ، فأنا نفسى لا أدرى كيف . الدارسون والباحثون فى أثر البيئة والوراثة والتشجيع . . . إلخ – ليكسروا أقلامهم وليطووا صفحاتهم فما أراهم يقولون إلا هذراً . . وما أبرى نفسى ، فقد شاركت ببعض الهذر !

* * *

قلت لأحمد أمين المدير العام للثقافة بوزارة المعارف : انقلنى عندك أنقذنى من التدريس ، أنا مريض بضغط الدم !

قال : اكتب طلباً ولا تذكر فيه أنك مريض . .

أحسست فى هذه العبارة سخرية خفيفة ، قلت كالأبله المحتج ؟

– لماذا ؟

– لأن الإدارة ليست مستشفى ولا ملجأ !

آه فهمت . . . ونقلت إلى « الملجأ » فإنى لم أجد فى وزارة الثقافة عملاً يذكر ووجدت هناك من « اللاجئين» محمود غنيم وسعيد العريان ومفيد الشوباشي وسيد قطب ، وقال لى هذا : مبروك . . التدريس مجزرة للأدباء . .

ولكنى فكرت ان أعمل شيئاً مفيداً . رأيت فى إدارة الثقافة رسائل واردة من الخارج يسأل مرسلوها عن أعلام الأدب والفكر فى مصر ويطلبون معلومات عنهم ، وقد أهملت و« حفظت » ولم يرد عليها . عرضت على أحمد أمين أن نجمع هذه المعلومات ونعد تراجم لأهم أدبائنا ومفكرينا ، إما أن تطبع أو تكون معدة للاستجابة لأى طلب . فاستحسن الفكرة وطلب منى أن أشرع فى التنفيذ . ولكن التنفيذ لم يتم ، لأن الزملاء كسروا مجاديفى . . . إذ قالوا لى منهمكين : « انت واخد المسألة جد ! » ولأن « الأعلام » أنفسهم لم يستجيبوا ولم أجد منهم إلا التراخى ، وكان يمكن التغلب على هذين الأمرين لولا أن أحمد أمين ترك وزارة المعارف وعاد إلى أستاديته بكلية الآداب ، وبلغنا أنه قال : كلما دخلت الوزارة شعرت كأنى داخل إلى « كراكون » ولا أستطيع أن أعمل فى « كراكون » — أى قسم شرطة – إنه من القلة التى آثرت العكوف فى محراب العلم .

وفاتحت المدير العام التالى فى الموضوع ، وكنت « مدباً » إذ ضمنت

كلامى أن أحمد أمين رحب بالفكرة ، وغاب عنى المتبع عندنا ، وهو أن اللاحق ينقض ما عمله السابق ، ليظهر الكفاية التى تنقص السابق . . أشاح بإشارة مستهينة ، فعاود الزملاء تهكمهم لأنى « واخد المسألة جد ! »

قلت لنفسى : جدٍّ عن ذا . . إلى الشاطئ الآخر . هناك « الرسالة » وصديقك الزيات . . هذا هو مجالك الحقيقى .

ولما تنبهت على هذا الصوت هتفت فى أعماقى :

عظيم . . عظيم . . أنت الآن فى « الرينسانس » هذه الكلمة عرفناها فى تاريخ النهضة الأوربية الحديثة ، ومعناها « الولادة الثانية » وكانت الولادة الأولى فى الحضارة الرومانية والإغريقية القديمة .

وفى هذه الفترة بدأت « الحضانة » فى مجلة الرسالة : حضانة الجنين عقب ولادته الجديدة . . إذ جعلت أكتب كتابات متقطعة ، حتى أسند إلى الباب المتصل « الأدب والفن فى أسبوع »

وكانت الرسالة فى ذلك الوقت (حوالى سنة ١٩٤٧) تعانى ضعفاً من جراء انصراف صاحبها عن العناية بها وعن استكتاب كبار الكتاب كان يشكو من المرض ويقضى بعض الأيام فى حلوان مستشفياً ، أو فى قريته القريبة من مدينة المنصورة ، وكانت له جلسة فى قهوة هناك على النيل تحت شجرة وارفة ، يلتف حوله بعض أدباء المنصورة ، حيث يقضى بها معظم النهار ثم يعود إلى منزله فى القرية « كفر دميرة » وقد عنى بأملاكه هناك التى بنى فيها قصراً فاخراً . وكأنه كان يحرص على تنمية هذه الأملاك بدلاً من الإنفاق على المجلة ، على حين أن كبار الكتاب أمثال العقاد والمازنى وتوفيق الحكيم قد دخلوا فى عهد جديد من « الدفع »

لهم بسخاء فى جريدة « أخبار اليوم » التى كان من دأبها فى السعى إلى الانتشار أن تستقطب المشهورين من الكتاب استغلالا لأسمائهم اللامعة . فصار من العسير على الرسالة أن تجارى فى ذلك . ومنذ ذلك الحين لم تستطع مجلة أدبية أن تسير إلا أن تدفع « دفعاً محترماً » . وكان الأمر من قبل هواية أدبية لا يبغى الأدباء منها كسباً مادياً إلا القليل .

فى ذلك الوقت طلب منى الزميل الصديق سيد قطب أن أتحدث مع الزيات فى أن نريحه من عملية التحرير ، وما عليه إلا أن يكتب الافتتاحية ويدع البـاقى . وكان مرمى سيد قطب أن يتولى رياسة التحرير الفعلية . وأذكر بهذه المناسبة ما تبينته فى هذا الصديق – سيد قطب – من رغبة قوية جامحة فى الإصلاح : إصلاح كل نواحى المجتمع – عن طريق التعبير الأدبى ، وكان من بواكيره فى ذلك كتاب « العدالة الاجتماعية » وهذا المصطلح من ابتكاره ، ثم جرى بعد على الألسنة والأقلام .

قال لى الزيات وأنا أحدثه فى مقترح سيد قطب : « وهل أقعد أنا مع القاعدين . . ؟ »

والواقع الذى لا يعرفه إلا المجربون والذين يتبطنون الأمور ، أن مسألة الراحة أو الإراحة إنما هى مسألة التعب أو الإتعاب النفسى لمن نريد له أن يستريح فى زعمنا . . لأنه كبر . . وقد يبدو للإنسان قبل أن يبـلغ الكبر أنه يكون سعيداً إذا استراح من العمل . وهذا وهم سيعرف حقيقته فيما بعد ، فالإنسان ما دام سليماً معافى لا يشعر بالصحة النفسية إلا إذا عمل ، فإن كان قادراً على العمل بذل فيه جهداً لم يكن يبذله فى

شبابه ، وإن لم يكن قادراً فإنه « يقاوح » ، كان الزيات فى الشيخوخة عندما أعادت وزارة الثقافة إصدار مجلة الرسالة وأسندت رياسة تحريرها إليه سنة ١٩٦٤ ، وعينت أنا للعمل معه ، وأردت أن « أريحه » من كثير من العمل ، وكان نظره قد ضعف ولم يعد قادراً على القراءة ، ولكنه « قاوح » وأصر على أن يقرأ له كل شيء . والعجيب أنه قبل ذلك بنحو خمسة عشر عاماً وهو قادر على القراءة كان يترك لى من أمور التحرير وفحص المقدم للنشر ما أصر على مباشرته فى هذه الفترة . ثم اضطر إلى السفر لعلاج عينيه فى إسبانيا . ومكث هناك نحو ثلاثة أشهر توليت فيها مسئولية رياسة التحرير ثم عاد ، وأردت له الراحة بعض الشيء . ولكنه أصر على « المقاوحة » وأعانه عليها الزميل الصديق عبده بدوى ، إذ كان يقرأ له كل صغيرة وكبيرة قبل النشر ، وكنت أجلس إزاءهما متخيلاً أنى فى كتاب القرية . . الزيات سيدنا ، وعبده بدوى العريف !

* * *

وترجع « الخطى » إلى الوراء ، أو تعود إلى محلها بعد تلك الوثبة الأمامية ، حين تركت التدريس ونقلت إلى إدارة الثقافة . تفرغت تماماً للقراءة والكتابة . كان ذلك تفرغاً قبل « التفرغ الرسمى » الذى جد بعد فى وزارة الثقافة . وكانت حالنا تشبه الواقع الآن فى كثير من الوزارات والمصالح الحكومية ، وهو ذلك الذى يسمى « البطالة المقنعة » التى تنشأ من توزيع الخريجين والخريجات على « لا أعمال »

وقد استغللت وقتى فى القراءة بصفة خاصة ، رأيتنى أعود إلى حيث بدأت . . إلى أيام لم أكن أستطيع فيها شراء كتب ، فكنت أعتمد على

دار الكتب العامة ، كما أوضحت فى الفصول الأولى من هذه الخطى .

هأنذا موظف فى الدرجة السادسة بوزارة المعارف ، ولكنى صاحب عيال لا يهون عليه أن يشترى كتاباً بجزء من قوتهم ، فرحت أتحايل كما بدأت . . رأيت فى مكتبة المجمع اللغوى مالبى حاجتى إلى القراءة ، وكنت فى المجمع تابعاً لإدارة الثقافة ، إذ قالوا إن هناك المراجع التى تلزم لعملك فى إخراج ديوان ابن الرومى ، ولم أرعملاً . . اللهم إلا لجنة مؤلفة لهذا الغرض الذى لم يتحقق ، وكنت فيها شبه عضو متفرغ ووجدت نفسى متفرغاً حقاً . . وقد حولت جانباً لا بأس به من كتب مكتبة المجمع إلى الحجرة الخاصة بديوان ابن الرومى بحجة الحاجة إليها فى العمل ، وكان كثير منها لا علاقة له بابن الرومى !

على أن كتب الإهداء جعلت تنهال على من مؤلفيها منذ توالت كتاباتى فى الرسالة ، وخاصة بعد أن انتظمت فى الباب الأسبوعى . وأعتقد أنى « كسبت » غيظاً مكتوماً من كثيرين لم أكتب عن مؤلفاتهم ولم أشر إليها ، لأنى لم أرها تستحق ذلك ، إلى جانب عداوات ممن كتبت عنهم ما لا يسرهم ! ولا شك أنى عند هؤلاء وأولئك ثقيل الظل على الأقل إن لم أكن جاهلاً مغروراً أو متحاملاً مسلطاً عليهم من أحد !

وقد نضح ذلك فى كثير من الأشياء فيما بعد . .

فى الفترة التى أبعدنا الاستطراد عنها – كنت أكتب فى الرسالة بين الحين والحين وأنا أعانى من شظف العيش . . والحق أن هذا الشظف يختلف كثيراً عن الشظف القديم ، فقد كان مصحوباً بالقلق : إن وجدت اليوم ما أتبلغ به فلا أدرى ما أنا فاعل غداً . . أما هذا

الشظف ففيه استقرار واطمئنان . . مرتب ثابت ينمو بالعلاوات ويتطلع إلى الترقيات . وهذا هو معنى القول السائر : « إن فاتك الميرى اتمرغ فى ترابه » على أن تطلعى إنما كان إلى الأدب ، إلى أن أقر أو أعانى التعبير ، ولا شىء يهم بعد ذلك إلا كفاف العيش . وقد استغرقنى هذا التطلع وصرفنى عما عداه ، فلم أشغل نفسى بوسيلة من وسائل الحصول على الترقيات أو كسب المال الكثير .

أكتب فى الرسالة بالمجان ، لا بأس ، ولكن لماذا لا تكتب فى « الثقافة » فهى تدفع لكل من يكتب فيها صغيراً أو كبيراً ؟ وفعلاً قدمت لها مقالاً ، ونشر ، وأخذت عليه أجراً : مائة وخمسين قرشاً . لا بأس ، شىء خير من شىء ، ولكنى لم أنشط أو قل لم تنفتح نفسى لموالاة الكتابة فى الثقافة . فقد كنت أشعر أنى من القبيلة المعادية . . قبيلة الرسالة ، وقد غرس شيخ القبيلة « الزيات » فى نفسى بعض الثقافة التى تناصب الرسالة المنافسة !

حقًّا إن حنان الرسالة بلا ضرع يدر ، أو كما يقال بالعامية « زى الوز حنية بلا بز » ولكن الرجل يشعرنى بالأبوة مذ عملت معه من قديم ، كان مرتبى القليل لقاء العمل فى المجلة وأنا طالب يحل محل « الحوالة » البريدية التى كانت تأتينى من أبى قبل أن ينقطع الحبل . .

وفى خلال ذلك لقينى زميل عائد من البحرين فى الإجازة الصيفية ، أغرانى بالسفر إلى هناك للتدريس ، وتحدد موعد لمقابلة الرجل الإنجليزى المشرف على التعليم هناك . كان ذلك طبعاً أيام الاستعمار ، وتحدثت مع ذلك الإنجليزى حديث المساوم المتردد . . كانت عين فى البحرين

والفلوس وعين فى الرسالة والإفلاس ! ولعله اشتم منى أنى لن أكون هناك عنصراً مريحاً . . فلم يتم الاتفاق .

وحكيت لزوجتى ذلك ، فغضبت قائلة : لماذا ترفض ؟ ألا ترى ما نحن فيه ؟ وكانت حاملاً فى الولد الخامس . . كنت منذ البدء معتنقاً تحديد النسل ، ولكن الوسائل لم تكن دائماً ناجعة ، حتى وصلت إلى وسيلة حاسمة بعد الخامس : عملية جراحية يسيرة نتيجتها أن يكون الماء الدافق خالياً من اللقاح .

عندما جاء الولد الخامس رقيت إلى الدرجة الخامسة . وصادف ذلك أيضاً أن طلب إلىّ الزيات كتابة الباب الأسبوعى « الأدب والفن فى أسبوع » فى جملة ما اتخذه من وسائل للتجديد فى المجلة ، وجعل لى ثمانية جنيهات فى الشهر زادت فيما بعد إلى عشرة . ودر اللبن . .

وكان ذلك رغداً . . وأحسست للمرة الثانية – كانت الأولى فى السودان – أنى أب يفيض على أولاده فى سعة وسعادة . . وهو شعور يعرف متعته الأب ، إذ يحقق أبوته بمقدرته على إسعاد أولاده .

وسارت السفينة باسم الله مجراها ومرساها . .

ونختم هذه الجولة من « خطًى مشيناها » هذا الختام السعيد ، كما يحدث فى الأفلام والمسرحيات والتمثيليات الإذاعية والتليفزيونية ، وإن كنت لم أقصد كما يقصدون .

وأشكر لك أن صبرت معى إلى هذه النهاية ، التى أرجو أن تكون منها بداية مجددة فى جولة أخرى . وإلى اللقاء إن كتب لنا البقاء .

فهرس

	صفحة
أحمد أفندى	٥
سيدنا	١٣
حب وسحر	٢١
بين المدينة والقرية	٣١
ثورة وحكومة	٤١
الجاموسة وأبو زيد الهلالى	٤٩
عالم جديد	٥٩
السلاح الأحمر	٦٩
الجراية والمجاورون	٧٩
فاطمة والحلاوة والنحو	٩٧
زواج أخى	١١٣
صحوت على عالم جديد	١٣١
مفلس طروب	١٤٩
نقيب الأدباء	١٦٧
السياسة وهموم المجتمع	١٨٥
فى دار العلوم	٢٠٥
فى السودان	٢٢٣
كبت أدبى	٢٤٣
الولادة الثانية	٢٦١

رقم الإيداع	١٩٧٧/٢٦٤٤
الترقيم الدولى	ISBN ٩٧٧ - ٢٤٦ - ٦٩٨ - ٥

١/٧٧/٥

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)